
نحو تأصيل إسلامي للتاريخ
الأمة المسلمة
قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم
أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ
ذرية ابراهيم عليهم السلام
والمسجد الأقصى
الدكتور جمال عبد الهادي محمد مسعود
الدكتورة وفاء محمد رفعت جمعة
الوفاء للطباعة والنشر

ذرية ابراهيم عليهم السلام
والمسجد الأقصى

بحوث تأصيل إسلامي للتاريخ

الأمة المسلمة

قبل بعثة محمد ﷺ

أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ

ذرية إبراهيم عليهم السلام والمسجد الأقصى

الدكتور جمال عبد الهادي محمد مسعود

الأستاذ المساعد بقسم التاريخ الإسلامي
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى

الدكتورة وفاء محمد رفعت جمعة

الأستاذة المساعدة بقسم التاريخ الإسلامي
« طالبات » كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى



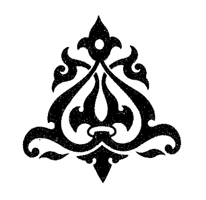
دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ش.م.م - المنصورة
التوزيع : شارع البحر أمام كلية الطب . ت : ٣٤٧٤٢٣
المطابع : شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب - عمارة الوفاء
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص . ب : ٢٣٠ - تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFAUN

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

ونشهد أن لا إله إلا الله الأحد الصمد . الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولىٌّ من الذى وكبره تكبيرا . الله الذى خلقكم ، ثم رزقكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون .

ونشهد أن أفضل خلق الله ، وأحبهم إلى الله ، وأصدقهم عبودية لله ، وأعرفهم بحقوق الربوبية ، وأحرصهم على أدائها كاملة غير منقوصة ولا مشوبة بأى شائبة ، وأحقهم – لذلك و ﴿ الله أعلم حيث يضع رسالته ﴾ – بأن يكون خاتم المرسلين ، وإمام المهتدين ، وأن يكون رسولا للناس أجمعين ، من يوم مبعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، وهو أجدرهم أن يحمل عن ربه أثقل الأمانات ، وأن يبعثه رب العالمين بأجمع الرسالات ، لإصلاح الإنسانية كلها ، وشفائها من كل أمراضها وعللها الروحية والعقلية : الفردية والاجتماعية ، من كل الألوان فى جميع الأحوال والبلدان والأزمان ، ذلك هو عبد الله رسوله ومصطفاه : محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرا .



فهرســت الموضــوعات

الصفحة

المقدمة : نماذج من التشويه والتزييف الذى تعرض له تاريخ الأنبياء والرسل (إبراهيم وذريته) عليهم السلام ، والدين الذى دعوا إليه ، والكتب التى أنزلت عليهم ، قديما على أيدى اليهود ، وحديثا على أيدى المستشرقين ومن سار على نهجهم ٥

الفصل الأول

الجزء الأول : نماذج من التشويه والتزييف من خلال : ٩

أولا : دراسة العهد القديم ٩

ثانيا : دراسة التلمود ٢٥

الجزء الثانى : فحص كتاب قصة الحضارة ، تأليف ول ديورانت ٢٩

الجزء الثالث : دراسة كتاب الحضارات السامية القدمية ، تأليف س. موسكاتى ٣٥

الجزء الرابع : دراسة كتاب الشرق الخالد ، تأليف د. عبد الحميد زايد ٣٧

الجزء الخامس : دراسة كتاب حضارة مصر والشرق القديم ، تأليف مجموعة من الأساتذة ٤١

الجزء السادس : دراسة كتاب الموسوعة العربية الميسرة ٤٣

الجزء السابع : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين ٤٣

الفصل الثانى
التصحيح

تمهيد : إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ٤٥

الجزء الأول : رسالة لوط عليه السلام فى أرض الشام ٤٧

الجزء الثانى : إبراهيم عليه السلام يتلقى البشرى بميلاد إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب عليهما السلام ٥٧

الفصل الثالث

الجزء الأول : إسحاق عليه السلام ٦١

الجزء الثانى : يعقوب عليه السلام ٦٣

الجزء الثالث : ولد يعقوب عليه السلام ، أو بنو إسرائيل عليه السلام « سيرة يوسف عليه السلام » ٦٦

الجزء الرابع : بنو إسرائيل أو يعقوب عليه السلام ممكنون فى الأرض ١٠٠

الجزء الخامس : رسول من بنى إسرائيل فى مصر « سيرة موسى عليه السلام » ١٠٥

الفصل الرابع

الجزء الأول : الأمة المسلمة فى وادى النيل ، بنو إسرائيل يمكنون فى الأرض بعد هلاك فرعون ١٤٧

الجزء الثانى : خروج بنى إسرائيل من وادى النيل فى طريقهم إلى بيت المقدس على عهد موسى ويوشع بن نون عليهما السلام ١٥١

الجزء الثالث : موسى والخضر عليهما السلام ١٦٣

الجزء الرابع : (ا) موسى عليه السلام يحج بيت الله العتيق ١٦٦
(ب) وفاة موسى عليه السلام فى أرض التيه بسيناء ١٦٦
(جـ) موسى عليه السلام فى السماء السادسة ١٦٧
الجزء الخامس : منافق من بنى إسرائيل (قارون) ١٧١

الفصل الخامس

الجزء الأول : بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام
قصة طالوت وداود فى مواجهة جالوت وجنوده ١٨٣
الجزء الثانى : سيرة داود عليه السلام ١٩١

الفصل السادس

سيرة سليمان عليه السلام ١٩٥

الفصل السابع

الجزء الأول : تاريخ بنى إسرائيل : الفترة من وفاة سليمان عليه السلام
إلى زكريا ويحيى عليهما السلام ٢٣٧
الجزء الثانى : أخبار زكريا ويحيى عليهما السلام ٢٣٨

الفصل الثامن

الجزء الأول : سيرة عيسى بن مريم عليه السلام ٢٤٩
الجزء الثانى : صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله ٢٦٦
الجزء الثالث : معالم وتوجيهات ترسيها سيرة عيسى عليه السلام فى حياة
الأمة المسلمة ٢٧١

الجزء الرابع : أصحاب عيسى عليه السلام بعد وفاته فرق وشيع يبدلون دين الله عز وجل ٢٧٨

الجزء الخامس : بناء بيت لحم والقيامة ٢٧٩

الفصل التاسع

الجزء الأول : رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ٢٨١

الجزء الثاني : بيان أن الله تعالى منزه عن الولد ٢٨٣

الخاتمـــة ٢٩١

المصـادر والمراجـع ٣٤٥

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٨٦/١٦٢٠
الترقيم الدولي
٩٧٧ - ١٤٢٠ - ٥٠ - X

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

المقدمـــة

نماذج من التشويه والتزييف الذى تعرض له تاريخ الأنبياء والرسل (إبراهيم وذريته) – عليهم السلام – على يد اليهود قديما وعلى يد المستشرقين ومن سار على نهجهم حديثا .

لم تعرف البشرية صورا من صور الإجرام ، كما عرفتها ممثلة فى اليهود من بنى البشر ، وأفجر صورة من صور هذا الإجرام اليهودى هى محاولة اليهود صبغ إجرامهم بالصبغة الشرعية وقد سلكوا فى ذلك مسالك شتى ، أخطرها هى افتراؤهم الكذب على الله عز وجل ، ورسله وأنبيائه عليهم السلام . هذا الافتراء يتمثل فى :

أولا – نسبة أنفسهم إلى أنبياء كرام هم إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى ، وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام ، زاعمين أن هؤلاء الأنبياء الذين عاشوا على أرض فلسطين كانوا يهودا .

ثانيا – تأليف كتاب زعموا فيه أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام كانوا يهودا ، وأن إبراهيم هو أبو العبرانيين وهو جد اليهود الأعلى . هذا الكتاب أطلقوا عليه اسم التوراة[1] ، وزعموا أنها التوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام من عند الله عز وجل .

---

(١) « إن بنى إسرائيل كتبوا كتابا فاتبعوه وتركوا التوراة » حديث حسن رواه الطبرانى فى الكبير ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، تأليف محمد ناصر الدين الألبانى ، المجلد الثانى ، ص ٩١ حديث رقم ٢٠٤٠ – ٨٩٨ .

ثالثا – أنهم بانتسابهم إلى هؤلاء الأنبياء ، فإنهم قد ورثوا عنهم عقيدتهم وهى اليهودية ، كما ورثوا عنهم أرض فلسطين لأنها أرض الميعاد التى وعد الله بها عبده إبراهيم وذريته من

رابعا – ولما كان سمت الإجرام البارز فى اليهود هو القتل بغير الحق وأكل أموال الناس بالباطل ، وجمع الأموال عن طريق الزنا والسكر والعربدة ، فقد نسب اليهود فى توراتهم التى ألفوها إلى الله صفات يتنزه عنها الله عز وجل ، ونسبت إلى الأنبياء والرسل صفات يتنزهون عنها ، فقد صورت البعض على أنه سكير ، وصورت البعض على أنه زان ، وصورت البعض أنه سفاك دماء ، إلى غير ذلك من الصفات التى لا تتناسب وجلال النبوة والرسالة .

خامسا – تزييف أحداث التاريخ ومناهجها وكتبها وتشويهها بصورة تخدم أهداف اليهود ، فى القتل والإفساد فى الأرض بغير الحق ، وإخراج الناس من ديارهم ، وسلب أموال الشعوب وثرواتها .

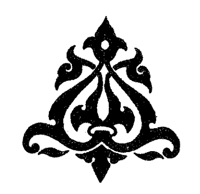
سادسا – افتراء الكذب على الله عز وجل ، ومن هذا زعم اليهود أنهم شعب الله المختار ، وأن الله قد اصطفاهم من بنى البشر لكى يكونوا سادة ، وجعل مَنْ دونهم عبيدا لهم وخدما أو حميرا أو جوييما .

سابعا – إن الكثير من أبناء العرب والمسلمين قد عالجوا بعض الموضوعات التاريخية متبنين وجهة النظر اليهودية – بقصد أو بدون قصد – إذ أنهم قد وافقوا اليهود على أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام كانوا يهودا ، وحينما عالجوا موضوعا كموضوع اغتصاب أرض الإسراء والمعراج مثلا ، تبرأوا من هؤلاء الأنبياء المسلمين – ظنا منهم – وهذا من عدم الفهم – أنّهم أنبياء يهود[1] فعلا ، وأن اليهود من أصلابهم ، وينتسبون إليهم ، وهذا كله وهم وباطل كما سنرى بإذن الله .

---

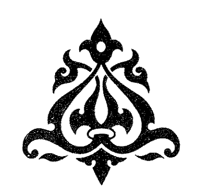
(١) سياسة الاستعمار الصهيونية ، المجلد الأول ، ص ٤ وما بعدها ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

وسنعرض سويا لبعض افتراءات العهد القديم أو ما يسمونها التوراة ، ثم التلمود على ذات الله ورسله وأنبيائه عليهم السلام ، كما سنعرض نماذج لبعض المراجع التى عالجت تاريخ الأنبياء ، والرسل من وجهة النظر اليهودية التوراتية .



أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم :

﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب ، وكُلاً هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكُلاً فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون * أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين * أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾[1] .



الفصل الأول

الجـــزء الأول

أولا – دراسة العهد القديم (ما تسمى بالتوارة) :

هل يمكن أن يتعب الله ، وأن يأخذه الإعياء بعد عمل ما ؟

القرآن الكريم يجيب على هذا السؤال ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ؟ بلى إنه على كل شىء قدير ﴾[1] .

ومن البداءة أن يكون الخلاق الكبير فوق الإجهاد ، وذهاب القوة ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤُدُه حفظهما وهو العلى العظيم ﴾[2] .

ولذلك يقول مثبتا هذه الحقيقة : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾[3] .

لكن العهد القديم يذهب غير المذهب ، ويصف الله فيقول : (وفرغ الله فى اليوم السادس من عمله فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمل الذى عمل ، وبارك الله اليوم السابع وقدسه ، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمله الله خالقا)[4] .

---

(١) الأحقاف ٣٣ .

(٢) البقرة ٢٥٥ ؛ هذا العرض مأخوذ نصا عن : قذائف الحق ص١١ وما بعدها . تأليف الشيخ محمد الغزالى .

(٣) ق : ٣٨ .

(٤) سفر التكوين ، الإصحاح الثانى

ودعك من الركاكة التى صيغت بها هذه العبارات ، فقد يكون المترجم هابط الأسلوب فى التعبير عن معنى ما ، لكنك لا تستطيع أن تفهم معنى آخر من هذا الكلام ، إلا أن الله (استراح) من جميع أعماله فى اليوم السابع ، هذه الأعمال التى أداها بوصفه خالقا .

واليهود يحرمون العمل يوم السبت ، ويقدسونه ، وجاء فى التوراة أن موسى أمر بأن يقتل رجما أحد الحطابين الذين أبوا إلا الكدح فى هذا اليوم ؟ .

كيف جرى الحديث عن الله بهذه الكلمات ؟ لعلها غلطة ناقل ، لكن الحديث عن عجز الله تبعه حديث آخر عن جهله ؟؟ .

واسمع إلى وصف العهد القديم لآدم وزوجه بعدما أكلا من الشجرة :

(وسمعا صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة ، فنادى الرب الإله آدم وقال له : أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت . فقال : من أعلمك أنك عريان ، هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها ؟ ..)[١] .

ما هذا ؟ كأنّ الإله يتمشى فى الجنة خالى البال مما حدث ، ثم تكشفت له الأمور شيئا فشيئا فعرف أن آدم خالف عهده ، وأكل من الشجرة المحرمة .

تصوير ساذج يبدو فيه رب العالمين وكأنه فلاح وقع فى حقله مالم ينتظر .

ما أبعد الشقة بين هذا التصوير وبين وصف الله لنفسه فى القرآن العظيم ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾[٢] ، ﴿ وما تكوُن فى شأن وما تتلوا مِنْه مِنْ قرآن ولا تعملون من عملٍ

---

(١) سفر التكوين الإصحاح الثالث .

(٢) ق : ١٦ .

إلا كنا عليكم شهودا إذ تُفيضون فيه ﴾[1]

وقد أعقب هذا (الجهل الإلهى) قلق غريب ، فإن الله يبدر وكأن ملكه مهدد بهذا التمرد الآدمى .

لقد أكل آدم من الشجرة – شجرة المعرفة – وارتفع بهذا العصيان إلى مصاف الآلهة فقد أدرك الخير والشر ، وكان الرب عندما خلقه حريصا على بقائه جاهلا بهما .

ومن يدرى ربما ازداد تمرده وأكل من شجرة الخلد وظفر بالخلود ، إنه عندئذ سوف ينازع الله حقه ، إذن فليطرد قبل استفحال أمره .

جاء فى العهد القديم :

(وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا ، عارفا الخير والشر ، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ، ويأكل ويحيا إلى الأبد ، فأحرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل فى الأرض التى أخذ منها ، وطرد الإنسان وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة)[2] .

لكن سيرة آدم وأبنائه على ظهر الأرض لم تكن مرضية لله إن منهجه فى الحياة ضل بالآثام والمتاعب ، ولم يكن الله حين خلقه يعرف أنه سيكون شريرا إلى هذا الحد ، لقد فوجىء بما وقع ، ومن أجل ذلك حزن الرب وتأسف فى قلبه أن خلق آدم وأبناء آدم ... قال العهد القديم :

(فحزن الزب أنه عمل الإنسان ، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب إنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه ، فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته ، ... الإنسان مع بهائم

---

(١) يونس : ٦١

(٢) التكوين : الإصحاح الثالث .

ودبابات وطيور السماء ، لأني حزنت إني عملتهم ..)[1] .

الحق أنني أدهش كل الدهشة للطفولة الغريرة التي تنضح من هذا الحديث الخرافي عن الله عز وجل .

إن الإله في هذه السياقات الصبيانية كائن قاصر .. متقلب ... ضعيف .

وما أشك في أن مؤلف هذه السطور كان سجين تصورات وثنية عن حقيقة الألوهية وما ينبغي لها ..

وأول ما نستبعده حين نقرأ هذه العبارات أن تكون وحيا أو شبه وحي ..

ومع ذلك فإن اليهود والنصارى يقدسون ذلك الكلام ، ويقول أحد القساوسة : (الكتاب المقدس - يعني العهدين معا - هو صوت الجالس على العرش ، كل سفر من أسفاره أو إصحاح من إصحاحاته أو آية من آياته هو حديث نطق به الكائن الأعلى) .

والمرء لا يسعه إلا أن يستغرق في الضحك وهو يسمع هذا الكلام ؟ أنه إله أبله هذا الذي ينزل وحيا يصف فيه نفسه بالجهل والضعف والطيش والندم .

ونحن المسلمين نعتقد أن الكتاب النازل على موسى برىء من هذا اللغو ، أما التوراة الحالية فهي تأليف بشري سيطرت عليه أمور ثلاثة :

الأول - وصف الله بما لا ينبغي أن يوصف به ، وإسقاط صور ذهنية معتلة على ذاته (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) .

الثاني - إبراز بني إسرائيل وكأنهم محور العالم ، وإكسير **الحياة** ، وغاية الوجود ... فهم الشعب المختار للسيادة والقيادة ، لايجوز أن ينازعوا في ذلك .

الثالث - تحقير الأمم الأخرى ، وإرخاص حقوقها ، وإلحاق أشنع الأوصاف بها وبأنبيائها وقادتها .

---

(١) التكوين : الإصحاح السادس .

وقد تتخلل هذه الأمور بقايا من الوحى الصادق ، والتوجيهات المبرأة ، بيد أن الأسفار الشائعة الآن تغلب عليها الصبغة التى لاحظناها .

وها نحن أولاء نسوق الأدلة على ما قلنا مكتفين بالشواهد من سفر التكوين وحده ، لأن الانتقال إلى غيره يطيل حبل الحديث .

فى هذا السفر أعلن الله ندمه على إغراق الأرض بالطوفان وقال لنوح : لن أرتكب هذه الفعلة مرة أخرى ؟ وسأضع علامة تذكرنى بذلك حتى لا أعاود إهلاك الحياة والأحياء ، وهاك النص :

(وكلم الله نوحا وبنيه معه قائلا .... أقيم ميثاق معكم فلا ينقرض كل ذى جسد أيضا بمياه الفيضان ، ولا يكون أيضا طوفان ليخرب الأرض ، وقال الله ، هذه علامة الميثاق الذى أنا واضعه بينى وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التى معكم إلى أجيال الدهر ، وضعت قوسى فى السحاب فتتكون علامة ميثاق بينى وبين الأرض ، فيكون متى أنشر سحابا على الأرض وتظهر القوس فى السحاب .. فمتى كان القوس فى السحاب أبصرها لأذكر ميثاقا أبديا بين الله وبين كل نفس حية فى كل جسد على الأرض ...)[1] .

هذا هو التفسير لقوس قزح ، وتحلل اللون الأبيض إلى عناصره المعروفة بألوان الطيف ، كما شرح ذلك علماء الطبيعة .. قوس قزح هى قوس الله يبرزها فى الأفق إشارة إلى العهد الذى أخذه على نفسه كى لا يغرق الأرض مرة أخرى ، إنه يرى هذه القوس فيتذكر ، حتى لا يتورط فى طوفان آخر ؟؟ .

وأيا ما كان الأمر فإن وصف الله بالضيق لما ارتكب من إغراق الأرض ، وتعهده ألا يفعل ذلك ، أمر يليق بالخلق لا بالخالق ... بالناس لا برب الناس .

على أن هذه القصة أيسر من دعوة الله إلى ضيافة نبيه إبراهيم ، لقد قدم الله فى شكل رجل مع اثنين من ملائكته ، وأقام لهم إبراهيم وليمة دسمة ، فأكلوا منها جميعا ؟ .

---

(١) الإصحاح التاسع من سفر التكوين .

وكان إبراهيم حريصا على إحراز هذا الشرف ، شرف أن يأكل الله فى بيته ، فلما لبى الله الدعوة أسرع الرجل الكريم فى إعداد مائدة مناسبة ، وهاك القصة من سفر التكوين :

(وظهر له الرب ... ونظر وإذا ثلاثة رجال ... وقال يا سيد (يقصد الله) إن كنت قد وجدت نعمة فى عينيك فلا تتجاوز عبدك .. فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال اعجنى واصنعى خبز ملة ، ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلا رخصا وجيدا وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذى عمله ، ووضعها قدامهم ، وإذا كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة أكلوا . وقالوا له :.. ويكون لسارة امرأتك ابن ... فضحكت سارة فى باطنها قائلة : بعد فنائى يكون لى تنعم وسيدى قد شاخ ؟ فقال الرب لإبراهيم : لماذا ضحكت سارة ... ؟ هل يستحيل على الرب شيء ؟)[1] .

ونتجاوز هذه المائدة الدسمة التى أكل منها الرب وملائكته لنقف بإزاء قصة أخرى من أغرب وأفجر ما اختلق الروائيون ؟؟

القصة الجديدة تحكى مصارعة بين « الله » وعبده « يعقوب » .

.. وهذه المصارعة دامت ليلا طويلا ، وكاد يعقوب يفوز فيها لولا أن الطرف الآخر فى المصارعة – وهو الله ؟؟ – لجأ إلى حيلة غير رياضية هزم بعدها يعقوب ! .

ومع ذلك فإن يعقوب تشبث بالله وأبى أن يطلقه حتى نال منه لقب « إسرائيل » ؟؟ .

ومنحه الله هذا (اللقب الفخرى) ثم تركه ليصعد إلى العرش ، ويدبر أمر السماء والأرض ، بعد تلك المصارعة الرهيبة .

أى سخف هذا ، وأى هزل ؟؟ .

أى عقل مريض أوحى بهذا القصص السفيه ؟؟ .

---

(١) الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين .

ولكن اليهود يريدون أن يرفعوا مكانة جدهم الأعلى ولا عليهم أن يختلقوا ما يستغربه الخيال ، وهاك القصة بأحرفها من سفر التكوين :

(فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب فى مصارعته معه ، وقال : أطلقنى ؟ .. فقال : لا أطلقك إن لم تباركنى ؟ فقال له : ما اسمك ؟ فقال يعقوب ، فقال : لا يدعى اسمك فى ما بعد يعقوب بل إسرائيل .. وسأل يعقوب وقال : أخبرنى باسمك فقال:، لماذا تسأل عن إسمى ؟ وباركه هناك . فدعا يعقوب اسم المكان « فينيئل » قائلا لأنى نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسى ... لذلك لا يأكل بنو إسرائيل « عرق النسا » الذى على حق الفخذ إلى هذا اليوم لأنه (الله) ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النساء ..)[1] .

.. نعم تخليدا لذكرى هذه المصارعة نشأ حكم فقهى بتحريم العمل يوم الراحة الإلهية .

وكم يفخر اليهود إذ كان أبوهم بهذه المثابة من القوة التى عاجزت الإله ، وكادت توقع به الهزيمة ؟؟ .

وهنا ننتقل إلى « الأمر الثانى » فى بناء التوراة وهو :

* إفراد بنى إسرائيل بالنسب العريق ، والعلاقة الفذة على حساب غيرهم من الأمم .

... اليهود يكرهون العرب كما يكرهون غيرهم من الأجناس الأخرى فيجب أن تعتمد هذه الكراهية على أساس دينى يصبح العرب بعده ملعونين فى الأرض والسماء ..

فكيف يتوصلون إلى هذا الغرض ؟

إنهم يثبتون قصة طريفة يزعمون فيها أن نوحا نبى الله والمدافع الأول عن

---

(١) سفر التكوين : الإصحاح ٣٢ .

دينه والناجى بأهله من الطوفان الطام العام هذا النبى سكر من كثرة ما أفرط فى شرب الخمر ثم استلقى على الأرض كاشفا سوأته ، وأن أحد أبنائه رآه كذلك فضحك منه وشهر به .

فلما أفاق نوح من سكرته ، وعلم بما وقع ، لم يخجل من نفسه وتبذله ، بل استنزل لعنة الله على من سخر منه ، وهاك النص :

(وشرب - يعنى نوح - من الخمر فسكر وتعرى فى خبائه فأبصر - حام - أبو كنعان عورة أبيه ، وأخبر أخويه خارجا ، فأخذ - سام - و - يافث - الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء ، وسترا عورة أبيهما ، فلما استيقظ (نوح) من خمره علم ما فعل ابنه الصغير ، فقال : ملعون - كنعان - عبد العبيد يكون لأخوته ، وقال مبارك الرب إله - سام - وليكن كنعان عبدا لهم ، ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام وليكن - كنعان - عبدا لهم ...)[1] .

يقول - عصام الدين ناصف - : ومعنى ما تقدم أن الإسرائيليين الساميين يريدون أن يتخذوا الكنعانيين عبيدا لهم ، وقد كان العدل والمنطق يقتضيان ذلك النبى الجليل ألا يصب تلك اللعنة الحامية على حفيده البرىء - كنعان - بل يصبها على ابنه الخاطىء - حام - وأنى له ذلك والكنعانيون هم المقصودون بأعيانهم لأنهم أصحاب فلسطين التى لبث الإسرائيليون دهورا يحلمون بها ويتوقون إلى غشيان مروجها الزاهرة وجنى زروعها الناضرة) .

أى أن مؤلف التوراة مهتم بتزكية بنى إسرائيل على حساب تجريح غيرهم ، ومن ثم استنزل اللعنة على كنعان ، حتى تبقى الشعوب المنسوبة إليه فى منزلة زرية .

ولا بأس من اختلاق سبب لهذه اللعنة تذهب فيه كرامة نبى ومكانته .

إذن فليشرب نوح الخمر حتى يفقد وعيه ويكشف عورته .

---

(١) تكوين : إصحاح ٩ .

ثم ليدع على حفيده بما دعا به ، والحفيد المسكين لا جريرة له .

المهم أن الكنعانيين أصبحوا جنسا ملعونا لأن دعوة - السكران - مستجابة ؟؟

وكما رأى كاتب التوراة أن يسكر نوحا ليصل إلى هذه النتيجة رأى أن يسكر لوطا ليصل إلى نتيجة مشابهة .

إن تلويث الأنبياء شيء سهل على من هونوا الألوهية نفسها ولكن مزور العهد القديم هنا بلغ من الإسفاف دركا سحيقا ، فهو لم يكتف بأن جعل لوطا سكيرا بل جعله عاهرا .

وبمن يزنى ؟ بابنتيه ، إحداهما بعد الأخرى ، فى ليلتين حمراوين ، وهاك النص :

(... فسكن - يعنى لوط - فى المغارة هو وابنتاه . وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ ، وليس على الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ، هلم نسقى أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيى من أبينا نسلا ؟.؟. فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة : إنى قد اضطجعت مع أبى . نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلى اضطجعى معه . وقامت الصغيرة واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت البكر ابنا ، ودعت اسمه (مؤاب) وهو أبو المؤابين إلى اليوم)[1] .

يقول عصام الدين حفنى ناصف (وهذا هو مربط الفرس) لقد عرف شعبا موآب وبنى عمون بصلابة الرأس ، وصعوبة المراس .

وما انفكا منذ القدم ينصبان لحرب بنى إسرائيل ويدحرانهم وينزلان بهم أكبر الخسائر .

---

(١) تكوين : إصحاح ١٩ .

فوجب على كتاب التوراة أن يتلقحوا[1] عليهما ويطلقوا ألسنتهم فى أعراضهما ويلصقوا بهما أقبح المثالب) ...

وفى سبيل ذلك لا حرج على اليهود أن يسيئوا إلى نبى كريم ، وأن ينسبوا إليه وإلى ابنتيه ما يتورع عنه الحشاشون والرعاع .

المهم عندهم أن يجرحوا أعداءهم ، وأن يسقطوا أنسابهم وأن يعتمدوا فى ذلك على وحى سماوى معصوم ، لا يجرؤ على تكذيبه أحد .

﴿ وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب ، لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾[2] .

يقول عصام الدين حفنى ناصف : (وصفوة القول إن كتاب التوراة لم يدونوا هذه القصص المسلسلة اعتباطا ، بل إنهم ابتدعوها ورتبوها ليصلوا بها إلى غاية لهم وضعوها نصب أعينهم ، هى أن الله خلق الكون من أجل الأرض ، وخلق الأرض من أجل بنى آدم ، وأنه أباد بنى آدم وقطع دابرهم ماعدا نوحا وبنى نوح ، واستبقى هؤلاء ليختار من بينهم ساما ثم يختار من حفدته إسرائيل وبنى إسرائيل) .

ولقد آمن بنو إسرائيل بهذه الخزعبلات ، وانتفخت أوداجهم غرورا وتبجحا فتوهموا أنهم شعب مقدس .

جاء فى سفر التثنية هذا النص (لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك ، إياك قد اختار الرب إلهك ، فتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض)[3] .

وهذ الاعتداد القوى بالجنس والنسب هون عند اليهود كثيرا من القيم والفضائل ، فإن اطمأنانهم إلى شرف الأرومة ، ونبل الجرثومة جعلهم لا يبالون شيئا عندما

---

(١) أى يرمون الناس بالباطل .
(٢) آل عمران : ٧٨ .
(٣) تثنية : ٧ ، ٦ .

يقولون أو يفعلون ، فهم – على أية حال – « الأسباط » أولاد الأنبياء ، وحلية الدنيا .

ولا بأس عندهم من اقتراف الدنايا ، أو افترائها مادام ذلك يحقق ما يشتهون ، والغاية تبرر الوسيلة .

ولقد نظرت إلى قصصهم عن زيارة إبراهيم الخليل لمصر فرأيتهم بسهولة يصفون الرجل الكبير بأنه ديوث ، وفى سبيل حرصه على الحياة والمنافع الدنيئة يقدم امرأته إلى من يملكون النفع والضر ..

والتحقت زوجة إبراهيم ببيت فرعون الذى أهداه فى نظير ذلك بعض الغنم والحمير ؟؟

قبحكم الله ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾[1] كان إنسانا يساوى الألوف من الرجال ، وفى سبيل الله حارب الوثنية وحطم الأصنام وتعرض لنيران الجحيم ، وربى جيلا من الموحدين الحراص على مرضاة الله .

فهل هذا الرجل هو الذى يغرى امرأته بالذهاب إلى بيت فرعون من أجل الظفر بزريبة غاصة بالغنم والحمير ؟؟ لكن كاتب التوراة لم ير فى ذلك حرجا ، وهاك النص :

(.. وحدث لما قرب – أى إبرام – إلى مصر أنه قال لساراى امرأته ، إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون : هذه امرأته ، فيقتلوننى ويستبقونك . قولى : إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك .

فحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا ، ورآها رؤساء فرعون ، ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون ، فصنع إلى إبرام خيرا بسببها ، وصار له غنم ، وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال ، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة ... فدعا فرعون إبرام

---

(١) النحل : ١٢٠ .

وقال : ما هذا الذى صنعت بى ، لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك ؟ ... خذها واذهب)[1] .

ولنتجاوز هذه القصة الهابطة إلى قصة أخرى عن يعقوب نفسه الأب المباشر لليهود ، والذى أخذ لقب إسرائيل بعد معركة حامية مع الله نفسه ظلت ليلا طويلا والذى سمى اليهود دولتهم القائمة على أنقاض العرب باسمه .

إن هذا النبى عندنا نحن المسلمين إنسان جليل نبيل شارك أباه فى الدعوة إلى الله ، ونبذ الوثنية ورفع علم التوحيد وإقامة الملة السمحة ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ .

لكنه عند اليهود شخص محتال ، سرق النبوة من أخيه البكر بطريقة منحطة .

ويظهر أن الفكر اليهودى يحسب النبوة ميراثا دنيويا يمكن الاستيلاء عليه بالشطارة والمهارة ، وليست هبة عُلْيَا يمنحها رب العالمين من يصطفيهم من أهل الطهارة والنضارة .

وكان اليهود يخصون الابن البكر بالتركة كلها مادية كانت أو أدبية وعلى هذا كان – عيسو – الابن الأكبر لإسحاق هو الذى سيرث اللقب والمال – مثلما كان يحكم القانون الإنجليزى – ولكن أم يعقوب تفاهمت مع ولدها على غير هذا ، وانتهزت أن – عيسو – خرج ليحضر الطعام إلى أبيه المكفوف ثم نفذت خطتها ، وهاك التفاصيل كما رواها سفر التكوين .. تفاصيل سرقة نبوة ..

(... وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحاق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو إلى البرية كى يصطاد صيدا ليأتى به ، وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة : إنى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلا : ائتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتى ، فالآن يا بنى اسمع لقولى فيما أنا آمرك به ،

---

(١) تكوين : ٢١ .

اذهب إلى الغنم وخذ لى من هناك جديين جيدين من المعزى فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته ، فقال يعقوب لرفقة أمه : هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا رجل أملس ، ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة ، فقالت له أمه ... اسمع لقولى فقط ... وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها فى البيت ، وألبست يعقوب ابنها الأصغر ، وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديى المعزى ... فدخل إلى أبيه وقال : يا أبى ، فقال : ها أنذا ، من أنت يا بنى ؟ فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك ، قد فعلت كما كلمتنى ، قم اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك ... فقال إسحاق ليعقوب ، تقدم لأجسك يا ابنى .. أأنت هو ابنى عيسو أم لا ... فجسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو ... فباركه .. وقال :.. فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض .. لتستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل . كن سيدا لإخوتك ، وليسجد لك لتستعبد بنو أمك ، ليكن لاعنوك ملعونين ، ومباركوك مباركين)[1] .

وهكذا تمت سرقة رسالة سماوية .

... أنا أفهم أن تختطف الطائرات فى الجو ، وأن تغتصب المناصب فى الأرض ، أما أن يفرض شخص نفسه على الله . ويعتبر نفسه نبيا ويحول رسالة سماوية إليه بطريق التدليس والنصب ، فهذا هو العجب العجاب ولكنه منطق مؤلفى العهد القديم .

ويظهر أن شريعة الاحتيال أخذت امتدادها فى التصرفات التى نسبها العهد القديم إلى يعقوب وأبنائه .

وأمامى الآن قصص الزنا التى تقع فى بيوت الأنبياء ، كما يفترى هؤلاء الأفاكون .

---

(١) تكوين : ٣٤ .

والقصة لفتاة اسمها - دينة - بنت يعقوب عليه السلام من إحدى زوجاته ، أعجب بها ابن رئيس المدينة المجاورة واتصل بها ، ثم رأى أن يجعل هذه العلاقة مشروعة ، فلاطف الفتاة وقرر الزواج بها ، وكلم أباه كى يمضى إجراءات العقد ...

وذهب رئيس القبيلة يعرض على يعقوب مصاهرته . وتظاهرت الأسرة بقبول المصاهرة ، وكانت شروط الصلح مقبولة ، وطلب أبناء يعقوب من أصهارهم الجدد أن يختتنوا حتى يتم الزواج وتتسع دائرة العلاقات بين بنى إسرائيل وأهل المدينة جميعا .

وفى اليوم الثالث لإجراء الختان بين ذكور المدينة أغار أولاد يعقوب عليها وهى آمنة ، فقتلوا الذكور كلهم وسبوا كل الأطفال والنساء ، ونهبوا ما وجدوه من ثروات .

ولم يذكر سفر التكوين أن يعقوب علق بشىء على هذه المأساة ، بل يشتم من السياق أن المؤامرة تمت بموافقته . وهكذا يفعل الأنبياء ؟؟ .

إن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة لم يؤخذ من الساسة - الزمانيين - .. إن مصدره من هنا ، وإليك النص ،

(وخرجت - دينة - ابنة ليئة التى ولدتها ليعقوب ... فرآها شكيم ابن حمور الحوى رئيس الأرض وأخذها واضطجع معها وأذلها ، وتعلقت نفسه بدينة ابنة يعقوب ، وأحب الفتاة . ولاطف الفتاة ، فكلم شكيم حمور أباه قائلا خذ لى هذه الصبية زوجة ، وسمع يعقوب أنه نجس دينة ابنته .. فسكت حتى جاءوا (أى أبناؤه) ثم بعد أن عرض عليهم حمور مصاهرتهم ... فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر .. فقالوا لهما : لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر ، أن نعطى أختنا لرجل أغلف .. إن صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر نعطيكم بناتنا ونأخذ بناتكم ... واختتن كل ذكر ... فحدث فى اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين (أى بسبب الختن) أن ابنى يعقوب ، شمعون ولارى أخوى دينة أخذا كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر ، وقتلا حمور وشكيم بحد السيف ..

ونهبوا المدينة ، وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما فى البيوت ...)[1] .

أين شرف المعاملة فى هذه الروايات المليئة بالفسق وسفك الدم ؟؟ .

ولنا أن نسأل :

* كيف ضاع عرض ابنة نبى على هذا النحو الغامض ؟؟

* وإذا كان غلام أثيم قد اغتصبها كرها فلم لا يعاقب وحده ؟؟

* وإذا كان يعقوب وبنوه قد قبلوا إصلاح الخطأ بإتمام الزواج ، فلماذا أغاروا على المدينة ، واستباحوها وأزهقوا أرواح الأبرياء ، واسترقوا الأطفال والنساء ؟

* هل هذه سيرة أنبياء وأولاد أنبياء ؟ أم سيرة قطاع طرق ؟؟

لكن مؤلف التوراة وقر فى نفسه أن اليهود شعب مختار فصور الألوهية والنبوة وعلاقة اليهود بالناس أجمعين على الصورة التى أبرزنا لك ملامحها ، لم نستعن فى توضيحها إلا بالنصوص الواردة فى الكتاب المقدس ..

أكرهت نفسى على قراءة سفر التكوين بأناة ، ثم تملكنى الضجر وأنا أقرأ الإسفار الأخر فاكتفيت بنظرات عابرة .

إن جمهرة الفلاسفة والعلماء المؤمنين بالله يرفضون كل الرفض أن يوصف بالانحصار والجهالة والتسرع ، كما يرفضون كل الرفض أن يسيىء اختياره لسفرائه إلى خلقه فلا يقع إلا على السكارى والمنحرفين .

بل إن عرب الجاهلية المشركين كانت نظرتهم إلى خالق الكون أرقى وأرحب .

وما أوخذوا به أنهم تزلفوا بآلهة أرضية لا أصل لها يحسبون أنه أكبر أو أنهم أقل من أن يتصلوا به اتصالا مباشرا

---

(١) تكوين : ٢٤ .

أما وصف الله أو الحديث عنه بالعبارات المدونة فى العهد القديم فهو خيال فى الفكر يتنزه المولى الجليل عنه .

بيد أن النصارى قبلوا هذه الأسفار على علاتها وجعلوها شطر الكتاب المقدس ..

لماذا .. لأنها تخدم قضيتين تقوم عليهما النصرانية الشائعة .

* الأولى : قضية تجسد الإله ، وإمكان أن يتحول رب العالمين إلى شخص يأكل ويصارع ويجهل ويندم ... الخ .

* الثانية : قضية أن البشر جميعا أرباب خطايا وأصحاب مفاسد ، وإنهم محتاجون لمن - ينتحر - من أجلهم كى تغفر خطاياهم .

وقد رفض الإسلام كلتا القضيتين ، وتنزل القرآن الكريم مفيضا الحديث عن تنزيه الله وسعته وقدرته وحكمته وعلمه ، كما أفاض الحديث عن الناس ومسئوليتهم الشخصية عما يقترفون من خير أو شر .

وذكر القرآن الكريم أن لله عبادا تعجز الأبالسة عن غوايتهم وأنهم من نقاوة الصدر وشرف السيرة ورفعة المستوى بحيث يقدمون من أنفسهم نماذج للإيمان والصلاح والتقوى ، تتأسى بها الجماهير .

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلا ﴾[1] .

فإن لم يكن نوح ولوط وإبراهيم ويعقوب من هؤلاء النبلاء الكرام فمن هم إذن الصالحون الفضلاء ؟

وإذا كان أنبياء الله سكارى وزناة ومحتالين فلماذا يلام رواد السجون وأصحاب الشرور ؟؟

ولا عذر للنصارى فى تصديق هذا اللغو ، بل لا عذر لهم فى ادعاء أن الله ولد وأن له ولدا ، إلى آخر ما يهرفون به ..

---

(١) الإسراء : ٦٥ .

أحيانا فى هدأة الليل أرمق النجوم الثاقبة وأبعادها السحيقة ، ثم أتساءل - أليس بارىء هذا الملكوت أوسع منه وأكبر ؟ فكيف يحتويه بطن امرأة ؟؟

وأحيانا أرمق الأمواج ذوات الهدير وهى تضرب الشاطىء وتعود دون ملل أو كلل . إن أربعة أخماس الأرض مياه ، ويبرق فى رأسى خاطر عابر ، هل رب هذا البحر العظيم كان جنينا فرضيعا ... فبشرا قتيلا ؟؟

وأهز رأسى مستنكرا وأنا أتلو هذه الآيات :

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟ ﴾ .

﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ؟ ﴾ .

﴿ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل فأنّى تسحرون ﴾[1] .

﴿ ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ﴾[2] .

« رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا »[3] ...

ثانيا : دراسة عن التلمود :

هكذا عمد اليهود إلى تحريف شريعة موسى النبى المسلم ، واستعاضوا عنها بكتاب ألفوه وزعموا أنه التوراة التى أنزلت على موسى . ثم قاموا بتأليف كتاب آخر هو ما يسمونه « التلمود » (Talmud). وهو كتاب وضعه حاخامات اليهود ، تفسيرا لما زعموا بأنه التوراة .. وقد جاء هذا التفسير أول

---

(١) المؤمنون : ٨٤ ، ٨٩ .
(٢) المؤمنون : ٩١ .
(٣) انتهى عَرْض الشيخ محمد الغزالى .

الأمر شفهيا ، تضمن الشرائع والوصايا والتعاليم والآراء الدينية ومسائل الأحوال الشخصية . وكانت هذه الشروح تتناقل وتدرس شفهيا من جيل إلى آخر ، ثم رؤى حفاظا عليها تدوينها فى كتاب أطلق عليه « التلمود » ومعناه كتاب تعليم ديانة اليهود وآدابهم . وتوجد منه نسختان : التلمود الأورشليمى نسبة إلى أورشليم لأنه وضع فيها ، ويرجع تاريخه إلى أواخر القرن الرابع ، ويحتوى على تسعة وثلاثين بحثا كتبت بلغة عبرية واضحة وموجزة ، والتلمود البابلى نسبة إلى بابل ، وضعه أحبار اليهود فى بابل فى أواخر القرن الخامس ، وهو أكثر شمولا وأوسع نطاقا من التلمود الأورشليمى ، ويضم ستة وثلاثين بحثا باللغة الآرامية . ويتألف التلمود من قسمين : مشنا « لفظة عبرية معناها الدرس والمطالعة » « جمارا : معناها الإتمام والتكميل » وقد ازدحم التلمود بمبادىء غير خلقية اتخذها اليهود أسلوبا ومنهاجا لهم فى الحياة ، سواء فى علاقاتهم بعضهم ببعض أو فى علاقاتهم مع غير اليهود وقد أطلقوا لفظة (الجوييم) على غير اليهود ويقصدون بها « الكفار « أو « الأجانب » ، أو « الأميون » ، ويعد التلمود كتاب السياسة الإرهابية الصهيونية ، بما جاء فيه من توجيهات سياسية ونزعات استعلائية ابتغاء السيطرة على العالم كله فى المدى البعيد : « يقول التلمود★ :

* إن النهار اثنتا عشرة ساعة – فى الثلاث الأولى منها يجلس الله ويطالع الشريعة ، وفى الثلاث الثانية يحكم ، وفى الثلاث الثالثة يطعم العالم وفى الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك .

* يندم الله على تركه اليهود فى حالة التعاسة حتى أنه يلطم ويبكى كل يوم فتسقط من عينيه دمعتان فى البحر فيسمع دويها من بدء العالم إلى نهايته ، وتضطرب المياه وترتجف الأرض فى أغلب الأوقات فتحصل الزلازل .

* خلق الله الشياطين يوم الجمعة حين خيم الظلام ولم يخلق لهم أجسادا ولا ملابس ، لأن يوم السبت كان قريبا ولم يكن لديه الوقت الكافى ليعمل كل ذلك .

★ هذا الجزء مأخوذ نصاً عن كتاب : سياسة الاستعمار الصهيونية ، ص ٧ – ٩ .

* تتميز أرواح اليهود عن باقى الأرواح بأنها جزء من الله ، كما أن الابن جزء من أبيه ، ومن ثم كانت أرواح اليهود أعز على الله من باقى الأرواح .

* لا يدخل الجنة إلا اليهود أما النار فهى مأوى الكفار ، ولا نصيب لهم فيه سوى البكاء لما فيه من الظلام والعفونة والطين .

* الفرق بين درجة الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهود وباقى الشعوب ، والدنيا بما فيها ملك اليهود ، ولهم عليها حق التسلط ولهم مطلق التصرف فى كل شىء .

* يسمح بغش غير اليهودى وأخذ ماله بواسطة الربا الفاحش . ولكن إذا بعت أو اشتريت من أخيك اليهودى شيئا فلا تخدعه أو تغشه .

* إن الله لا يغفر ذنبا ليهودى يرد لأمى ماله المفقود ، وغير جائز رد الأشياء المفقودة من الأجانب . غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبى إلا بالربا .

لا يخطىء اليهودى إذا انتهك عرض الأجنبى ، فكل امرأة ليست من بنى إسرائيل بهيمة . وكل من ليس يهوديا أجنبى – وكل عقد نكاح لغير اليهود فاسد ، وإذا زنى اليهودى بامرأة مسيحية فلا يكون قد ارتكب محرما ، بل إن لليهود الحق فى اغتصاب غير اليهوديات .

* ليس للمرأة اليهودية أن تبدى أية شكوى إذا زنى زوجها بأجنبية فى المسكن المقيم فيه مع زوجته .

* على اليهودى أن يؤدى عشرين يمينا كاذبة ولا يعرض أحد إخوانه اليهود لضرر ما .

* على اليهود أن يعاملوا المسيحيين كحيوانات دنيئة غير عاقلة .

* الخارجون عن دين اليهود خنازير نجسة . وخلق الله الأجنبى على هيئة إنسان ليكون لائقا لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من أجلهم .

* ليس من العدل أن يشفق اليهودى على أعدائه ويرحمهم .

* غير مصرح لليهودى أن يوجه السلام إلى الكافر إلا إذا كان يخشى ضرره أو عداوته والنفاق جائز ولا بأس من ادعاء محبة الكافر إذا خاف اليهودى من أذاه .

* وقد غرس التلمود فى اليهود آمالا كبارا فى السيطرة على العالم ، وطلب منهم اتخاذ كافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة وصولا إلى الهدف النهائى ، وهو التسلط على العالم . وقد ورد فى التلمود على لسان حاخامات اليهود وهم يرسمون سياسة المستقبل :

(يجب على كل إسرائيلى أن يبذل جهده لمنع تملك باقى الأمم فى الأرض حتى تبقى السلطة لإسرائيل ، لأنه يجب أن تكون السلطة لهم أينما حلوا ، فاذا لم يتيسر لهم ذلك اعتبروا منفيين وأسرى ، وإذا تسلط غير الإسرائيليين على أوطان إسرائيل حق لهؤلاء أن يندبوا عليها ويقولوا : يا للعار ، يا للخراب ، ويستمر ضرب الذلة والمسكنة على بنى إسرائيل حتى ينتهى حكم الأجانب ، وقبل أن تحكم إسرائيل نهائيا على باقى الأمم يلزم أن تقوم الحرب على قدم وساق ... ويهلك ثلث العالم) ..

واعتبر اليهود كتاب التلمود كتابا منزلا ، وأفضل من التوراة ، وأجدر بالاحترام ، حتى إن الحاخامات أدخلوا فى روع اليهود ، أن من يخالف التوراة يغفر له ، أما من يخالف التلمود فلن يغفر الله له »[1] .

---

(١) انظر : سياسة الاستعمار والصهيونية ، ص ٧ – ٩ وهو يعتمد على أصول الصهيونية في الدين اليهودى ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦٣/١٩٦٤ م ، ص ٥٩ ، تأليف د. إسماعيل راجي الفاروق ؛ خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٥م ، دار القلم ، الفصل السادس ، ص ص ٦٩ – ١٠٥ ، تأليف عبدالله التل ؛ ومن التلمود من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ص ص ٢٥ – ٧٩ .

الجـزء الثانـى

ثانيا : قصة الحضارة ، تأليف ول . ديورانت ترجمة محمد بدران ، الجزء الثانى ، المجلد الأول ، الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية ، ص ٣٢١ وما بعدها .

يربط الكاتب فى هذا الفصل بين اليهود ، وفلسطين الأرض الموعودة ، وإبراهيم عليه السلام ، فهو يعتبر أن فلسطين هى أرض اليهود الموعودة منذ أقدم الدهور ، فيقول نصا :

(إن فلسطين هى أرض اليهود الموعودة منذ أقدم الدهور) ؛ ويزعم بأن اليهود هم شعب إبراهيم عليه السلام ، وأن الله قد وعدهم هذه الأرض بعد إخراج الكنعانيين منها (ص ٣٢٤) ، وأنهم قد عادوا إليها الآن بعد ثمانية عشر قرنا من النفى والعذاب والتشريد (ص ٣٢٢)[1] .

ولما كانت أطماع اليهود تحلم بأرض موعودة تمتد من النيل إلى الفرات ، فقد زعم الكاتب أن مسقط رأسهم العراق (ص ٣٢٤) ، وأنه قد أقام عدد كبير منهم بمصر وكانوا قد وصلوا إليها عام ١٦٥٠ ق . م . وأخرجوا منها قصراً بعد أن تكاثر عددهم ، عام ٢٢٠ ق . م (هامش ص ٣٢٤ – ٣٢٥) .

وقد زعم الكاتب أن اليهود قد أخرجوا من مصر بقيادة موسى عليه السلام (ص ٣٢٦) . وقد أنكر الكاتب نبوة موسى عليه السلام ورسالته ، وزعم أنه كان كاهنا مصريا خرج للتبشير بين اليهود المجذومين (هامش ص ٣٢٦) ،

---

(١) هكذا كان اليهود يمهدون لجريمتهم فى اغتصاب أرض فلسطين ، فزيف المستشرقون اليهود والنصارى تاريخ الأمة المسلمة وتاريخ البشرية تمهيدا لهذه الجريمة الشنعاء التى تعطى التبرير للمجرم على ارتكاب جريمته ، وتحوله من مغتصب إلى صاحب حق . والكاتب فى هامش ص ٣٢٣ يزعم أن سفر التكوين فى التوراة الذى يقص تاريخ اليهود القديم قد صمدت للنقد والبحوث التاريخية ، وأن الوثائق والآثار تؤيد أقوال العهد القديم وهذا ما لا أصل له ، إنما هو شىء من خيال الكاتب .

كما زعم الكاتب أن قتالا جرى بين اليهود والكنعانيين انتصر على أثره اليهود بعد أن أجروا دماء الكنعانيين أنهارا وكان هذا القتل كما تقول التوراة فريضة الشريعة التى أمر بها الرب موسى (ص ٣٢٦) وزكاة للرب[١] ص ٣٢٧ .

ولما كان الكاتب حريصا على إبراز صفة شعب الله المختار ، لليهود ، نجده يزعم أن اليهود كانوا أنقى أجناس الشرق الأدنى غير النقية لأنهم لم يمتزجوا بغيرهم من الأجناس إلا كارهين ص ٣٢٨ . ويزعم أيضا أن اللغة العبرية كانت أعظم اللغات الطنانة الرنانة على ظهر الأرض ص ٣٢٩ ، وزعم الكاتب أن الأسباط الاثنى عشر كانوا يهودا (ص ٣٢٩) .

ومن باب تقنين الجريمة وصف الكاتب داود عليه السلام بالعبارات التالية ص ٣٣١ .

(داود قاتل جالوت ، وحبيب يوناثان وكثير من الفتيات ، الذى يرقص بكل قوته وهو نصف عار ويجيد الضرب على القيثارة ويغنى أغانيه العجيبة بصوته الرخيم ، ملك اليهود القدير الذى ساسهم نحو أربعين عاما) .

(فهو قاس القلب كما كان الناس فى وقته وكما كانت قبيلته ، وكما كانت الصفات التى خلعها على إلهه ، ولكنه مع هذا كان مستعدا لأن يعفو عن أعدائه كما كان يعفو عنهم قيصر والمسيح ، يقتل الأسرى جملة كأنه ملك من ملوك الآشوريين ويأمر ابنه سليمان أن « يحد بالدم إلى الهاوية » شيبة شمعى بن جيرا الذى لعنه منذ سنين كثيرة ، ويأخذ امرأة أورية الحثىّ بين نسائه فى غير حياء ، ويرسل أورية إلى الصف الأول فى ميدان القتال ليتخلص منه .... ومع ذلك يعفو عن صمويل مرات .... ولا يسلبه إلا درعه (ص ٣٣١) .

وهكذا حول الكاتب بمزاعمه داود إلى نبى يهودى ، قاتل ، زان ، لص غدَّار ....

---

(١) وهكذا يبرر اليهود جريمتهم من خلال ما يزعمون أنها التوراة التى قاموا بتأليفها ويعلق الكاتب على ذلك بقوله « أما يشوع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الثانى وهو أن أكثر الناس قتلا هو الذى بقى حيا وبهذه الطريقة الواقعية التى لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة (ص ٣٢٧) .

وعلى هذا النسق استمر الكاتب يعالج تاريخ سليمان (عليه السلام) ص ٣٣٢ وما بعدها :

(ولما ورث سليمان العرش قتل جميع منافسيه فى الملك ليستريح من متاعبهم ، ولكن عمله هذا لم يغضب يهوه الذى أحب الملك الشاب فوهبه حكمة لم يهبها أحدا من قبله ولا من بعده ... أنه لم يكفه أن يستمتع فى حياته بكل نعيم ولذة وأن يقوم بجميع ما يفرضه عليه الملك من واجبات ففى حكمه الطويل أفادت أورشليم ، التى اتخذها داود[1] عاصمة . ومن بلاد العرب جاءت إليه ملكة سبأ تخطب وده ، ولعلها جاءت إليه أيضا تطلب معونته) ص ٣٣٣ .

(واستخدم بعض هذه الثروة فى ملاذه الشخصية ، وأخص ما استخدمها فيه إشباع شهواته فى جمع السرارى ، وإن كان المؤرخون ينقصون زوجاته السبعمائة وسراريه الثلثمائة إلى ستين وثمانين على التوالى ، ولعله أراد ببعض هذه الزيجات أن يوطد صلاته بمصر وفينيقية أو لعل الباعث له عليها هو نفس الباعث الذي جمل رمسيس الثانى على هذا العمل بعينه ، وهو رغبته فى أن يترك وراءه طائفة من الأبناء لهم من القوة الجنسية العظيمة ما كان له هو . على أن سليمان قد استخدم معظم موارده فى تقوية دعائم حكومته وتجميل عاصمته) ، ص ٣٣٣ .

(ولكنه أفلس وأفلست معه بلاد اليهود) ص ٣٣٤ ومن الوسائل التى استخدمها لتمويل حكومته .... بيع العاج والقردة والطواويس ، وهذه كان يمكن بيعها للإثراء بأثمان غالية) ص ٣٣٤ .

(وكان يفرض الإتاوات على جميع القوافل المارة بفلسطين . وقد فرض ضريبة الرؤوس على جميع رعاياه ... وأن سليمان اعتزم أخيرا أن يزين المدينة بمعبد جديد ليهوه) ص ٣٣٤ .

---

(١) لعلنا نذكر ما فعلته إسرائيل الحالية من إعلان القدس عاصمة لها مدى الحياة ، وقد سبق ذلك تمهيد طويل ، حمل لواءه مزيفو التاريخ ، فها هو الكاتب يزعم أن القدس عاصمة للدولة اليهودية منذ عهد داود (ص ٣٣٢) .

ويزعم الكاتب فى هامش ص ٣٣٤ ، (أنه ليس ببعيد لأن يكون مكان الهيكل هو المكان الذى يشغله الآن الحرم الشريف فى المسجد الأقصى)[١] .

(ولما فرغ سليمان من إقامة ملكه شرع يستمتع به ، وأخذت عنايته بالدين تقل على مر الأيام ، كما أخذ يتردد على حريمه أكثر مما يتردد على الهيكل – إذ أقام مذابح للآلهة الخارجية التى كانت تعبدها زوجاته الأجنبيات ، ولكن كتاب أسفار التوراة لا تطاوعهم أنفسهم على أن يصفحوا عنه لعدله الفلسفى أو لعدله السياسى – بين مختلف الآلهة ..) ثم تحدث الكاتب عن أسر اليهود فقال : (فكان ما قاسوه من العذاب هو الذى حول دين يهوه الحربى إلى دين أنبيائهم الذى لا يكاد يفترق عن الاشتراكية فى كثير أو قليل) ، ص ٣٣٧ .

وهكذا حول الكاتبُ النبىَّ المسلَم الكريم سليمَان عليه السلام إلى : نبى يهودى ، سفاك دماء ، زير نساء ، استخدم ثروته فى إشباع شهواته فى جميع السرارى ، وأن علاقته بملكة سبأ كانت علاقة غرامية ، لا أثر فيها للدعوة إلى الإسلام[٢] .

كما حوله إلى مشرك ، لا يجد غضاضة فى عبادة الآلهة المختلفة ، وأنه كان يوالى أعداء الله خوفا منهم . إلى غير ذلك مما قرأنا ، وآخره أنه أقام هيكلا ليهوه مكانه أسفل المسجد الأقصى .

وانتقل الكاتب بعد ذلك إلى معالجة تاريخ موسى عليه السلام على نفس النسق السابق . فزعم أنه كان يهوديا ص ٣٣٨ .

(وكيف أخذ اليهود يرقصون وهم عراة أمام العجل الذهبى ، وكيف أعدم موسى والملاويون ثلاثة آلاف منهم عقاباً لهم على عبادة هذا الوثن . وفى تاريخ اليهود الباكر شواهد كثيرة تدل على أنهم عبدوا الأفعى ، ومن هذه الشواهد

---

(١) وهكذا منذ سنوات طويلة حدد اليهود مكان الهيكل ، إنه كان مكان المسجد الأقصى ، ورسموا صورة لما يجب أن يكون عليه الهيكل عند هدم المسجد الأقصى وإقامته مكانته ، ص ٣٣٥ .

(٢) انظر سليمان الحكيم لعميد الأدب العربى « توفيق الحكيم » وما هو بموفق وما هو بحكيم فى عرضه الشائن لسيرة هذا النبى الكريم سليمان عليه السلام .

صورة الأفعى التي وجدت فى أقدم آثارهم ومنها الأفعى النحاسية التى صنعها موسى والتى عبدها اليهود فى الهيكل إلى أيام حزقيا)[1] ص ٣٣٩ .

(ويبدو أن الناس كانوا ينظرون إلى موسى وهارون على أنهما ساحران ، وأنهم كانوا يناصرون السحرة والعرافين) ، ص ٣٣٩ .

وزعم أن (يهوه هو إله موسى وداود وغيره من الأنبياء) ، ص ٣٤٠ وصوره كما صورته التوراة ، لا يعلم كل شيء ، ولا يرى نفسه معصوما من الخطأ ، ويرى أن أشنع ما وقع فيه من الأخطاء هو خلق الإنسان ، ولذلك نراه يندم بعد فوات الفرصة على خلق آدم . وتراه غضوبا شرها ، متعطشا للدماء . متقلب الأطوار نزقا نكدا ، وهو يرضى عما استخدمه يعقوب من قتل وخداع فى الانتقام من لابان وهو كثير الكلام) .. إلى آخر ما أورده صاحب قصة الحضارة ، ص ٣٤٠ .

ويضع الكاتب على لسان موسى كلمات : « الرب رجل حرب » ، ويذكر الكاتب أن الأرض الموعودة (فلسطين) لا تنال إلا بحد السيف ولا يحتفظ بها إلا بالسيف ... ص ٣٤١ (وتمر عدة قرون من الهزائم العسكرية والخضوع السياسى والتطور الأخلاقى حتى يستحيل هذا الإله إلى والد هو[2] والد المسيح ص ٣٤١ . ويستمر كاتب قصة الحضارة فى تصوير الإله العظيم بهذه الصفات التى يتنزه عنها سبحانه وتعالى (وهو إله جبار يفكر فى إهلاك اليهود على بكرة أبيهم لأنهم عبدوا العجل الذهبى ، ويضطر موسى إلى أن يراجعه حتى يتملك عواطفه ، فيقول لربه : (إرجع عنى حمو غضبك واندم على الشر بشعبك) ؛ (وندم الرب على الشر الذى قال أنه يفعله) ، ص ٣٤١ ثم يريد يهوه) أن يفنى اليهود أصلا وفرعا لأنهم عصوا موسى ولكن موسى يستثير فيه عواطفه الطيبة ، ويأمره أن يفكر فيما يقوله الناس عنه إذا سمعوا بفعلته ، وهو يختبر قومه اختبارا قاسيا فيطلب إلى إبراهيم تضحية يا لها من تضحية ، ويعلّمُ

---

(١) وهى رمز للماسونية العالمية ، وذلك يؤكد أن الماسونية من ابتداع اليهود .

(٢) وهكذا يبدو اتباع منهج تطور الأديان واضحا فى كلام الكاتب .

إبراهيمُ يهوهَ ، كما يعلمُه موسَى مبادئَ الأخلاقِ الساميةِ) . ص ٣٤٢ .

ثم يتحدث الكاتب عن الديانة العبرانية فيقول إنها كانت أقرب إلى التوحيد من كل دين آخر قبل عصر الأنبياء ، إذا استثنينا عبادة الشمس القصيرة الأجل فى عهد إخناتون . لقد كانت اليهودية تسمو كثيرا على غيرها من أوثان ذلك الوقت فى عظمتها وسلطانها ، ص ٣٤٤ .

(وبقيت عبادة يهوه قرونا كثيرة دينا قوامه الخوف لا الحب ، والرهبة لا الرغبة رغم ما بذله سليمان من جهود لكى يحمل باللون والنغم عبادة هذا الإله الرهيب) .

(ولسنا ندرى ، إذا رجعنا بذاكرتنا إلى هذا الدين وأمثاله ، هل عادت الأديان على الإنسانية بالسلوى بقدر ما عادت عليها بالفزع) ، ص ٣٤٤ .

والعجيب أن ديورانت لم يترك الفرصة تمر دون تعليق فنراه يزعم نصا (إن التوحيد حتى فى يومنا هذا إنما هو توحيد نسبى ناقص ، فكما كان اليهود يعبدون إلها قبليا ، فإنّا نحن أيضا نعبد إلها أوروبيا . أو إنجليزيا أو ألمانيا أو إيطاليا . ولا تمر بنا لحظة واحدة نتواضع فيها قليلا فنذكر أن الملايين الذين يسكنون الهند والصين – بل سكان الغابات المتفقهين فى دينهم ... وأن يكون للعالم كله إله واحد حتى تربط الآلات الأرض وتؤلف بينها ، وتجعلها وحدة اقتصادية ، وتجمع الأمم فى حكومة واحدة) (هامش ص : ٣٤٣ – ٣٤٤) . ويستمر الكاتب فى تحامله على نبى الله سليمان فيقول :

(لقد تعجل سليمان ، كما تعجل بطرس الأكبر ولينين ، حينما أراد أن يحول البلاد من دولة زراعية إلى أخرى صناعية) ص ٣٤٨ .

وينسب كاتب قصة الحضارة ، التوراة المحرفة إلى موسى عليه السلام (ص ٣٦٦ وما بعدها) .

الجـزء الثـالث

الحضارات السامية القديمة ، تأليف س. موسكاتى ، ترجمة د/ السيد يعقوب بكر ، ومراجعة د/ محمد القصاص ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة .

زعم الكاتب أن سبب احتفاظ اليهود بكيانهم كأمة يكمن حتى يومنا فى الدين اليهودى وفى التمسك بعقيدة اليهود التى هى كما يقول الكاتب : (سمة شعب متميز ، لأنها تقوم على فكرة عهد بين الله وشعب إسرائيل) ص ١٣٧ .

وزعم الكاتب أن مصدرنا الأساسى عن تاريخ اليهود : « هو العهد القديم أى مجموعة الأسفار المقدسة التى تقص ذلك التاريخ وتفسره كما يزعم الكاتب ص ١٣٩ :

وزعم الكاتب أن اليهود ينتسبون إلى إبراهيم عليه السلام ، وأنهم هاجروا سويا من أرض العراق إلى أرض فلسطين التى وعدهم الله إياها . وزعم الكاتب أن اليهود قد أقاموا بمصر فترة ، وخرجوا منها بقيادة موسى بعد اضطهادهم على يد أحد الفراعنة) (ص ١٣٩ – ١٤٠) .

وزعم الكاتب أن إله موسى هو يهوه وأنه قد ظهر له ، وجدد العهد بينه وبين ذرية إبراهيم وأعلن الشريعة . وذلك يعنى أيضا أن اليهود يعتبرون موسى النبى المسلم يهوديا مثلهم (ص ١٣٩ – ١٤٠ ، ١٤٨) .

وينكر الكاتب رسالة داود وسليمان ويزعم أن الأنبياء كانوا : مَظهرا تلقائيا لما كان يشعر به الناس من سخط على الصورة التى فرضها الحكم الملكى (لداود وسليمان) على الدين . وكان الأنبياء يدعون إلى التمسك بالأفكار القديمة وكانوا من أوائل المنادين بتلك الفلسفة للتاريخ التى قلنا فيما مضى أنها تنتمى إلى جوهر الدين اليهودى ، ص ١٤٢ .

وهنا يتجلى حرص الكاتب على هدم النبوة والرسالة ، بل وقال فى موضع آخر : (إن النبوة تعبر عن انبعاث روح الحرية الموروثة عن حياة البداوة) ص ١٤٥ - (وجاءت حركة الأنبياء لتكبح وتبطل عملية الاندماج فى الدين) ص ١٥٠ . والكاتب هنا بكتابته يعطى اليهود - فى تصوره - الحق فى أن دولتهم من النيل إلى الفرات ولعله بذلك أراد تمهيد الرأى العام وتربية النشء على مدار سنوات طويلة على هذا الباطل ، حتى يؤمن به النشء ويعتنقه ، فإذا رأى اليهود يغتصبون الأرض ويضطهدون أهلها ويحطمون الأقصى - لامكنهم الله من ذلك - فذلك شيء طبيعى لأنه درس فى كتب التاريخ أن ذلك من حق اليهود .

وحاول الكاتب أن ينتقص من قدر نبى الله داود ص ١٤٣ ، وكذلك من سليمان فزعم : (أنه أعاد تنظيم المملكة على نمط الممالك المطلقة السلطان ، فالأبهة والترف فى البلاط ، وكثرة الزوجات والجوارى التى كانت تتطلبها اعتبارات الدبلوماسية) . ١٤٣ .

وزعم أيضا أن سليمان كان محتكرا للتجارة ، وأنه أقام نظاما من الضرائب ألقت على شعبه عبئا ثقيلا ص ١٤٣ - ١٤٤ .

وزعم الكاتب أن سليمان كان يهوديا ، وأنه أقام هيكلا ليهوه ، وأنه أدخل فيه صورا من العبادات الوثنية . ص ١٤٤ .



الجـزء الرابـع

الشرق الخالد ، مقدمة فى تاريخ وحضارة الشرق الأدنى منذ أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق . م ، تأليف د/ عبدالحميد زايد ، دار النهضة المصرية ، القاهرة .

وهذا نموذج لكتابات أحد أبناء المسلمين ، وهى تعتبر امتدادا للفكر الاستشراقى الذى يقوم عليه اليهود والنصارى ، فالكاتب هنا يزعم بأن موسى عليه السلام مصرى ، وأنه تأثر بعقائد الفراعنة وأنه مؤسس دين ، وأنه تزعم ثورة ضد فرعون .

وخلال هذا العرض الذى قدمه الكاتب ضاعت ملامح النبوة والرسالة التى أكرم بهما موسى عليه السلام . يقول الكاتب نصا :

من هو موسى وكيف تمت سكنى فلسطين ؟ (لقد أجمعت آراء المؤرخين أنه كان مهذبا طيب القلب ، هو ذلك الرجل المصرى الذى عاش فى بلاط فرعون وتأثر هو وبنو إسرائيل بعقائد المصريين . فثار موسى على تعدد الآلهة وتزعم حركة الثورة على دين فرعون . وبفضل النبى موسى رغب الإسرائيليون فى الاستقرار ، ولذلك عمل على تخليصهم من حياة البداوة والترحال ووعدهم موسى أرض كنعان التى كانت ملكا للعرب والعبريين . وكان عليهم أن يدخلوا فى معارك ضد أهلها ، وطالب موسى بنى إسرائيل بالقتال معتمدا على شريعة الآباء الأولين . ثم يفكر فى الدعوة إلى إله جديد غير تلك المعبودات التى كانت سائدة عند بنى إسرائيل)[١] .

---

(١) هذا قلب للحقائق ، فأبناء إسرائيل كانوا فى الأصل مسلمين موحدين ، أما الفراعنة المصريون فقد كانوا مشركين ملحدين ، كما أن نشأة موسى وحياته كانت على عين الله سبحانه وتعالى ، ثم أن تكليفه =

وزعم الكاتب أن داود عليه السلام كان متآمرا ، وأنه كان يهوديا ، وأنه جعل الدين اليهودى هو الديانة الرسمية لدولة إسرائيل وأنه كان موسيقيا ، وشخصية مليئة بالمتناقضات يقول الكاتب بالحرف الواحد :

(لقد قضى على داود بالسلاح الذى اتخذه ضد أعدائه ، وهو سلاح المؤامرات أهم ما يلفت النظر فى حكم داود هو أنه جعل ديانة يهوه الديانة الرسمية فى تلك الدولة الموحدة (إسرائيل ويهوذا)) (ص ٣٨٦) .

(وقد كان داود شاعرا ، وسبق أن ذكرنا أنه كان موسيقيا . وكانت شخصيته متناقضة فهو جبار إذا ما اضطر إلى ذلك ولكنه ضعيف أمام أولاده ونسائه) .

وتحدث الكاتب عن تاريخ سليمان فزعم : أنه يهودى ، وأنه كان يدين باليهودية ، فربط بينه وبين اليهود الذين يدعون انتسابهم إلى سليمان . بل وأعطى لهم الحجة بزعمه أن هيكل اليهود مكانه تحت قبة الصخرة فى بيت المقدس – لهدم المسجد الأقصى . وزعم الكاتب أن سليمان كان قاتلا ، وقتل من ؟ أخاه ، وقتل كبير الحاخامين حتى لا يقف فى وجهه إذا ما أراد أن يخالف تعاليم الدين .. الخ ما سنقرأه فى السطور التالية وهو مأخوذ نصا عن كتاب الشرق الخالد :

(أراد سليمان أن يحكم البلاد حكما مطلقا لذلك سلك طرقا مألوفة فى عصره فقتل أخاه (أدوينا) ، وكذلك قتل كبير الحاخامين حتى لا يقف فى وجهه إذا ما خالف تعاليم الدين ، ثم أطلق بعد ذلك سليمان لنفسه العنان فى تحقيق رغباته الشخصية وأراد ملكا لا ينبغى لأحد من بعده . وبينما كان داود محاربا نجد سليمان يبتعد عن الحرب ويسلك طريق المصاهرة) (ص ٣٨٧) .

(كما حاول أن يسير على طريقة فرق تسد وذلك بإيجاد مشاكل تخص حدود أراضى هذه القبائل (الأسباط) فأشعل بينها نارا الحقد والثورة) .

= بالرسالة كان وحيا من الله الواحد القهار ، وليس من اختراع عقله البشرى . كما أن موسى رسول نبى ، وليس بزعيم ثورة .. كما عرفنا عند دراستنا لسيرة موسى عليه السلام .

(وختم مشروعاته بإقامة هيكل وغالبا أن موقعه كان الذى تحتله قبة الصخرة حاليا . لقد سخر سليمان حوالى ثلاثين ألفا من رعاياه بالتناوب فى منشآته العمرانية) (ص ٣٨٨) أثقل سليمان كاهل الشعب بالضرائب لتحقيق مشاريعه وللإنفاق على حاشيته وجيشه) .

(وفى الواقع فإن سليمان ملك تاجر ، من أجل ذلك ملئت خزائنه هو ورجاله فى بلاطه وظهرت طبقة من الحاشية وكبار الموظفين التجاريين التى كانت غارقة فى النعيم والملذات والليالى الحمراء والشعب من وراء تلك الشرذمة يتضور جوعا) .

(وكان من نتائج ذلك التذمر على سليمان ، خصوصا وأنه قد تهاون فى بعض الطقوس الدينية) (ص ٣٩٠) .

وتحدث الكاتب مرة أخرى عن شريعة موسى فزعم أنها مقتبسة من شريعة حمورابى ، ؟! .

وزعم الكاتب أن كتاب العهد القديم المحرف هو شريعة موسى ، التى تلقاها عن الإله يهوه :

(الشرائع الموسوية ، لما زحف سرجون الثانى على فلسطين فى الربع الأول من القرن الثامن قبل الميلاد انتقلت الحضارة البابلية وفى ركابها شريعة حمورابى وفرضت نفسها على المجتمع الإسرائيلى . إذن فقد اقتبس موسى شريعة عربية جنوبية . هذا وإن كانت شريعة موسى قد ارتبطت بالشريعة الحمورابية فقد كان ذلك مدنيا فقط) .

(وقد لوحظ فى الشريعة الحمورابية طابع الإنسانية العالمية ، بينما المجتمع الإسرائيلى لم ينهض برسالة عالمية) .

(وكتاب العهد أقدم وثيقة جمعت الشريعة الموسوية (وهو نسخة أخرى من شريعة حمورابى . وقد تسلم موسى وحمورابى الشريعة من سلطة عليا . فقد تلقاها حمورابى من الإله شماس ، وكذلك تلقاها موسى من الإله يهوه (ص ٢٩٩) .

وتناول الكاتب قضية التوحيد والدين ، فزعم أن التوحيد من اختراع العقل البشرى ، وأنه تطور من الوثنية والتعدد إلى التوحيد وزعم أن المصريين قد وصلوا إلى التوحيد من تلقاء أنفسهم قبل إبراهيم – عليه السلام – بزمن طويل .

كما زعم الكاتب أن عبادة قرص الشمس آتون هى توحيد حقيقى فقال :

(الواقع أن ديانة آتون لم تصبح مجرد نظرية مادية تتحدث عن القوة الكامنة فى قرص الشمس ، ولكنها توحيد حقيقى) (ص ٤٠٣) .

والاعتقاد بوجود إله أعلى دون أن يمنع وجود آلهة أخرى تعتبر مرحلة وسطى بين الاعتقاد بتعدد الآلهة وبين التوحيد (ص ٤٠٥) .

إبراهيم بين كتب الدين وأقوال المؤرخين : ومع أن التوحيد لم يكن مجهولا قبل أيام إبراهيم . فقد عبدالمصريون القدماء إلها واحدا ، كما قاموا بوزن أعمال الإنسان فى العالم الآخر الذى صوروه على صفحات جدران قبورهم وعلى البردى . وإنما كل ذلك لم يكن دعوة نبوة ورسالة من الله ، بل كان دعوة كهان أو ملوك تخفى وراءها أشياء كثيرة (ص ٤١٤) .

الجـــزء الخامـــس

حضارة مصر والشرق القديم تأليف د/ إبراهيم رزقانة ، د/ محمد أنور شكرى ، د/ عبدالمنعم أبوبكر ، د/ حسنى أحمد محمود ، د/ عبدالنعيم محمد حسنين ، القاهرة .

تحدث فصل من الكتاب عن حياة اليهود فزعم أن داود (عليه السلام) : (قد وضع أساس معبد الإله اليهودى فى عاصمته وبذلك أصبحت اليهودية دين الدولة الرسمى) (ص ٣٦١) .

وتحدث الكاتب عن القدس على أساس أنها عاصمة اليهود ، وأنها كانت مقر البلاط الملكى لسليمان الذى كان (يحيا فى بلاطه عيشة ملك شرقى مقبل على اللذات غارقا فيها) (ص ٣٦٣) .

وزعم الكاتب أن سليمان قد بنى هيكلا ليهوه فى مدينة القدس (ص ٣٦٢) كما زعم الكاتب أن أخبار سليمان هى أسطورة وخرافة ، فقال بالنص :

لهذا لا تعجب إذا كانت الأسطورة والخرافة قد تناقلت سيرة سليمان عبر الأجيال كملك جمع بين القوة والحكم والعظمة وسيطر على الجن وكان بلاطه وشهرته سببا فى أن جذب إليه ملكة عربية معاصرة هى بلقيس ملكة سبأ ، ص ٣٦٣ .

وذلك يعنى فى زعم الكاتب ، أن بلقيس لم تأت إلى سليمان لتعلن إسلامها لله رب العالمين وفى هذا تجاهل لقضية الدعوة وحقيقة العلاقة بين سليمان وبين ملكة سبأ التى كان محورها الإسلام .

واستمر الكاتب فى تجنيه على نبى الله سليمان فزعم أنه كان مترفا ، وكان يوالى أعداء الله من الكافرين لضمان استمرار ملكه ، وأنه كان يسخر شعبه ويفرض عليهم الضرائب الباهظة .. إلى غير ذلك من الافتراءات التى تقرأها نصا فى الكتاب : « رغم هذه الصورة البهيجة ورغم هذا الترف وهذا البذخ إلا أن آخر العهد بسليمان شهد اضمحلال هذا الملك الشامخ الذى وضع أساسه شاؤل وأتمه داود فقد أغرق سليمان فى سياسة المسالمة وتهافت على الحياة المترفة الناعمة فلم ينتبه للأفكار التى كانت تزعزع أركان ملكه .. وأصبحت مصر تهدد ملك سليمان إذ أخذ الفرعون ينشر نفوذه فيها واستولى على قلعة جزر الكنعانية وبات يهدد دولة سليمان الذى لم يجد مفرا من أن يصاهر ملك مصر ليفوز برضاه وليأمن على نفسه وعلى ملكه . وقد سخط العبرانيون على ملكهم بسبب تسخيره العمال فى مشروعاته البنائية . هذا إلى أن الإنفاق على الهيكل والقصر يتطلب فرض ضرائب باهظة أثقلت على الناس وأدت آخر الأمر إلى انقسام الملك) (ص ٣٦٣) .

إن سليمان كانت حاجته إلى المال أكثر ورغبته فى جمعه أشد ، لذلك كان أول من فرض الضرائب من ملوك العبرانيين ، وفرض على كل قسم من أقسام البلاد الاثنى عشر أن يتكفل بنفقات البلاط شهرا . وقد فرضت ضريبة على المراعى وضريبة أخرى لسد نفقات الملك . (ص ٣٦٦) .



الجــزء الســادس

الموسوعة العربية الميسرة التى أشرف على تحريرها محمد شفيق غربال واشترك فى تحريرها من أساتذة التاريخ : د/ إبراهيم نصحى ، د/ أحمد فخرى ، د/ أحمد بدوى ، د/ أنيس صايغ ، وتوفيق إسكندر ، د/ زينب عصمت راشد ، د/ عبدالرحمن زكى ، د/ عبدالمنعم أبوبكر ، د/ قسطنطين زريق ، د/ محمد يوسف زايد ، د/ وديع ، القاهرة .

تسير على نفس الخط الذى رسمناه آنفا فمثلا فى ص ١٠٠١ تورد معلومات عن سليمان عليه السلام فتقول : (ابن داود ، نبى ، وملك اليهود ، وفى عهده بنى الهيكل المقدس) .

وفى ص ١٩٨١ - ١٩٨٢ ، تورد معلومات عن نبى الله عيسى عليه السلام معتمدة على التوراة والإنجيل ، وفيها مخالفات عقدية لدين الإسلام .

الجــزء الســابع

سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين ، تأليف د. حسن صبرى الخولى ، المجلد الأول ، دار المعارف بمصر ١٩٧٣ .

يعالج الكاتب تاريخ اليهود ارتباطا بتاريخ داود وسليمان عليهما السلام على أساس أنهما نبيين يهوديين يقول الكاتب نصا : (وقد وردت لفظة يهودية لأول مرة فى التوراة ، عندما تعرض هذا السفر الدينى للملك داود ، الذى أسس مملكة إسرائيل واستوى على عرشها ،) ص ٥ .

(ويلاحظ أن الملك سليمان الذى تربع على العرش بعد وفاة والده داود من ٩٦٠ إلى ٩٣٥ ق . م أقام فى القدس الهيكل المعروف باسمه وسرعان ما غدا هذا الهيكل أكبر مركز روحى لليهود) . ص ٦ .

(ومما هو جدير بالذكر أن اليهود كانوا ولا يزالون ينظرون بتقدير بالغ إلى مملكة داود ويعتبرون حكم داود وسليمان العصر الذهبى لتاريخ اليهود) ص ٦ - ٧ .



الفصل الثانى

التصحيح

تمهيد : إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء :

تعرفنا فى رسالتنا السابقة على نبى مسلم من أولى العزم هو إبراهيم عليه السلام ، منذ نشأته الأولى على أرض الرافدين ، وقد تفتحت عيناه على مجتمع مشرك بالله عز وجل .

وقد لاحظنا كيف حاول ذلك النبى الكريم وهو شاب مسلم قد أتاه الله رشده ، أن يستنقذ أباه وقومه من الجاهلية التى كانوا يعيشون بها بعد أن عرض لهم بالدليل والبرهان على أنه لهذا الكون الذى يعيشون فيه ، خالق عليم خبير حكيم مدبر ، وأن الطواغيت ومنها الأصنام التى يعبدونها لا تنفع ولا تضر ﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾[1] .

وشاهدنا إبراهيم عليه السلام ، يتعرض للابتلاء فيصبر ، ويحتسب ، ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾[2] .

وعشنا لحظات مباركة ونحن نرى يد الله سبحانه وتعالى تنقل خطى إبراهيم عليه السلام ومن معه من المسلمين المؤمنين إلى أرض المسجد الأقصى ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾[3] .

---

(١) الأنبياء : ٦٦ – ٦٧ .   (٢) الأنبياء : ٦٨ – ٧٠ .

(٣) هى أرض الشام سورية وفلسطين ، الأنبياء : ٧١ .

وعلى الأرض المباركة ، عاش إبراهيم ولوط النبيان المسلمان ومن معهما فترة من الزمان ، وبذلك أبدلهم الله أرضا خيرا من أرضهم التى ولدوا ونشأوا عليها ، وعشيرة وقوما خيرا من عشيرتهم وقومهم .

ومكث إبراهيم عليه السلام ما شاء له أن يمكث فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وبقدر الله عز وجل ، سافر وزوجته سارة إلى مصر ، حيث تعرضا لابتلاء آخر نجاهما الله منه ، وأُخْدِمَتْ سارة هاجر ، ثم عاد إبراهيم وسارة وهاجر عليهم السلام إلى الأرض المباركة ، ليتزوج من هاجر وينجب إسماعيل عليه السلام فيصحبهما إلى جوار بيت الله العتيق ويتركهما هناك بناء على أمر الله رب العالمين ، وتبقى سارة إلى جوار إبراهيم عليه السلام بجوار المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله .

وفى هذه الفترة وقع أمران عظيمان كان لهما ما وراءهما .

الأمـــر الأول :

رسالة لوط عليه السلام .

والأمـر الثانى :

بشارة إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة بميلاد إسحاق ويعقوب عليهما السلام .



الجـــزء الأول

الأمـــر الأول

رســالة لـوط عليه السلام
فى أرض الشام

فى هذه الرسالة يبدو معلم بارز وهو أن موضوعها الدعوة إلى الإسلام ، ويحمل لواءها نبى مسلم .

وقد عرفنا أن لوطا قد عاش فترة على أرض الرافدين وشاهد الصراع الذى كان يجرى على الساحة بين حزب الله ممثلا فى شخص إبراهيم عليه السلام ، وبين حزب الشيطان ممثلا فى مجتمع الرافدين بأسره .

وشاهدنا كيف وقف إبراهيم النبى المسلم ، وكان حينذاك فتى يافعا ، فى وجه المجتمع بأسره يسفه أحلامه ، وينتقص من آلهته ويبين له أنها لا تملك له نفعا ولا ضرا ، ويطلب منه الدخول فى دين الله وهو الإسلام .

ولا شك أن لوطا قد تأثر بموقف إبراهيم عليه السلام وقد تعرض للابتلاء ، فاحتمل وصبر واحتسب ، يبدو ذلك واضحا والله أعلم من إعلان لوط إسلامه لله رب العالمين .

وجاءت اللحظة التى نجىَّ الله فيها ، لوطا مع إبراهيم عليه السلام إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين .

إذن لوط عليه السلام قد هاجر إلى الله مع إبراهيم عليه السلام من أرض الرافدين إلى أرض الشام (بيت المقدس) ثم نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه ، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر (وهى مشهورة

ببلاد الغور ومتاخمة لجبال بيت المقدس) وكان أمَّ تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها . ومكانها الآن البحر الميت[1] .

أحوال المجتمع الذى نزل فيه لـوط عليه السلام :

كان أهل المجتمع مشركين بالله عز وجل ، فهم من أفجر الناس ، وأكفرهم وأسوأهم طوية وأرداهم سريرة وسيرة يقطعون الطريق والسبيل ويأتون فى ناديهم المنكر ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم ، وهى إتيان الذكران من العالمين وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين .

ماذا فعل لـوط عليه السلام ؟

دعا لوط قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والاستسلام له بالكلية ، ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات والفواحش المنكرات ، والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم ، ﴿ ولوطا إذ قال لقومه[2] أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها أحد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾[3] .

وهكذا كان موقف المجتمع الجاهلى من صاحب الدعوة والمؤمنين بها ﴿ أخرجوهم من قريتكم ..﴾ ما هى الجريمة فى عرفهم ؟ ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ . وهكذا غدت الطهارة جريمة فى عرف المجتمع الجاهلى ، ولا يمكن أن يسمح للشرفاء والأطهار أن يعيشوا بينهم وعلى أرضهم ، لأن ذلك يذكرهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٤٤ .

(٢) الأعراف : ٨٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٣) الأعراف : ٨٢ ، وفى سورة الشعراء هدد الفسقة لوطا بإخراجه فعلا ﴿ قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين ﴾ [آية ١٦٧] تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٤٤ .

بجريمتهم وفعلتهم القبيحة ، ولأن ذلك يحرمهم من الجو الملائم لارتكاب رذيلتهم ، فمع وجود الدعاة إلى دين الله ، ومع وجود الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، مع وجود الآخذين على يد المنحرفين ، وإقامة الحدود عليهم يتقلص حجم الجريمة ويقل عدد الساقطين ، ويقبل الناس على دين الله أفواجا .

فالسبب الذى من أجله تنادى الفسقة المجرمون ، لإخراج لوط وقومه من بين ظهرانيهم ، هو استمرار لوط فى دعوته ، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وكما قلنا ، كان ذلك ينغص عليهم حياتهم اليومية ، ويذكرهم بجريمتهم البشعة ، وهم لا يريدون من أحد أن يردهم إلى صوابهم . ولذلك هددوا لوطا بالإخراج إذ لم يكف عن دعوته وأمره ونهيه ﴿ لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ﴾[1] .

ما هو الموقف الذى اتخذه لوط عليه السلام فى مواجهة هذا التهديد ؟؟

لم يكن أمامه بعد أداء واجب البلاغ كاملا إلا أن يعلن إنكاره لهذه الأفعال التى يأتيها القوم ، ﴿ قال إنِّى لعملكم من القالين ﴾[2] أى من المبغضين أشد البغض .

ويطلب النصرة من الله عز وجل ، وأن ينجيه من أعمالهم ، بأن يحفظ عرضه ، وإذا نزلت عقوبة أو بلاء فلا يشمله ومن معه . لأنه ما شاعت الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . فلوط كان يخشى ذلك البلاء ، والفتنة حينما تنزل بقوم تمتد لتشمل غير الظالمين ، ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾[3] .

واستجاب الله لدعوة نبيه بعد أن أقام الحجة على القوم ، حتى لا يكون لهم حجة على الله بعد بيان الرسول الكريم ، وإرسال الله الرسل .

---

(١) الشعراء : ١٦٧ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(٢) الشعراء : ١٦٨ .

(٣) الأنفال ٢٥ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٢٩٧ – ٣٠٠ .

فإذا نحن حيال مشهد حافل بالحركة والانفعال مع لوط ، وقوم لوط فى مدن الأردن ، عمورية وسدوم ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا[1] وقال هذا يوم عصيب ﴾ .

لقد كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين إذ يتركون النساء إلى الرجال . مخالفين الفطرة التى تهتدى إلى حكمة خلق الأحياء جميعا أزواجا ، كى تمتد الحياة بالنسل ما شاء الله لها . والتى تجد اللذة الحقة فى تلبية نداء الحكمة الأزلية ، لا عن تفكير وتدبير ، ولكن عن اهتداء .

سىء لوط بأضيافه ، وهو يعلم ما ينتظرهم من قومه ، ويدرك الفضيحة التى ستناله من أضيافه : ﴿ قال هذا يوم عصيب ﴾ . وبدأ اليوم العصيب . ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾[2] .

وكان هذا ما ساء الرجل بضيوفه ، وما ضيق بهم ذرعه ، وما دعاه إلى توقع يوم عصيب ؟ ... ورأى لوط ما يشبه الحمى فى أجساد قومه المندفعين إلى داره يهددونه فى ضيفه وكرامته ، فحاول أن يوقظ فيهم الفطرة السليمة ، ويوجههم إلى الجنس الآخر الذى خلقه الله للرجال ، وعنده منه فى بيته بناته فهن حاضرات اللحظة إذا شاء الرجال المحمومون تم الزواج على الفور ، وسكنت الفورة المحمومة ، والشهوة المجنونة ..

﴿ قال : يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ؟ ﴾[2] .

فالقضية قضية رشد وسفه إلى جوار أنها قضية فطرة ودين ومروءة ، ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة ، ولا القلوب الميّتة الآسة ،

---

(١) هود : ٧٧ ، العنكبوت : ٣٣ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٤١٢ ، جـ٢ ، ص ٤٥٣ .

(٢) هود : ٧٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٤٥٣ ؛ فى ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ١٩١٣ ، ١٩١٤

ولا العقول المريضة المأفونة ، ﴿ قالوا : لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ﴾[1] .

وأسقط فى يد لوط ، وأحس ضعفه وهو غريب بين القوم ، نازح إليهم ، من بعيد ، لا عشيرة له تحميه ، وليس له من قوة فى هذا اليوم العصيب وانفرجت شفتاه عن كلمة حزينة أليمة . ﴿ قال : لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾[2] . قالها وهو موجه كلامه إلى هؤلاء الفتية - الذين جاء الملائكة فى صورتهم وهم صغار صباح الوجوه ، ولكنهم فى نظره - ليسوا أهل بأس وقوة ، فالتفت إليهم يتمنى أن لو كانوا أهل قوة فيجد بهم قوة أو لو كان له ركن شديد يحتمى به من ذلك التهديد .

وغاب عن لوط فى كربته وشدته أنه يأوى إلى ركن شديد . ركن الله الذى لايتخلى عن أوليائه . كما قال رسول الله ﷺ وهو يتلو هذه الآية .. « رحمة الله على لوطٍ لقد كان يأوى إلى ركن شديد »[3] .

وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها ، وبلغ الكرب أشده كشف الرسل للوط عن الركن الشديد الذى يأوى اليه : ﴿ قالوا : يا لوط : إنَّا رُسلُ ربك ، لن يصلوا إليك ﴾ .. وأنبأوه نبأهم ، لينجو مع أهل بيته الطاهرين ، إلا امرأته فإنها كانت من القوم الفاسدين . ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟ ﴾[4] .

والمشهد الأخير ، مشهد الدمار المروع ، اللائق بقوم لوط :

﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾[5] . فهى قريبة وتحت

---

(١) هود : ٧٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ٤٥٣ .
(٢) البداية والنهاية ، جـ١ ، ص ١٨٠ ، فى ظلال القرآن ، جـ ٤ ، ص ١٩١٤ .
(٣) هود : ٨٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .
(٤) هود : ٨١ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .
(٥) هود : ٨٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

الطلب ، وعند الحاجة تطلق فتصيب .

والبشرية تعرف حالات مرضية فردية شاذة ، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة ، وهى تشير إلى أن المرض النفسى يعدى كالمرض الجسدى . وأنه يمكن أن يروج مرض نفسى كهذا نتيجة لاختلال المقاييس فى بيئة من البيئات وانتشار المثل السيىء ، عن طريق إيحاء البيئة المريضة ، على الرغم من مصادمته للفطرة . التى يحكمها الناموس الذى يحكم الحياة . الناموس الذى يقضى أن تجد لذتها فيما يلبى حاجة الحياة لا فيما يصادمها ويعدمها .. والشذوذ الجنسى يصادم الحياة ويعدمها لأنه يذهب ببذور الحياة فى تربة خبيثة لم تعد لاستقبالها وإحيائها بدلا من الذهاب إلى التربة المستعدة لتلقيها وإنمائها ومن أجل هذا تنفر الفطرة السليمة نفورا فطريا - لا أخلاقيا فحسب - من عمل قوم لوط لأن هذه الفطرة محكومة بقانون الله فى الحياة . الذى يجعل اللذة الطبيعية السليمة فيما يساعد على إنماء الحياة لا فيما يصدمها ويعطلها .

وقد وردت أخبار قوم لوط فى مواضع أخرى عديدة من القرآن الكريم :

سورة الأعراف ، وهود ، والحجر ، والشعراء والنمل ، والعنكبوت ، والصافات ، والذاريات ، والانشقاق .

ما هو الدين الذى دعا إليه لوط عليه السلام ؟

الدين الذى دعا إليه لوط هو الإسلام[1] .

بدليل قوله تعالى :

﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين . فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾[2] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ١ ، ص ١٧٦ - ١٨٣ .

(٢) الذاريات ، ٣١ - ٣٦ . ، تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٢٣٦ .

هل يمكن تحديد الموقع الذى نزل فيه العذاب على قوم لوط عليه السلام ؟

يقول ابن كثير قرية قوم لوط وهى « سدوم » التى أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التى من سجيل ، كما قال تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾[1] وقال ، ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾[3] ، وقال : ﴿ وإنهما لبإمام مبين ﴾[4] ، ولهذا قال ﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾[5] أى فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم للرسول وبمخالفتهم أوامر الله ﴿ بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾[6] . يعنى المارين بهما من الكفار لا يعتبرون ، لأنهم ﴿ لا يرجون نشورا ﴾ أى معادا يوم القيامة .

وكان جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة[7] (البحر الميت) ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ولهذا قال تعالى ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة ﴾ ، أى واضحة ، وهى آثار القوم أو مخلفاتهم ﴿ لقوم يعقلون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾[8] .

ما هو مصير امرأة لوط عليه السلام ؟

﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين

---

(١) الشعراء : ١٧٣ . (٢) الصافات : ١٣٧ . (٣) الحجر : ٧٦ .

(٤) الحجر : ٧٩ . (٥) الفرقان : ٤٠ .

(٦) العنكبوت : ٣٥ .

(٧) أى لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأرض المتاخمة لفنائها ، رداءتها ونتانتها ، فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه .

(٨) الصافات : ١٣٧ ، مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ، ص ٣٦ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٢٠ .

من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾[1] .

والخيانة هنا أن خانتهما فى الدين فلم يتبعاهما فيه . « وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة – حاشا وكلا لما – فإن الله لا يقدر على نبى أن تبغى امرأته كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف ما بغت امرأة نبى قط . ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيرا »[1] .

وهكذا انقطعت الوشيجة ، وشيجة النسب التى كانت تربط امرأة لوط بزوجها لوط عليه السلام ، لأنها كفرت بالله وهو نبى مسلم ، وذلك يؤكد أن الوشيجة التى يلتقى عليها المسلمون دواما هى وشيجة العقيدة ؛

ما هو حكم اللائط فى الإسلام ؟

– ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء كان محصنا أو لا ، نص عليه الشافعى وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة ، واحتجوا أيضا بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبى عمرو عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول فيه » . وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى : ﴿ وما هى من الظالمين ببعيد ﴾[2] .

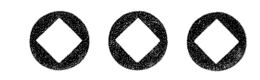
شيوع الفاحشة نذير بتدمير المجتمع :

أورد الإمام القرطبى رواية عن النبى ﷺ : « سيكون فى آخر أمتى قوم يكتفى رجالهم بالرجال ونساؤهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط

---

(١) التحريم : ١٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ١ ، ص ١٨٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٣٩٣ .
(٢) هود : القرطبى ، جـ ٩ ، ص ٨١ ؛ تفسير القرآن العظيم . جـ ٢ ، ص ٤٥٥ .

أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ »[1] .



(1) وفى رواية عنه عليه السلام : « لا تذهب الليالى والأيام حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف من هذه الأمة حجارة من ربك » تفسير القرطبى ، جـ ٩ ، ص ٨٣ ، ٨٤ .



الجـزء الثـانى

الأمـر الثـانى

إبراهيم عليه السلام يتلقى البشرى بميلاد إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب عليهما السلام

وفى سير هؤلاء الأنبياء يبدو معلم بارز :

إبراهيم عليه السلام نبى مسلم .

إسحاق عليه السلام نبى مسلم .

يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام نبى مسلم .

﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى[1] ، قالوا : سلاما ، قال : سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ : أى سمين مشوى على حجارة الرضف المحماة ، ولكن الملائكة لا يأكلون طعام أهل الأرض .

﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه ، نكرهم وأوجس منهم خيفة ﴾[2] فالذى لا يأكل الطعام يريب ، ويشعر بأنه يريد خيانة أو غدرا بحسب تقاليد أهل البدو وأهل الريف عندما يتحرجون من خيانة الطعام ، أى خيانة من أكلوا معه طعاما فإذا امتنعوا عن طعام أحد فمعنى هذا أنهم ينوون به شرا ، أو أنهم لا يثقون فى نياته لهم ... وعند هذا كشفوا له عن حقيقتهم ، ﴿ قالوا : لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾[2] - وإبراهيم يدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط - ولكن حدث فى هذه اللحظة ما غير مجرى الحديث : ﴿ وامرأته قائمة

---

(١) هود : ٦٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٤٥١ .

(٢) هود : ٧٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٤٥٢ .

* « أطفال المؤمنين فى جبل الجنة ، يكفلهم إبراهيم وسارة حتى يردهم إلى ابائهم يوم القيامة » حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده والحاكم فى المستدرك والبيهقى ، حديث رقم ١٠٣٤ صحيح الجامع الصغير .

فضحكت ﴾[1] وربما كان ضحكها ابتهاجا بهلاك القوم الملوثين .

﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ .

وكانت عقيما لم تلد وقد أصبحت عجوزا ففاجأتها البشرى بإسحاق ، وهى بشرى مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده وهو يعقوب[2] .

﴿ قالت : يا ويلتا : أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب . قالوا : أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ . ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط ، إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ . فجاءه الرد بأن أمر الله فيهم قد قضى وأنه لم يعد للجدال مجال . ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾[3] .

وقد وردت أخبار البشارة فى موضع آخر من القرآن الكريم ، نلتقط منها ما ورد فى **سورة الحجر**[4] :

﴿ ونبِّئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما . قال إنَّا منكم وجلون ، قالوا لا توجل إنَّا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين . قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾

---

(١) هود : ٧١ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٤٥٢ .

(٢) ويعقوب هو إسرائيل ، إذن يمكن القول بأن أنبياء بني إسرائيل هم حفدة إبراهيم عليه السلام . ولكن ، إلى أى دين دعا إبراهيم ويعقوب وأبناؤه عليهم صلوات الله وسلامه عليهم ؟ لقد دعوا إلى الإسلام بنص القرآن : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنّه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾
[البقرة : ١٣٠-١٣٣]

(٣) هود : ٧٢ – ٧٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٤٥١ – ٤٥٢ .

(٤) ٥١ – ٥٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٥٥٣ – ٥٥٤ .

وسورة الذاريات[1] :

﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم ، قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف ، وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ، قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾

ونخلص من هذا العرض الإلهى لهذا الجانب من أخبار هؤلاء الأنبياء بعديد من الأخبار والتوجيهات :

أولا – إن إسحاق كان غلاما عليما .

ثانيا – إن إبراهيم كان شيخا وامرأته سارة كانت « عجوزا » حينما تلقيا البشارة بميلاد إسحاق . ولذلك كانا مستغربين لهذه البشارة ، ولعل ذلك مرجعه إلى أن المعتاد فى أحوال البشر أن امرأة فى سن سارة لا تلد ، لأنها تكون قد بلغت سن اليأس ، أو يائسة من المحيض ، ومن هنا كان اعتراض سارة ﴿ أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ﴾[2] .

ولكن الله سبحانه وتعالى هو الخالق وهو الذى ينشىء الأسباب وينشىء النتائج وليس بالضرورة أن تسبق النتائجَ أسبابٌ معينة ، وليس بالضرورة أن تأتى النتائج بعد أسبابٍ معينةٍ ، فلله الأمر من قبل ومن بعد .

ومن هنا كان الرد ، رد الملائكة ﴿ كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم ﴾[3] .

ثالثا – إن هذه البشارة قد جاءت إلى إبراهيم وسارة فى وقت كانا قد أسقطا من اعتبارهما إنجاب أى ولد ، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام للملائكة ﴿ أبشرتمونى

---

(١) ٢٤ – ٣٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٢٣٥ – ٢٣٦ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : جـ ٢ ، ص ٤٥٢ .

(٣) الذاريات : ٣٠ .

على أن مسنى الكبر فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾[1] .

وهنا نتوقف قليلا لنعود بذاكرتنا إلى ما ذكرنا فى رسالتنا السابقة من دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿ رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنَّك سميع الدعاء ﴾[2] .

وصعد الدعاء إلى رب العباد ، وكانت الإجابة ، متى ؟ فى وقت حدده هو سبحانه وتعالى ، إنَّه لا يرد دعاء عباده الصالحين ، ولكن لله شأن فى إجابة الدعاء ، فدعاء يستجاب على الفور ، ودعاء يرفع البلاء ، يكون البلاء نازلا فيصادفه الدعاء صاعدا ، فيعتلجان إلى يوم القيامة ودعاء يستجاب فى حينه حسب تقدير[3] الرحمن ، طال الزمن أم قصر .

ولذلك فإن دعوة إبراهيم عليه السلام ، ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[4] .

استجيبت وأرسل محمد ﷺ . ولكن بعد (٢٥٠٠) عام من دعوة إبراهيم عليه السلام تقريبا .

ولذلك يجب على الإنسان أن يدعو الله وهو موقن بالإجابة .

رابعا – إن الإنسان المسلم المؤمن لا يجب أن يقنط من رحمة الله عز وجل ، أبدا ، لأنه لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون ﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ .

---

(١) الحجر : ٥٤ – ٥٥ (٢) آل عمران : ٣٨ .

(٣) لحديث محمد ﷺ : « ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا آتاه الله إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

(٤) الحجر : ٥٦ .

الفصل الثالث

الجزء الأول

إسحاق عليه السلام

يعرف إسحاق بالصلاح ، واختصه الله بالبركة ، ومن عليه بالذرية التى منها الصالح والطالح . وامتدحه الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾[(١)] .

ووصفه رسول الله ﷺ بالكريم ، فى الحديث الذى رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ « الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم »[(٢)] عليهم السلام .

كما أن الله سبحانه وتعالى وصفه ، بأنه قدوة يقتدى به فى الأعمال الصالحة ، ويقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، وكان عبدالله . وهذا هو معين التوحيد الصافى ، أن يكون الإنسان عبدا لله .

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾[(٣)]

وإذا ما تتبعنا أخبار هذا النبى الكريم فى القرآن الكريم يبرز معلم هام جدا

---

(١) الصافات : ١١٢ – ١١٣ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ١٤ وما بعدها

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٤٦٨ . أخرجه البخارى .

(٣) الأنبياء : ٧٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ١٨٤ – ١٨٥ .

وهو أن – إسحاق نبى مسلم ، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، ﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنَّما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ، قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، وما الله بغافل عما تعملون ﴾[٤] .



(١) البقرة : ١٣٥ – ١٤٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ١ ، ص ١٨٦ – ١٨٧ .

يعقــوب عليه الســلام

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . وهو **المسمى إسرائيل** . وقد بشر الله به جده إبراهيم الخليل حينما جاءه رسل الله ليخبروه خبر قوم لوط .

﴿ إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد ﴾(١) .

ولكن على أى دين كان يعقوب (إسرائيل) عليه السلام ؟

لقد كان يعقوب (إسرائيل) على دين أبيه إسحاق وجده إبراهيم عليهما السلام ، وهو الإسلام . أى أنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا . ﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾(٢) .

ولعل هذا من فضل الله عز وجل ، أن تحفظ لنا أخبار هؤلاء الأنبياء عليهم السلام . لقد سبق فى علمه سبحانه وتعالى أن اليهود سيزيفون تاريخ الرسل

---

(١) هود : ٧٠ - ٧٣ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٤٥١ - ٤٥٢ .

(٢) البقرة : ١٣٥ .

والأنبياء ويشوهونه ، بل ويجهِّلون به ، تحقيقا لأهدافهم الخبيثة ، فأنزل الله سبحانه وتعالى من علمه المكنون وحيا على قلب رسوله محمد ﷺ بيانا شافيا كافيا فيما يتصل بحقيقة الأمر وهو :

إن إبراهيم نبى مسلم ، وإسحاق نبى مسلم ، ويعقوب نبى مسلم ، وأبناء يعقوب والأسباط أنبياء مسلمون ، وداود نبى مسلم ...

ويتجلى ذلك واضحا أيضا فى قول الله سبحانه وتعالى ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة ﴾[١] .

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى[٢] قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾[٣] .

فإبراهيم عليه السلام يدعو الله هو وإسماعيل أن يكونا مسلمين ، ومن ذريتهما أمة مسلمة .

والله سبحانه وتعالى يطلب من إبراهيم أن يكون مسلما فيعلن إبراهيم إسلامه .

ووصى بها ، إبراهيم ويعقوب ، أبناءهم ، أن يكونوا مسلمين يعيشون على الإسلام ويموتون عليه .

---

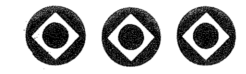
(١) البقرة : ١٢٨ .

(٢) يقول الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى الخطاب لليهود والنصارى الذين يَنسِبُون إلى إبراهيم ما لم يوص به بنيه ، وأنهم على اليهودية والنصرانية ، فرد الله عليهم قولهم وكذبهم وقال لهم على جهة التوبيخ ، أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدعون عن علم ، أى لم تشهدوا بل أنتم مفترون ، الجامع لأحكام القرآن ، جـ٢ ، ص : ١٣٧ .

(٣) البقرة : ١٣٠ - ١٣٤ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ١ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

وحينما حضرت يعقوب الوفاة ، ذكر أبناءه بوصيته وأخذ عليهم العهد أن يكونوا مسلمين ، وأن يموتوا على الإسلام .

فلله الحمد والمنة ، فلولاه سبحانه وتعالى لما أمكن البشرية أن تعرف تلك الأنباء التى وقعت منذ أربعة آلاف عام أو يزيد[1] ، وما كان لنا أن نتعرف على حقيقة الدين الذى كان يدين بها هؤلاء الأنبياء عليهم السلام وما يترتب على ذلك من أحكام شرعية فى تعامل المسلم مع غيره من الناس .



---

(١) ولذلك فان المشتغلين بالتاريخ ، قد أخطأوا فى كتابة تاريخ هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ، حينما كتبوه بمعزل عن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كما لاحظنا فى مقدمة هذا الكتاب .

ولــد يعقوب عليه الســلام
(أو) بنو إسرائيل عليه السلام

« وهم اثنا عشر ولدا ، ويطلق عليهم الأسباط ، ولد لكل واحد منهم أمة من الناس ، وأحدهم سبط ، والسبط فى بنى يعقوب (إسرائيل) بمنزلة القبيلة فى ولد إسماعيل عليه السلام ، سمّوا الأسباط من السبط وهو التتابع ، فهم جماعة متتابعون[1] .

ومن هؤلاء الأبناء يوسف عليه السلام . **ولكن بأى دين كان يدين أبناء يعقوب (إسرائيل) عليه السلام ؟** .

من الواضح أن يعقوب عليه السلام قد أخذ عليهم العهد بأن يكونوا مسلمين ، والقرآن الكريم كما بينا قد أخبر عن الأسباط أنهم كانوا مسلمين وليسوا يهودا أو نصارى .

وسوف نتناول الآن أخبار أبناء يعقوب بداية بـ يوسف عليه السلام .

ســيرة يوســف عليه الســلام

هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وهو نبى كريم ابن نبى كريم ابن نبى كريم ابن نبى كريم كما أخبر بذلك محمد ﷺ[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن ، جـ٢ ، ص ١٤١ ؛ والعدد مأخوذ من سورة يوسف : ﴿ يا أبت إنّى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ .

(٢) « أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » رواه صحيح الجامع الصغير وزيادته ، حديث رقم ١٢٢٨ .

ويبرز فى حياة هذا النبى الكريم معالم بارزة **وهو أنه كان يدين بالإسلام** ، وإليه كان يدعو على أرض مصر[1] منذ أقدم الدهور ، وعليه - كان يدعو الله أن يتوفاه .

ويمكن للدارس أن يتبين مراحل **رئيسية فى حياة هذا النبى الكريم وتشمل :**

- **مولد يوسف ونشأته على الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .**
- **وصوله إلى المجتمع المصرى المتمدين وحياته هناك .**
- **موضوع رسالته التى أعده الله لها .**
- **موقف المجتمع المصرى من دعوة يوسف عليه السلام إلى الإسلام .**
- **موقف يوسف من الأوضاع السائدة فى المجتمع المصرى حينذاك .**
- **التمكين ليوسف على خزائن الدولة المصرية .**
- **وصول يعقوب (إسرائيل) وأبنائه إلى أرض مصر .**

ومصادر معلوماتنا عن هذه المراحل الرئيسية من حياة هذا النبى الكريم تعتمد على القرآن الكريم والحديث الشريف .

أ) القـــرآن الكـــريم :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أآلر تلك آيات الكتاب المبين . إنَّا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين . إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنِّى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين ، وكذلك

---

(١) وذلك عنى أن أرض مصر قد عاش على أرضها شعب مسلم يؤمن بالله ربا وبالإسلام دينا قبل ميلاد عيسى عليه السلام بأربعة عشر قرنا من الزمان على الأقل ، وأن الكفر والوثنية والعقائد الأخرى دخيلة عليها .

يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمَّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم . لقد كان فى يوسف وإخوته[1] آيات للسائلين إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينَا منّا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين . قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنَّا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنَّا له لحافظون . قال إنِّى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنَّا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا إنَّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وماأنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون[1] . وجاءت سيارة [3] فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام . وأسَرُّوه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة [4] وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلِّمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولمَّا بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين . وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلَّقت

---

(١) قال البخارى : الأسباط قبائل بنى إسرائيل (تفسير القرآن العظيم) ، جـ١ ، ص ١٨٧ .

(٢) إن الله لم يجعل للمجرم أحكاما فى تدبيره ، والكذب عمره قصير ، فقد أدرك يعقوب أنهم أرتكبوا أمرا ، وأنهم يكذبون عليه .

(٣) قوم كانوا يسيرون من مدين إلى مصر على طريق القوافل الذى يربط مصر ببلاد الشام وهكذا تداركت رحمة الله هذا الغلام الكريم يوسف عليه السلام .

(٤) وذلك يعنى أن تجارة الرقيق كان لها سوقا فى ذلك الوقت . وظاهر الأمر أن يوسف قد صار عبدا ولكن الله سبحانه وتعالى يؤكد أن ذلك كان بداية التمكين فى الأرض لذلك النبى الكريم .

الأبوابِ وقالت هيت لك قال معاذ الله إنَّه ربى أحسن مثواى إنَّه لا يفلح الظالمون . ولقد همَّت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربِّه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنَّه من عبادنا المخلصين ، واستبقا الباب وقدَّت قميصَه من دُبرٍ وألفَيَا سيِّدها لَدَى الباب قالت ما جزاءُ من أرادَ بأهلكَ سوءاً إلّا أن يسجن أوعذاب أليم . قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصُه قُدَّ من قبلٍ فصدقت وهو من الكاذبين . وإنْ كان قميصُه قُدَّ من دبرٍ فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصَهُ قُد من دبر قال إنَّهُ من كيدكن إنْ كيدَكُنَّ عظيم . يوسف أعرضْ عنْ هذا واستغفرى لذنبك إنَّك كنتِ من الخاطئين . وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراودُ فتاهَا عن نفسِهِ قد شَغفَهَا حُبًّا إنَّا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهنَّ متكئا وآتت كل واحدة منهُنَّ سِكِّيناً وقالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبَرنهُ وقطّعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرًا إن هَذَا إلاَّ ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودتُه عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجَنَنَّ وليكونًا من الصاغرين . قال ربِّ السجنُ أحبُ إلىَّ[1] مما يدعوننى إليه وإلّا تصرف عنِّى كيدهُنْ أصبُ إليْهِنَّ وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنَّه هو السميع العلَيم . ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين . ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنِّى أرانى أعَصِرُ خمْرًا وقال الآخر إنّى أرانى أحْمِلُ فوق رأسى خبزًا تأكلُ الطيرُ منه نَبِّئْنَا بتأويلِه ، إنَّا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلّا نَبَّأتكما بتأويله[2] قبل أنْ يأتيكما ، ذلِكُما مِمَّا علَّمَنِى ربِّى إنِّى تركت ملّة قومٍ لا يُؤمنوَن بالله وهمْ بالآخرةِ هُمْ كافِرونَ[3] . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله

---

(١) وهذا ابتلاء آخر ، مشقة وعناء ، ظلم وظلمات فى داخل السجن ، ولكن كل ذلك يهون فى سبيل الله ، وأفضل من الحياة السهلة اللينة مع غضب الله عز وجل .

(٢) وهذا دليل على أن يوسف عليه السلام قد علمه الله تفسير الرؤى ، والرؤية كما قال رسول الله ﷺ إما من الشيطان فليستعذ الإنسان من شرها ثم ليتفل على يساره فإنها لا تضره ، وآما من الله ، فليحمد الله عليها وليحدث بها الصالحين : « الرؤيا الصالحة من الله والحُلُم من الشيطان فمن رأى شيئا يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثا ، وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره » متفق عليه .

(٣) وذلك يعنى مفاصلته للكفر والكافرين .

من شيءٍ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثَر النَّاسِ لا يشكرون . يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحدُ القهار . ماتعبدون من دُونه إلّا أسماءً سمَّيتموها أنتُم وآباؤُكم ما أنْزَلَ الله بِهَا من سلطانْ إنِ الحُكْمُ إلا لله أمر ألاَّ تعبدُوا إلّا إياه ذلك الدينُ القيمُ ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبىّ السِجْن أمَّا أحدُكُماَ فيسقى ربَّه خَمْراً وأمَّا الآخر فيُصلَبُ فتَأكُلُ الطيرُ من رأسِهِ قُضِىَ الأمرُ الذى فيه تستفتيان . وقال للذى ظن أنَّه ناجٍ منهما أذكرنى عند ربك فأنْسَاهُ الشيطانُ ذكْر ربِّه فلبث فى السجن بضع سنين(١) . وقال الملك إنِّى أرىَ سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهُنَّ سبعٌ عجافٌ وسبعَ سنبلاتٍ خضرٍ وأخَرَ يَابسَاتٍ يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إنْ كُنتمُ للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاثُ أحلامٍ ومَا نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذى نجا منهُما وادّكر بعد أمةٍ أنا أنبِّئكُم بتأويله فأرسلون . يوسف أيُّها الصديق أفتنا فى سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهُنَّ سَبْعٌ عجاف وسبع سنبلاتٍ خضر وأخر يابساتٍ لعلى أرجعُ إلى الناسِ لعلّهم يعلمون . قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سُنْبُله إلّا قليلاً مما تأكلون ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلّا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . وقال الملك ائتُوني به ، فلما جاءَهُ الرسولُ قال ارجع إلى ربِّك فاسأله ما بالُ النسوة اللّاتي قَطّعْنَ أيْديَهُنْ ، إن ربِّى بكيدهِنّ عليم . قال ما خطبكنِ إذْ راودتن يوُسفْ عن نفسه ، قلن حَاشَ لله ما علمنا عليه من سوء، قالت امرأةُ العزيزِ الآنَ حصحص الحقُّ أنَا راودتُه عن نفسِهِ وإنَّه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى إنّ النفس لأمارة بالسوء إلّا ما رحم ربى إن ربِّى

---

(١) روى أن جبريل عليه السلام جاء إلى يوسف وهو فى السجن معاتبا فقال له : يا يوسف من خلصك من القتل من أيدى اخوتك ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن أخرجك من الجب . ، قال : الله تعالى ، قال : فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال : الله تعالى ، قال فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال الله تعالى ، قال فكيف تركت ربك فلم تسأله ووثقت بمخلوق ؟ قال يارب كلمة زلت منى . أسألك يا إله إبراهيم وإله الشيخ يعقوب عليه السلام أن ترحمنى فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين (القرطبى ١٩٦/٩) .

غفور رحيم ، وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض إنِّى حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاءُ نُصِيبُ برحمتِنَا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجرُ الآخرةَ خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون . وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولمَّا جَهَّزَهُم بجهازهم ، قال ائْتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنِّى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لمْ تأْتُونِى به فلا كيلَ لكُم عندِى ولا تقربُون . قالوا سنراود عنه أباه وإنَّا لفاعلون . وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون . فلما رَجَعُوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنع منَّا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنَّا له لحافظون . قال هل آمنُكُم عليه إلَّا كما أَمْنتُكُم على أخيه من قبل فالله خيرُ حافِظًا وهو أرحم الراحمين . ولما فَتحَوُا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّتْ إليهم قالوا يا أبانا مانبغى هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينَا ونَميرُ أهلنَا ونحفظُ أخَانَا ونزداد كيلَ بعيرِ ذلك كيلٌ يسير . قال لن أرسله معكم حتى تُؤتُونِى موثقًا من الله لتأْتُنَّنى بِهِ إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل . وقال يا بنى لا تدخلوا من بابٍ واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرقة[1] وما أغنى عنكم من الله من شىء إنْ الحكم إلا الله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دَخَلُوا مِنْ حيثُ أمرهُمْ أبوهُم ما كان يغنى عَنْهُم من الله من شىءٍ إلَّا حاجةً فى نفسِ يعقوبَ قضاهَا وإنّه لذُو علم لمَا عَلمناه ولَكِن أكثر الناس لا يعلمون . ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذَّن مُؤذِنٌ أيتُّها العيرُ إنَّكُم لسَارقونْ . قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تَفْقِدُونَ . قالوا نَفْقِدُ صُواعَ الملكِ ولِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْل بعيرٍ وأنا به زعيم . قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين . قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين .

قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم

---

(١) خاف عليهم من العين إن دخلوا مجتمعين إذ كانوا أهل جمال وهيبة ، والعين حق تدخل الرجل القبر ، والجمل القدر كما جاء فى الحديث (صفوة التفاسير ، ٥٩/٢) .

قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخَاه فى دين الملك إلّا أنْ يشاء الله نرفعُ درجاتٍ منَّ نشاء وفوق كُلّ ذِى علمٍ عليم . قالوا إن يسْرِقْ فقد سرقَ أخ له من قبل فأسرّها يُوسُفُ فى نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنْتم شَرٌ مكانا والله أعلم بما تصفون . قالوا يا أيها العزيز إنّ له أبا شيخًا كبيرًا فخذ أحَدنَا مكَانَهُ إنَّا نَرَاكَ من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخُذَ إلّا مَنْ وَجَدْنَا متَاعنَا عنده إنَّا إذاً لظالمون . فلمَّا استيئسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكُم قد أخذ عليكم مَوْثِقاً من الله ومِنْ قَبْلُ ما فرطّتُم فى يوسفَ فلن أبرح الأرضَ حتى يأذَنَ لِي أبِى أو يَحكمَ الله لى وهو خيرُ الحاكمين . ارجعوا إلى أبِيكُم فقولوا يا أبانَا إن ابْنَكَ سرق وما شَهِدْنَا إلّا بِمَا عَلِمْنَا وما كُنَّا للغَيبِ حافظِين . واسأل القرية التى كنَّا فيها والعير التى أقْبَلْنَا فِيهَا وإنَّا لصادقون . قال بل سولت لكم أنفسكُم أمراً فصبرٌ جَمِيلٌ ، عسى الله أن يَأْتِيَنى بِهِمْ جميعا إنّه هو العليم الحكيم . وتَولّى عنهم وقال يا أسَفا على يوسف وأبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تَفْتَؤُا تذكر يوسف حتى تكُونَ حَرَضًا أو تكون من الهالِكينْ . قال إنَّما أشْكُو بثِّى وحُزْني إلى الله وأعلمُ من الله ماَ لَا تعلمُون . يا بَنِّى اذهبُوا فَتَحَّسسُوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنّه لا ييأس من روح الله إلّا القومُ الكافرون . فلمَّا دخلوا عليه قالوا يا أيّها العزيزُ مَسَّنَا وأهَلنا الضرُّ وجئنَا ببضاعةٍ مُزْجاَةٍ فأوف لنا الكيل وتصدقَ علَيْنَا إنّ الله يجزى المتصدقين . قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذْ أنْتُم جاهلون . قالوا أئِنَّكَ لأنْتَ يوسف ، قال أنا يُوسف وهذا أخِى قدْمَنّ الله علينا إنّه من يَتقِ ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإنْ كُنَّا لخَاطِئين . قال لاَ تثريبَ عَلَيْكم اليوم يغفُر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبُوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتوّنى بأهلكم أجمعين . ولما فصلت العيرُ[١] قال أبوهم إنِّى لأجدُ ريح يوسف لولا أنْ تُفَنِّدُون . قالوا تالله إنَّك لفِى ضلالِكَ القديم . فلمَّا أنْ جَاء البشيرُ ألقاه على وَجْهِهِ فارتَدَّ بصيراً قال ألم أقل لكم إنِّى أعلم

---

(١) خرجت منطلقة من مصر إلى بلاد الشام .

من الله ما لا تعلمون[1] . قالوا يا أبانا استَغْفِرْ لنا ذنوبنا إنَّا كنا خاطئين . قال سوف أستَغْفِر لكم ربّى إنّه هو الغفُور الرحيم . فلما دخلوا على يوسف أوَى إليْه أبَويه وقال أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سُجَّدًا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جَعَلَها ربِّى حقًّا وقد أحسن بى إذ أخْرجَنِى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نَزَغَ الشيطان بينى وبين إخْوتِى إن ربِّى لطيفٌ لِمَا يشاءُ إنّه هو العليم الحكيم . رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة . توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إلَيكَ وما كنتَ لَدَيْهِم إذْ أجْمَعُوا أمْرَهُمَ وهم يَمْكُرون . وما أكثرُ الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

ب) مـــواقف وتوجيهـــات :

نزلت هذه السورة - التى تحمل أخبار يوسف عليه السلام - على محمد ﷺ فى تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم ﷺ حيث توالت الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين ، لتؤدى دورا وتحقق هدفا وهى دواما تؤدى دورا وتحقق أهدافا فى حياة المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى ، فالرسول ﷺ فى ذلك الوقت كان يعانى والمؤمنون ، الوحشة والغربة والانقطاع فى جاهلية قريش ، أنزل الله هذه السورة تسلية له ، وتخفيفا لآلامه ، بذكر قصص المرسلين . وكأن الله تعالى يقول لنبيه محمد ﷺ وللدعاة إلى دين الله على مدار الزمان ، لا تحزن يا محمد ولا تحزنوا أيها المؤمنون ، ولا تتفجعوا لتكذيب قومكم ، وإيذائهم لكم ، فإن بعد الشدة فرجا ، وإن بعد الضيق مخرجا .

* انظروا إلى يوسف عليه السلام ، وتمعنوا ما حدث له من صنوف البلايا والمحن . وألوان الشدائد والنكبات ، وما ناله من ضروب المحن : محنة حسد إخوته

---

(١) روى أنه سأل البشير كيف يوسف ؟ فقال : « هو ملك مصر ، قال ما أصنع بالملك ؟ وعلى أى دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام ، قال الآن تَمَّتِ النعمة .

وكيدهم له ، ومحنة رميه فى الجب ، ومحنة تعلق امرأة العزيز به وعشقها له ، ثم مراودتها عن نفسه بشتى طرق الفتنة والإغراء ، ثم محنة السجن بعد ذلك العز ورغد العيش .

* انظروا إليه كيف أنه لمّا صبر على الأذى فى سبيل العقيدة ، وصبر على الضر والبلاء ، نقله الله من السجن إلى القصر ، وجعله عزيزا فى أرض مصر ، وملّكه الله خزائنها فكان السيد المطاع ، والعزيز المكرم ... وهكذا أفعل بأوليائى ، ومن صبر على بلائى ، فلابد أن توطّدوا النفس على تحمل البلاء ، اقتداء بمن سبق من المرسلين ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[1] ﴿ واصبر وما صبرك إلّا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تَكُ فى ضيقٍ مما يمكرون ﴾[2] .

* وهكذا جاءت قصة يوسف الصديق التى قيل عنها : « سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة فى الجنة » : « لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح[3] إليها - تسلية لرسول الله عما يلقاه ، وجاءت تحمل البشر والأنس والراحة والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء ، فلابد من الفرج بعد الضيق ومن اليسر بعد العسر ، ويبشر بالنصر ، لمن تمسك بالصبر وسار على طريق الأنبياء والمرسلين والدعاة والمخلصين .

* وتاريخ هذا النبى الكريم ، كما يرويه القرآن الكريم ملىء بالعظات والعبر والدروس حافل بروائع الأخبار العجيبة والأنباء الغريبة ﴿ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

— يوسف عليه السلام يرى رؤيا فيقصها على والده يعقوب (إسرائيل) بن إسحاق بن إبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ، « والرؤيا الصالحة من الله »[1] ، وهى التى تبقت من النبوة[2] ، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين

(١) الأحقاف : ٣٥ . (٢) النحل : ١٢٧ .

(٣) حاشية الصاوى على الجلالين ٢٣٣/٢ صفوة التفاسير ، جـ ٢ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٤) فى ظلال القرآن جـ ٤ ، ١٩٤٩ - ٢٠٢٧ .

(٥) متفق عليه .

(٦) « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » ، قالوا : وما المبشرات ؟ قال : « الرؤيا الصالحة » (رواه البخارى) .

جزءا من النبوة[1] .

ــ الوالد يؤول الرؤيا لابنه يوسف ويطلب منه كتمان أمرها عن إخوته ، لأن الأصل كما بين محمد ﷺ : « فلا يحدث بها إلا من يحبُ » .

ــ الإخوة أبناء يعقوب عليه السلام يخططون للتخلص من أخيهم يوسف . وذلك يعنى أن الأحقاد الصغيرة قد كبرت وتضخمت حتى حجبت عن ضمائرهم هول الجريمة وبشاعتها ونكارتها وضخامتها ثم تزين لهم « المحلل الشرعى » الذى يخرجون به من تلك الجريمة .. ملاحظا فى هذا واقعيتهم فى بيئتهم الدينية – وهم أولاد نبى الله يعقوب ، وانطباعات هذه البيئة فى تفكيرهم ومشاعرهم وتقاليدهم ، وحاجتهم النفسية – من ثم – إلى مُبرِّر للجريمة ، وإلى طريقة للتحلل من نكارتها وبشاعتها . ولعل الذى دفعهم إلى ذلك هو تصورهم أن أخاهم يوسف أحب إلى أبيهم منهم .

ــ يوسف يعانى صنوفا من المحن والابتلاءات . محنة كيد الأخوة ، محنة الجب والخوف والترويع فيه ، ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه ولا حماية ولا رعاية من أبويه وأهله ، ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة ، ومحنة السجن بعد رغد العيش وطراوته فى قصر العزيز فى مصر .

ــ ومن خلال هذه المشاهد نرى نموذجا فى امرأة العزيز فى مصر بكل غرائزها ورغباتها الأنثوية واندفاعاتها كما تضعها وتوجهها البيئة الفرعونية الجاهلية فى بلاط الملوك ، وإلى جانب طابعها الشخصى الخاص الواضح فى تصرفها ووضوح انطباعات البيئة .. ونموذج النسوة من الطبقة العلية فى مصر الجاهلية والأضواء التى تلقيها على البيئة ومنطقها كما يتجلى فى كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها الذى راودته عن نفسه بعد ماشغفها حبا ، والاستنكار الذى تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة ثم وهلتهن أمام طلعة يوسف . ثم إقرارهن الأنثوى العميق بموقف المرأة التى كن يلغطن بقصتها ويستنكرن

---

(١) إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة .

موقفها ، وإحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذى يشجعها على الاعتراف الكامل وهى آمنة فى ظل استسلامهن لأنوثتهن كما تضعها بيئتهن الخاصة وتوجهها ثم ميلهن إلى يوسف بالإغراء والإغواء ، رغم ما أنطقتهن به الوهلة الأولى من نظافته وطهارته البادية من قولهن : ﴿ حاشا لله ما هذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

ــ ومن خلال الآيات القرآنية نرى نموذج عزيز مصر بطبيعته الخاصة وبطبيعة سمت الإمارة ثم بضعف النخوة وغلبة الرياء الاجتماعى وستر الظواهر وإنقاذها . نرى نموذج العزيز وعليه ظلال طبقته وبيئته الخاصة فى مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه .. فهذه البيئة التى تسمح بهذا وذاك بيئة خاصة هى بيئة الطبقة المترفة دائما . الطبقة الباردة الدم المائعة القيم إنَّها صورة من الطبقة الراقية فى الجاهلية الفرعونية قبل آلاف السنين وكأنها اليوم شاخصة .. ثم ماذا ؟ رخاوة فى مواجهة الفضائح .. فالزوج العزيز الذى كان يلقب « بالسيد »[1] بتعبير أهل مصر قال : ﴿ إنَّه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ فهى اللباقة فى مواجهة الحادث الذى يثير الدم فى العروق ... والتلطف فى مجابهة السيدة بنسبة الأمر كله إلى الجنس كله ، فيما يشبه الثناء ، فإنَّه لا يسوء امرأة أن يقال لها : إن كيدكن عظيم فهى دلالة فى حسها أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد العظيم .

والتفاته إلى يوسف البرىء : ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ فأهمله ولا تعره اهتماما ولا تتحدث به .. وهذا هو المهم .. المحافظة على الظواهر

وعظة إلى المرأة التى راودت فتاها عن نفسه ، وضبطت متلبسة بمساورته وتمزيق قميصه : ﴿ استغفرى لذنبك . إنَّك كنت من الخاطئين ﴾

إنها الطبقة الارستقراطية ، من رجال الحاشية ، فى كل جاهلية قريب من قريب[2] ولكن للقصور جدرانا وفيها خدم وحشم وما يجرى فى القصور لا يمكن

---

(١) ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ .

(٢) الواقع أن الجاهلية الان أشدّ وأنكى ، ففى أوروبا وأمريكا وروسيا وجميع البلاد التى لا تأخذ الإسلام عقيدة وشريعة أصبحت المجتمعات تموج بالحيوانات البشرية التى ينزوا بعضها على البعض الآخر دون =

أن يظل مستورا ، وبخاصة فى الوسط الارستقراطى ، الذى ليس لنسائه من هَمٍّ إلا الحديث عما يجرى فى محيطهن ، وإلا تداول هذه الفضائح ولوكها على الألسن فى المجالس والسهرات والزيارات .

وتداول المجتمع المصرى قصة امرأة العزيز ، عزيز مصر – أى كبير وزرائها – ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر فى المدينة : ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ ولا غضاضة – فهى السيدة الكبيرة زوجة الكبير – أن تفتتن بفتاها العبرانى المشترى : لقد أقامت لهن مأدبة فى قصرها . وندرك من هذا ، أنهن كن نساء الطبقة الراقية ، فهن اللائى يدعين إلى المآدب فى القصور من اللواتى يأخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر ، ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا على عادة أهل الشرق فى ذلك الزمان ، فأعدت لهن هذا المتكأ ... وآتت كل واحدة منهن سكينا تستعملها فى الطعام . ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية فى مصر كانت قد بلغت شأوا بعيدا . وأن الترف فى القصور كان عظيما ، فإن استعمال السكاكين فى الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته فى تصوير الترف والحضارة المادية .

وأقيم حفل الاستقبال كما أرادته امرأة العزيز المتبجحة ، وعرضت فيه فتاها الذى شغفها حبا ، ثم تعلن أنها به مفتونة حقا ؛ ويفتتن هن به ويغرينه بما يلجأ إلى ربه ليغيثه منه وينقذه ... والمرأة تعلن فى مجتمع النساء – دون حياء – إنّه إمَّا أنْ يَفْعَلَ ما يُؤْمَرْ بِهِ ، وإمَّا أنْ يُلْقَى فى السجن .

وهنا نرى جو الحكم المطلق وجو الارستقراطية وجو الجاهلية فبالرغم من براءة يوسف فقد أودع السجن .. المهم التصرف المقصود به مداراة الفضيحة ودفن معالمها ولا يهم أن يذهب برىء كيوسف ضحيتها .

= حرمة أو رادع من دين أو خلق . بل ووصل الأمر إلى أن الحكومات فى هذه الدول تُجيز ممارسة البغاء وتعطى التراخيص اللازمة لممارسته بل وتحصل الضرائب اللازمة على هذا النوع من التجارة بالجنس .

يوسف فى سجن مصر ، يدعو إلى عبادة الله وحده دون شريك :

وهناك فى سجن مصر ، مع الظلم وظلماته لا يغْفَل يوسف – عليه السلام – عن الدعوة لدينه ، كما لايغفل عن حسن تمثيله بشخصه وأدبه وسلوكه لدينه هذا الذى يدعو إليه فى سجنه . لقد واصل دعوته إلى الإسلام . ديانة التوحيد الخالص ويقرر أنها دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ويقررها فى صورة واضحة كاملة دقيقة شاملة فيما حكاه القرآن الكريم من قوله :

﴿ إنِّى تركتُ ملَّةِ قومٍ لا يؤمنونَ بالله ، وهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُوْن ، واتبعتُ ملّة آبائى إبراهيم وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ ، ما كان لنا أنْ نُشْرِكَ بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلّا أسماء سميتموها أنتُمْ وآباؤُكُمْ ما أنزل الله بهَا مِنْ سُلْطَانْ إنْ الحكُم إلا لله ، أمر ألّا تعبدُوا إلّا إيَّاهُ ذَلَكِ الدينُ القيِّم ولكّن أَكَثَرَ النَّاسِ لا يعلمون ﴾ . وهى صورة للإسلام واضحة كاملة ودقيقة وشاملة كما جاء به رسل الله جميعا من ناحية أصول العقيدة .

تحتوى الإيمان بالله والإيمان بالآخرة وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلا ، ومعرفة الله سبحانه بصفاته الواحد ، القهار ، ومن ثم نفى الأرباب التى تتحكم فى رقاب العباد ، وإعلان السلطان والحكم لله وحده ، مادام أن الله أمر ألّا يَعبُدَ الناس غيره .

وواضح أن يوسف عليه السلام . عندما سيطر على مقاليد الأمور فى مصر ، استمر فى دعوته للإسلام على هذا النحو الواضح الكامل الدقيق الشامل ولابد أن الإسلام انتشر فى مصر علي يديه – وهو يقبضُ على أقواتِ النَّاس وأزوادهم لا على مجرد مقاليد الحكم بينهم – وانتشر كذلك فى البقاع المجاورة مما كانت وفودها تجيء لتقتات مما تم ادخاره بحكمة يوسف وتدبيره .

ولقد رأينا إخوة يوسف يجيئون من أرض الشام المجاورة ضمن غيرهم من

القوافل ليمتاروا من مصر ويتزودوا ، مما يصور حالة الجدب التى حلت بالمنطقة كلها فى هذه الفترة .

ومشاهد القصة القرآنية تشير إلى آثار باهتة للعقيدة الإسلامية التى عرف المصريون[1] والرعاة شيئا عنها فى أول القصة ، كما تشير إلى انتشار هذه العقيدة ووضوحها بعد دعوة يوسف لها : والإشارةُ الأولى وردت فى حكاية قول النسوة حين طلع عليهن يوسف : ﴿ فَلمَّا رَأَيْنَهُ أكبرنَهُ ، وقَطَّعْنَ أيديهن وقلنَ : حاشَا لله ما هذا بشرًا ، إن هَذَا إلّا مَلَكٌ كريم ﴾ .

﴿ يوسف أَعْرِضُ عَنْ هَذَا واستغفرِى لذنْبِكِ ، إِنَّك كُنْتِ من الخاطِئِين ﴾

أما الإشارة الثانية الواضحة فقد جاءت على لسان امرأة العزيز التى يتجلى أنها آمنت بعقيدة يوسف وأسلمت فى النهاية ، فيما حكاه عنها السياق القرآنى :

﴿ وقالت امرأة العزيز : الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ ، أنا رَاوَدْتُه عَنْ نفسِه ، وإنّه لَمِنَ الصادقينْ ، ذلك ليعلم أنِّي لَمْ أَخُنْه بالغيب ، وأنَّ الله لا يهدِى كَيْدَ الخَائِنينْ . وما أبرِّئُ نَفْسِى ، إنْ النَّفْسَ لأمَّارة بالسوءِ إلّا مَا رَحِم ربِّى ، إن ربِّى غفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وإذا اتضح أن ديانة التوحيد – على هذا المستوى – كانت قد عرفت قبل تولى يوسف مقاليد الحكم فى مصر ، فلابد وأن تكون قد انتشرت بعد ذلك واستقرت على نطاق واسع فى أثناء توليه الحكم ثم من بعد ذلك فى عهد أسر الرعاة ؛ فلما استرد الفراعنة زمام الأمور فى الأسرة الثامنة عشرة أخذوا يقاومون ديانة التوحيد ممثلة فى ذرية يعقوب التى تكاثرت فى مصر ، لإعادة حكم الطاغوت الذى تقوم عليها الفرعونية .

وهذا يكشف لنا سببا أصيلا من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبنى

---

(١) وفى هذا رد كاف على كتاب التاريخ القديم الذين يزعمون أن شعب مصر قد تطور فى معتقده من الطوطمية والوثنية حتى وصل إلى التوحيد من تلقاء نفسه فهذا إفتراء على الله عز وجل ، فشعب مصر كغيره من شعوب الأرض كان مفطوراً على الإسلام ؛ أى أن شعب مصر فى الأصل شعب مسلم موحد ، والشرك والوثنية طارئة عليه .

يعقوب إلى جانب السبب السياسى . وهو أنهم جاءوا واستوطنوا وحكموا واستقروا فى عهد ملوك الرعاة الوافدين ، فلما طرد المصريون ملوك الرعاة طاردوا حلفاءهم من بنى يعقوب أيضا ، وإن كان اختلاف العقيدتين ينبغى أن يكون هو التفسير الأقوى لذلك الاضطهاد الفظيع ، ذلك أن انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يحطم القاعدة التى يقوم عليها ملك الفراعنة فهى العدو الأصيل للطواغيت وحكم الطواغيت وربوبية الطواغيت .

وقد وردت إشارة إلى هذا الذى نقرره فى حكاية القرآن الكريم لقول مؤمن آل فرعون فى سورة غافر فى دفاعه الإسلامىّ المجيد عن موسى عليه السلام فى وجه فرعون وملئه عندمَا همَّ فرعون بقتل موسى ليقتل معه الخطر الذى يهدد ملكه كله من عقيدة التوحيد التى جاء بها ﴿ وقال فرعَونُ ذَرُونى أَقْتلْ موسى وليدع ربه ، إنّى أخاف أن يُبَدِّلَ دِينَكُم أو أن يُظهِرَ فى الأرض الفساد . وقال موسى إنِّى عذت بربى وربكم من كلِّ مُتكبِّر لا يؤمنُ بيوم الحسابْ . وقال رجلٌ مؤمنٌ مِنْ آلِ فرعونَ يكتمُ إيمانَهُ : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإنْ يك كاذبًا فعليه كذبه ، وإنْ يكُ صادِقًا يصبكم بعض الذى يَعِدُكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا مِن بأسِ الله إنْ جاءَنَا ؟ قال فرعون : ما أريكم إلّا ما أرى ، وما أهديكُم إلّا سبيل الرشَّاد . وقال الذى آمن ، يا قوم إنِّى أخافُ عَلَيكُمْ مثلَ يَومِ الأَحزَابْ ، مثل دأب قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين مِنْ بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد ، ويا قومِ إنى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصمٍ ، ومَنْ يُضْلِلْ الله فما لَهُ مِنْ هَادٍ ، ولقد جاءكم يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بالبيناتِ فَمَا زِلْتُم فى شكٍّ مما جاءَكُم به ، حتى إذَا هَلَك قلتم : لَنْ يبعث الله مِنْ بَعْدِهِ رسُولاً ، كذلك يُضلُّ الله مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مرْتَابٌ . الذين يجادلون فى آيات الله بِغَيْر سلطانٍ أتَاهُمْ كبُرَ مقتا عِنْدَ الله وعند الّذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلبِ مَتكبِّرٍ جبَّار . وقال فرعون يا هامان ابْنِ لى صَرْحًا لعلِّى أبلغ الأسباب ﴾[1] .

(١) غافر : ٢٦ – ٣٥ .

لقد كان الصراع الحقيقي ، بين عقيدة التوحيد التي تفرد الله سبحانه بالربوبية فتفرده بالعبادة ، أي بالدينونة والخضوع والاتباع والحاكمية له وحده ، ودين الفرعونية التي تقوم على أساس العقيدة الوثنية ولا تقوم إلّا بها .

ولعل التوحيد الناقص المشوه الذي عرف به « إخناتون » لم يكن إلّا أثرًا من الآثار المضطربة التي بقيت من التوحيد الذي نشره يوسف عليه السلام في مصر كما أسلفنا ، وبخاصة إذَا صَحَّ ما يقال في التاريخ من أنّ أم إخناتون الملكة « تي » كانت آسيوية ولم تكن فرعونية .

ونعاود الحديث عن باقي صنوف المحن والابتلاءات التي تعرض لها يوسف عليه السلام بعد خروجه من السجن . لقد واجه محنة الرخاء والسلطان المطلق في يديه وهو يتحكم في أقوات الناس ورقابهم وفي يديه لقمة الخبز التي تقوتهم ... وكون يوسف عليه السلام يصبح مسئولا عن إطعام شعب كامل وشعوب آخرى مجاورة طوال سبع سنوات ، لا زرع فيها ولا خلع ، فليس هذا غنما يطلبه يوسف لنفسه فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد أنه غنيمة إنما هي تبعة يهرب منها الرجال لأنها قد تكلفهم رؤوسهم . والجوع كافر وقد تمزق الجماهير الجائعة أجسادهم في لحظات الكفر والجنون . ولقد نجح يوسف في إدارة جهاز الدولة المصرية ودبر ونظم وادخر .. وجاءت سنوات الجدب .. وجاء إخوة يوسف من البدو .. من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام في مصر ، ومن ذلك يمكن إدراك اتساع دائرة المجاعة ، كما ندرك كيف وفقت مصر بتدبير يوسف من الخروج من أزمتها ، وكيف صارت محط أنظار جيرانها ومخزن الطعام في المنطقة كلها ، **وهذا يؤكد قدرة الإسلام – بفضل الله – على مواجهة المحن والأزمات الاقتصادية وغيرها لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾** .

وبعد ذلك تتوالى المشاهد لنرى يوسف يعاني محنة المشاعر البشرية وهو يلقى بعد ذلك إخوته الذين ألقوه في الجب وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات كلها .

هذه المحن والابتلاءات التى تعرَّض لها يوسف عليه السلام وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها خرج منها كلها متجردا من كل شيء نافضا عنه كل شيء وآخر اهتماماته فى لحظة الانتصار على المحن جميعا . وفى لحظة لقاء أبويه ولم شمله فى لحظة تأويل رؤياه وتحققها كما رآها :

﴿ رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت ولِّى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾[1] .

جـ) الخلاصة والدروس المستفادة :

ــ تقرير الله سبحانه وتعالى – أن الآيات القرآنية التى تروى بها قصة يوسف عليه السلام ، هى من الكتاب المبين المنزل بالعربية لعَّل النبى وصحابته والأمة الإسلامية من بعدهم تعقل ما جاء به من أحداث ودروس وعبر .

ــ إن قصة يوسف التى يقصها الله على رسوله عليه السلام فى قرآنه الكريم لم يكن له بها أو لنا بها علم من قبل : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » ، وذلك يعنى أن الخبر الصحيح عن هذه القصة ليس له من مصدر سوى القرآن الكريم والسنة .

ــ أحداث القصة تبدأ فى أرض كنعان ببلاد الشام لتنتهى على أرض مصر ويقوم بالأدوار الرئيسية فيها النبى الكريم يعقوب (إسرائيل) عليه السلام وأبنائه الاثنى عشر (الأسباط) . وكلهم كانوا يدينون بالإسلام .

ــ يد الله سبحانه وتعالى تبدأ عملها لتعد يوسف ليكون رسولا نبيا ، فى أرض مصر ، ولابد أن يطمئن قلب الوالد النبى يعقوب عليه السلام على ابنه الذى سوف يفارقه بناء على أمر الله عز وجل ، فكانت الرؤيا الصادقة ، وتفسيرها بأن الله سيتم نعمته على يوسف كما أتمها على أبويه من قبل .

---

(١) يوسف : ١٠١ .

ـــ قدر الله يجرى ، فإذا الإخوة يلقون يوسف فى الجب ، ليلتقطه بعض السيارة المسافرين إلى مصر ، حيث أرض الحركة الإسلامية ، التى سيباشر يوسف عليها مهمته .

ـــ وفى مصر تبدأ تربية يوسف وإعداده للمهمة التى سوف يقوم بها ، وهى الدعوة إلى عبادة الله وحده بلا شريك .

ـــ الله سبحانه وتعالى الذى مكن ليوسف فى مصر ، يبتليه ، لأن الابتلاء هو الوسيلة الضرورية اللازمة لإعداد أفراد رسل الله الكرام والدعاة الصادقين من بعدهم .

ـــ الله يهب يوسف ، المحسن الحكمة والعلم ، لأن الداعية لابد وأن يكون محسنا ، وحكيما وعالماً .

ـــ يوسف عليه السلام يمر بسلسلة طويلة من الابتلاءات .

ـــ يوسف عليه السلام يدخل السجن رغم ثبوت براءته ، وهذا يشير إلى الظلم الذى كان يغرق فيه المجتمع المصرى حتى أذنيه ، كما يشير أيضا إلى عدم الغيرة على العرض التى ابتلى بها حكام مصر فى ذلك الحين : وبالإضافة إلى ذلك فإن مراودة الشباب على إتيان الفاحشة ، لم تَكُن جريمة فى عرف المجتمع المصرى حينذاك : بل شيء يدعو إلى الفخر والاعتزاز ، وهكذا الأمر فى كل المجتمعات التى شردت عن دين الله سبحانه وتعالى فى كل زمان .

ـــ يوسف فى السجن لا ينقطع عن الدعوة إلى دين الله وهو الإسلام ، مستخدما فى ذلك العلم الذى علمه له الله وحكمته التى تلقاها عن الله فى تأويل الأحاديث . ومن سياق الدعوة التى كان يباشرها يوسف عليه السلام يتأكد لنا أن المجتمع المصرى حينذاك كان يعبد أربابا متفرقين أى أسيادا وملوكا ، يضعون للناس شريعة ومنهاجا لم ينزله الله من عنده ، وهذه صفة المجتمعات الكافرة التى لا تؤمن بالله ولا بالآخرة .

ـــ إن موكب رسل الله الكرام من لدن إبراهيم وإسحاق ويعقوب إلى يوسف كانوا على دين التوحيد وهو الإسلام .

ـــ يوسف يعلّم الناس أن الحاكمية لابد أن تكون لله رب العالمين . ﴿ إن الحكمُ إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ .

ـــ يد القدرة الإلهية تسعى بيوسف إلى موقع الحكم حيث يستمر فى أداء رسالته فى الدعوة إلى دين الله ، فنرى ملك مصر يطلب من يفسر له رؤياه . فيؤتى له بيوسف ، الذى يريد مكافأته بالتمكين له بتعيينه عزيزا لمصر . ولكن يوسف الرسول النبى يرفض قبول منصب رئيس الوزراء قبل أن تتضح براءة ساحته .

ـــ قَدَرُ الله يُمَكِّنُ ليوسف الأمين ، على خزائن مصر وأقواتها ، لأنه سيكون حفيظا عليها عليما بها .

ـــ الله يقرر حقيقة جازمة بأن التمكين ليوسف فى أرض مصر ، هو من فيض رحمته سبحانه وتعالى - التى يفيضها على من يشاء وخاصة المحسنين الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وإن ذلك لن ينقص من أجرهم فى الآخرة من شىء .

ـــ إخوة يوسف الذين تآمروا عليه بالأمس ، يطلبون أقواتهم من بين يدى المُتَآمَر على حَيَاته ، وهكذا ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾ لقد أعطى الداعية الذى أريد قتلُه ظلماً وعدوَانا مثلا أعلى للتسامح والعفو عند المقدرة ، وهكذا يجب أن يكون الدعاة .

ـــ الأب يعقوب عليه السلام يسلم الابن الثانى ، واثقا من وعد الله فهو « خير حافظا وهو أرحم الراحمين » ، وهو على يقين من وعد الله بعودة أبنائه إليه سالمين ، وهكذا يجب أن يكون المسلمون المؤمنون مطمئنين إلى وعد الله فبذكر الله تطمئن إليه القلوب .

ـــ يوسف يصبح رئيسا للوزراء بمصر (عزيزها) ، وهو المسئول عن خزائنها وأقواتها ، وهى الشخصية الثانية بعد الملك ، من بعد أن كان عبدًا فى بيت عزيز مصر وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى ؛ وذلك يعنى أن الأمور لا تؤخذ بظاهرها أو بما يبدو فيها للوهلة الأولى ، فظاهر الأمر من بدايته كان شرًا كله ليوسف عليه السلام : محاولة قتله ، إلقائه فى البئر ، بيعه كعبد ، ابتلائه بامرأة العزيز ، دخوله السجن كل ذلك حدث فعلا ، ولكن ، ليصبح يوسف فى النهاية رئيسا لوزراء مصر

بعد صبره واحتسابه . وهكذا يجب أن يكون الداعية على ثقة من ربه ، فهناك الاختيار والابتلاء للتمحيص والإعداد فإذا صبر وصدق واحتسب جاء التمكين من الله .

ــ قدر الله يجرى ، ويوسف المكروه الذى تآمر الإخوة على حياته يصبح عزيزا لمصر ، ويذكّر الإخوةَ بفعلتهم التى فعلوها بالأمس .. ويرسل إلى أبيه الذى يأتى بأهلهم أجمعين .. وذلك يعنى أن أسرة يعقوب[1] قد رحلت إلى مصر واستقرت بها ، وكلها كانت على عقيدة التوحيد وهى الإسلام فى الوقت الذى جلس يوسف فيه على عرش مصر ؛ أى أن يعقوب (إسرائيل عليه السلام) لم يكن يهوديا ولا نصرانيا .

ــ إن المجتمع الكنعانى فى بلاد الشام كان مجتمعا بدويا ، بينما كان المجتمع المصرى مجتمعا متحضرا بمعايير الجاهلية .

ومن المجتمع البدوىّ اختار الله رسوله يوسف عليه السلام ليدعو إلى دين الله فى المجتمع المصرى المتحضر ، لأن حضارته لم تمنع أن يكون مجتمعا جاهليا شاردا عن هدى الله سبحانه وتعالى .

ــ إن المجتمع المصرى قبل رسالة يوسف عليه السلام كان مجتمعا جاهليا لأنه لم يكن فى دين الله القيم ، ولم يعبد الله الواحد القهار دون شريك ولم يعترف له بالألوهية والربوبية ، كما نحى شريعة الخالق عن الحكم فى حياته .

ــ كما أنه اتخذ أربابا متفرقين من دين الله ، وأطلق عليها أسماءاً ما أنزل الله بها من سلطان .

---

(١) تلك سمات المجتمع المصرى الجاهلى حينما أرسل الله يوسف لهدايتهم إلى دين الله دين الإسلام وعبادة الله وحده دون شريك ، وحينما توجد تلك السمات على مدار التاريخ فى مجتمع فإنه يمكن للمؤرخ أن يصدر حكما على أصحابها دون تردد ، وهى انحرافهم عن دين الله عز وجل .

ـــ إن حكام مصر كانوا من الرخاوة والطراوة ، وكانوا ممن نحوا شريعة الله عن حياتهم ، وممن استمرأوا حياة الترف ، وكان حريمهم غارقا فى الفساد الذى حاولوا ستره دون معالجته .

ـــ لقد كان القوم يستمرؤن الرزيلة ، ولا يستنكرونها ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر .

ـــ **يوسف يقص رؤياه على أبيه يعقوب** النبى ، الذى وعى تفسيرها وهو يعلم دور الشيطان فى مناصبته العداء للإنسان ، وسعيه للإيقاع بين الإخوة وإشعال نار العداوة بينهم ، وأن هذه العداوة تصل إلى حد معاداة الأخ لأخيه ، والتآمر عليه لقتله (ولنا قبل ذلك عبرة فى قصة ابنى آدم) .

إن الأب النبى يعقوب (إسرائيل) لم تنسه أبوته للجميع تأثير الشيطان ... على الإنسان وأنه يستطيع أن يشعل نار العداوة بين الأخ وأخيه ... لذلك فقد حذر ابنه يوسف ، الذى فضله الله واختاره من بين أبناء يعقوب للنبوة ، من أن يقص خبر رؤياه على إخوته ، لأن هذا التفضيل الربانى قد يشعل نار الحسد فى قلوبهم .. لذلك فقد نصحه بكتمان رؤياه تجنبا للكيد ، إنَّه علاج النفوس المتطلعة إلى ما عند الآخرين ، تريد انتزاعه أو تريد زواله من المُنعَمِ عليه ...

إنَّه درس ربانى للذين أنعم الله عليهم بأية نعمة ؛ أو وهم فى الطريق لتحصيلها أن يكتموا أخبارهم عند الحصول عليها عن النفوس المتطلعة دائما إلى ما عند الآخرين ، وأن يبذلوها لمستحقيها ففى ذلك علاج لتلك النفوس .

إنَّها صورة نجدها تعيش معنا فى مجتمعاتنا المعاصرة ... صورة الحسد الذى يأكل النفوس ويجعلها مطية طائعة للشيطان ، تدبر المكائد والمؤامرات حول الإنسان الذى منّ الله عليه بالنعم ، فوصل إلى مركز مرموق ، أو إلى ثراء ... أو إلى غير ذلك .

إذن فالعلاج الكتمان ، ولا داعى للتباهى بها (بالفم) ، لأن ذلك يزكى نار الحسد ...

ثم يضرب لنا القرآن مثلا تطبيقيا لتلك النفوس التى أعماها الحسد والحقد .. فقطعت أواصر الأخوة ، وتآمرت على أخيها بالقتل .. لمجرد وهم خيله الشيطان لها بأن أخاهم قد نال من حب أبيهم أكثر من نصيبهم ، لم يأخذوا الطريق المستقيم ، ويناقشوا الأب ويسألوه المساواة فى الحب وإنَّما دبروا المؤامرة للتخلص من أخيهم لينالوا هم كل الحب ، إنهم يعلمون أن ذلك حرام ... فقالوا : نتوب بعد ذلك ، ونصبح قوما صالحين : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾ .

﴿ وكذلك مكنا ليوسف ﴾

وردت فى النص القرآنى فى الوقت الذى كان فيه يوسف ينتقل من يد إلى يد ، يعانى من محنة الرق ... وهو ابن الكريم وهو ابنٌ معززٌ مُكَرَّمٌ ... كيف يتم التمكين وسط هذا الظلام .. إن ذلك من صنع الله ، إنه درس للذين ابتلاهم الله بالمحن ... !! درس يعرفهم أن النور آت ، بالرغم من الظلمة الحالكة ... وإن الله غالب على أمره مهما كان التدبير محكما ... ومهما كان الظلام دامسا .

- **﴿ ولما بلغ أشده ، آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾ ...**

إن هذا العلم وهذا الحكم ... جعله يفهم الأمور فهما جيدا حسنا ، ويزن الأحداث بميزان دقيق ، ميزان العلم النافع ... ويحكم عليها حكما عادلا : إن سيدته طلبت منه ممارسة الفاحشة ... إنها السيدة الآمرة وهو العبد الذى يجب عليه أن يطيع ... ثم إنه شاب مليىء بالفتوة ... ومن هم فى سنه وفتوته يَصْبُون إلى التمتع بشبابهم .. ثم إن المجتمع الذى يعيش فيه لا يستنكر الفاحشة ، كل الظروف مهيئة لكى يقبل العرض الذى عرضته عليه السيدة الآمرة ... ولكنه وزن كل ذلك بميزان العلم ، وأصدر حكمه فيه بالرفض ... إنه يعلم أن هذا حرام ، وهو لا يمكن أن يغضب الله ... ولا أن يظلم نفسه باقتراف الفاحشة

ولا أن يظلم سيده الذى أكرمه ، وأدخله بيته وجعله أمينا على عرضه : ﴿ إنَّه لا يفلح الظالمون ﴾ .

إنه قدوة للشباب المتعفف ... وإنه صفعة لكل من يسوق المبررات الواهية لأسباب سقوطه فى الوحل ... إن الله سبحانه وتعالى يَصْرِفُ السوء عن عباده المخلصين ... ويساعدهم على تخطى الحرام إن أخلصوا النية والعزم على تخطيه : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنَّه من عبادنا المخلصين ﴾ .

وتعرض يوسف لابتلاء آخر ... فلم تعد امرأة العزيز هى التى تراوده ، وإنَّما نسوة المدينة أيضا ... ماذا يفعل إزاء هذه الفتنة وهو الشاب ... لقد خشى من الضعف فاتجه إلى الله سبحانه وتعالى ... أن ينقذه من هذه البلاء ولو بالسجن .. ﴿ رب السجن أحب إلىَّ مما يدعوننى إليه ، وإلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كيدهن أصب إليهن ، وأكن من الجاهلين ﴾ .

إنه يستنجد ربه أن يصرف عنه محاولاتهن لإيقاعه فى حبائلهن خيفة أن يضعف فى لحظة أمام الإغراء الدائم ، فيقع ما يخشاه على نفسه ، ويدعو الله أن ينقذه منه .. وهى دعوة الإنسان العارف ببشريته ، الذى لا يغتر بعصمته ، فيريد مزيدا من عناية الله وحياطته يعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء »[1] .

إنه يعلم أن الانسياق وراء دعوتهن هو جهل ، لقد خشى مما ينتاب البشر من ضعف جعله يتجه إلى رب العالمين يعرض أمامه نفسه بصدق ، ويرجوه أن يساعده على تخطى هذه الأزمة ، إمَّا بأن يصرف عنه كيد النسوة أو بدخول السجن ، والسجن أحب إليه من السقوط لقد ناجى ربه بإخلاص ... فاستجاب له ربه وصرف عنه كيد النسوة .

لقد كان يوسف بسلوكه إزاء امرأة العزيز ثم إزاء النسوة مثال الشاب المتعفف عن الحرام ، برغم فتوته وشبابه وقوة دواعى الإغراء من حوله ، وإحاطة أسبابها به .

---

(١) الظلال : ٤/١٩٨٥ .

ثم ها هو يدخل السجن مظلوما . فلا ينسيه الظلم الواقع عليه مهمة المسلم الأساسية ، لا ينسيه السجن وظلمته أن الإنسان خلق لعبادة الله ... وها هو يمارس الدعوة فى السجن : ولكى يكون ما يدعو إليه مقبولا لدى السامع لابد أن يكسب ثقته وحبه وصداقته ، لقد اتخذ من زملاء السجن أصحابا تحدث معهم فى أمور شتى ، عرفوا منها أنه يعلم تأويل الرؤى . ومن سلوكه فى السجن وثقوا به ، فلجأ اليه اثنان منهم يطلبان تأويل رؤياهما . فأنبأهما بأنه يستطيع أن يؤول رؤياهما ... وأن تأويل الرؤيا هو علم أعطاه الله إياه ...

فلفت بذلك انتباه الجميع لتوضيح من هو ربه ؟؟ وما هو دينه ؟ ، وأن العلم نعمة من الله ، ولابد من توظيفه فى طاعة الله : إنّ ربه هو الله ، وأن دينه هو الإسلام ... وأنه مؤمن بأن هنالك موت وبعث وحساب وعقاب وجنة ونار ... ويعمل لذلك اليوم ، وأنه ترك ملة الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ... هؤلاء الذين لم يتورعوا عن فعل الفواحش وعن إدخال المظلومين السجن سترا للظواهر ، واستهانة بقدر المظلومين .

أما هو وآباؤه إبراهيم وإسحاق ويعقوب فهم لا يشركون بالله شيئا ...

ثم خاطب قلوب سامعيه بإظهار صداقته لهما لأنه لابد من كسب حُبّ المُخَاطَبِ المَدْعُو وكسب صداقته : ﴿ يا صاحبى السجن ... ﴾ ولما التفتا إليه ، قال لهما : فكروا بعقولكم : هل الآلهة المتعددة ... الأرباب المتفرقة التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تسمع دعاء المظلوم ، ولا تستجيب ، خير أم الله الواحد القهار ؟ . ثم قدم لهم الإجابة ، وفضح حقيقة الضلال والجاهلية التى يعيش فيها هذا المجتمع الضال ...

إنّ تلك المعبودات هى أسماء مجردة سميتموها أنتم وآباؤكم ، ولا يزيد دورها فى الحياة عن مجرد الأسماء ، ليس لديها أى سلطان ... إنّما السلطان هو لله ، والحكم بيد الله ، هو الخالق ... وأمر ألا تعبدوا إلّا إيَّاه ... وهذا هو دينى ... ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وكان أساس دعوة يوسف تركز على شرح الإسلام شرحا واضحا مفهوما ، ويبين معالم هذا الدين الإسلامى الأساسية وهى :

١) الإيمان بالله وحده دون سواه .
٢) نبذ الشرك والشركاء عن الله فى الألوهية والربوبية والشرائع والشعائر .
٣) قصر العبودية على الله وحده .
٤) إن دين الأنبياء هو الدين القيم الصحيح لا دين سواه وهو الإسلام .
٥) بين الإيمان باليوم الآخر .
٦) ضرورة المفاصلة مع أعداء الله . ﴿ إنِّى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ .

هذه هى القواعد الأساسية التى يجب أن يراعيها الدعاة فى دعوتهم ، لأنَّها هى القضايا الأساسية[1] .

أما الأساس الثانى الذى سلكه يوسف عليه السلام فهو :

الهجوم على الجاهلية ، وتفنيد باطلها وعدم مجاراتها فى أى أمر :

﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ ، ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان . إنْ الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلَّا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

* **﴿ وقال الملك : ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال : إنّك اليوم لدينا مكين أمين . قال : اجعلنى على خزائن الأرض ، إنِّى حفيظ عليم ﴾ .**

إن الملك يريد أن يجعل من السجين مستشارا له ... دون أن يطلب منه هذا السجين أن يُخَلِّصَهُ من السجن ... كل ما طلبه السجين هو التحقيق مع النسوة وإثبات براءته ، وجرى التحقيق ، وأُعْلِنَتِ البراءة : ﴿ حاشا لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ،

---

(١) ومضات على الطريق / ٢ جميعان ، المجتمع الكويتية العدد ٤٧١ ، ص ١٤ .

وإنَّه لمن الصادقين ﴾ . لذا فقد طلب الملك أن يكون هذا السجين مستشارا له ... كيف حدث هذا ؟؟ كيف ينتقل السجين من السجن إلى القصر ، إن الملك يحتاج إلى مستشار أمين ، بالإضافة إلى أنه عالم حكيم ، له من العلم والحكمة ما يستطيع بمساعدته أن تجتاز البلاد ما ينتظرها من أزمة اقتصادية .

أما العلم والحكمة فقد ثبتتا له من تأويله للرؤيا الملكية ... ليس هذا فقط بل من خطة الإنقاذ التى اقترحها ...

أما عن الأمانة ، فقد كان أمينا على عرض عزيز مصر ... صادقا ، لم يقترف سوءًا بشهادة امرأة العزيز ، وبشهادة النسوة ... بل بشهادة كل من سأله عن يوسف ... ثم بعد ذلك لثقته الكبرى فى نفسه ، ثقته التى جعلته أن يشترط على الملك إعلان براءته المتأكد منها ، قبل المثول بين يدى الملك ... إنَّه بسلوكه القويم أصبح مستشاراً للملك ... إنه باحترامه لنفسه أصبح عند الملك ﴿ مكين أمين ﴾ .

وهكذا لابد وأن يكون الذين يلون أمور المسلمين ، مناصب الدولة الإسلامية : أشراف ، أطهار ، أمناء ، نظيفى اليد والذيل .

* **إن الدعوة إلى الله واجبة ، وإن طريق الدعوة ليس سهلا ، ولكنه مفروش بالابتلاءات ، ولكن فى نهايته جنة عرضها السموات والأرض .**

فيوسف عليه السلام مرت عليه صنوف من الابتلاءات منذ أن كان غلاما صغيرا ، حينما فارق الأسرة ، المحضن الطبيعى له ، وعاش فى ظلمات الجب ، وحينما بيعَ إلى عزيز مصر ، فأصبح عبدا فى بيته ، وحينما راودته امرأة العزيز عن نفسها ، وحينما ألقى به فى السجن وهو برىء ، وحينما أصبح على خزائن الأرض .

إن الأمور لا يجب أن تؤخذ بظواهرها : ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ فكل ما مر به يوسف كان فى ظاهره الشر ، ولكن رغم هذا لا نرى يوسف عليه السلام جزعا ، أو متمردا على الله ، ولكن كلما مرت به محنة أو ابتلاء رفع يديه إلى السماء وهكذا يجب أن يكون المسلم فى أحواله .

المهم فى نهاية هذه الابتلاءات التى كان ظاهرها الشر ، كان التمكين ليوسف عليه السلام على خزائن الأرض .

والتمكين فى حد ذاته ، كان ابتلاء آخر ، فكم من الدعاة قد صمدوا تحت سياط التعذيب ولكنهم سقطوا أمام الدنيا التى فتحت عليهم .

*** الثبات على المبدأ والاستمرار فى إبلاغ دعوة الله ، رغم التعرض للابتلاء :**

يتضح هذا من موقف يوسف عليه السلام حينما دخل السجن ، لم يتوقف لحظة واحدة عن الدعوة إلى دين الله ، لقد استمر يعرض قضية التوحيد على السجناء ، وأثناءها كان يعلم الناس أن معنى التوحيد هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، ويدعوهم إلى الدخول فى دين الله وهو الإسلام .

﴿ إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا ، وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبى السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1] .

* إن التمكين فى الأرض نعمة من نعم الله عز وجل ، وهذا يستلزم الشكر لله عز وجل وأول مراتب الشكر أن يوظف العبد هذه النعمة فى طاعة الله ، ومنها الدعوة إلى الله عز وجل . فيوسف عليه السلام حينما أمسك بخزائن الأرض ، لم يتوقف عن الدعوة إلى دين الله وهو الإسلام ، لأنه ليس من المعقول أن يوسف – عليه السلام – يباشر الدعوة إلى الله وهو سجين ، ولا يباشرها وهو حر طليق ممكن فى الأرض .

---

(١) يوسف : ٣٧ – ٤٠ .

ولذلك كان مما قال : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما ، وألحقنى بالصالحين ﴾[1] .

من سمات الداعية إلى الله عز وجل :

أ) الإيمان الراسخ والتوحيد الكامل :

﴿ إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وهذا يؤكد أهمية الحكم فى الإسلام .

ب) البراءة من الشرك والمشركين :

﴿ إنِّى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ .

جـ) تعلق البصر فى السر والعلانية بالله سبحانه وتعالى ، والتوجه إليه بالدعاء والرجاء :

يتضح هذا الدرس من موقف يوسف عليه السلام حينما قال للذى ظن أنه ناج منهما : ﴿ اذكرنى عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ .

وهنا أدرك يوسف عليه السلام أنه ما كان له أن يطلب من أحد شيئاً* .

د) التركيز فى الدعوة على قضية توحيد الله سبحانه وتعالى ، مع حسن عرضها على المدعوين

﴿ يا صاحبى السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ،

---

(١) يوسف : ١٠١ .

* « عجبت لصبر أخى يوسف وكرمه والله يغفر له حيث أرسل إليه ليستفتى فى الرؤيا ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج وعجبت لصبره وكرمه والله يغفر له ، أتى ليخرج فلم يخرج حتى أغيرهم بعذره ولو كنت أنا لبادرت الباب ولولا الكلمة لما لبث فى السجن يبتغى الفرج من عند غير الله عز وجل » حديث صحيح رقم ٣٨٧٩ صحيح الجامع الصغير .

ما تعبدون من دونه إلّا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1] .

هـ) يجب على الداعية أن يكون حريصا على عدم الاستشراف للمنصب ، وأن تكون سمعته حسنة :

يتضح ذلك من حرص يوسف عليه السلام على أن يعرف الناس براءته قبل الوصول إلى موقع السلطة ، يتضح ذلك من الموقف التالى :

﴿ وقال الملك : ائتونى به ، فلما جاءه الرسول ، قال : ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللائى قطعن أيديهن ، إن ربى بكيدهن عليم . قال : ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن : حاشا لله ، ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنَّه لمن الصادقين ﴾ .

و) الحفظ والعلم صفتان يجب أن يتصف بهما الداعية المسلم بل ويتصف بهما كل من يسند إليه أى مسؤولية فى شؤون الدولة :

﴿ اجعلنى على خزائن الأرض ، إنِّى حفيظ عليم ﴾ .

أهميـــة التخطيط فى الإســـلام :

فالله سبحانه وتعالى علم المسلمين ، وعلمنا أهمية التخطيط الاقتصادى فى الإسلام ، فها هو يوسف – عليه السلام – يقيم بناء على الرؤية التى أريها الملك (وهذه من الله عز وجل) ، خطة خمس عشرية (لمدة خمسة عشر عاما) .

﴿ تزرعون سبع سنين دأبا ، فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصدون ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾ (٢)

(١) يوسف : ٤٧ – ٤٩ .

(٢) وفى الحديث : « رحم الله أخى يوسف لو أنا أتانى الرسول بعدَ طول حبس لاسرعت الإجابة حين قال : ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة ﴾ حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده فى باب الزهد ، حديث رقم ٣٤٨٥ صحيح الجامع الصغير .

وبفضل الله – عز وجل – وبفضل هذه السياسة الحكيمة ، أمكن لمصر وجيرانها ، أن يجتازوا الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى شملت المنطقة كُلِّها ، بدليل مما تحصدون . ﴿ ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴾(١). أن أهل الشام كانوا يأخذون أقواتهم من مصر ، حينما نزلت الأزمة الاقتصادية بأرض الشام ، فالمسلم أخو المسلم ، كالبنيان يشد بعضه بعضا .

* **لابد أن يكون الداعية إسلاما يتحرك على الأرض رغم المحن التى قد يتعرض لها :**

فرغم محنة المشاعر البشرية التى تعرض لها يوسف وهو يلقى إخوته الذين ألقوه فى الجب ، وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات كلها ، فإنه قد عفا عنهم ، وعاملهم معاملة طيبة .

لقد زاول يوسف – عليه السلام – الدعوة إلى الإسلام من خلال تلك المحن كلها ، زاول الدعوة إلى الإسلام فى القصر بسلوكه السوى ، وتعففه وأمانته على العرض ، وإعلان رفضه لفعل أمر حرمه الله .

وكان لهذا السلوك أثر إيجابى فى الدعوة إلى دين الله . ذلك الأثر نلمسه فى إسلام امرأة العزيز ، وإيمانها بدعوة يوسف .

ونلمسه عند تقصى الملك حقيقة ما حدث ، فكانت النتيجة أن كل من سأله عن يوسف أجاب ما علمنا عنه إلا كل خير . ونلمس ذلك أيضا حينما زاول الدعوة فى السجن ، أحبه السجناء ووثقوا به ... وكان لذلك إيجابيات أيضا ... فقد تحدث ساقى الملك ، صاحب السجن السابق ، إلى الملك عن يوسف وعلمه وتقواه ... ثم جاء تأويل الرؤيا ... ومعها العلاج ، مما جعل الملك يتشوق لرؤياه ، ويأمر بالإتيان به ... ويرفض يوسف الخروج من السجن قبل إعلان براءته ... مما جعل الملك يصمم على أن يستخلصه لنفسه ... أن يجعله مستشاره وأمين سره ...

﴿ قال : إنَّك اليوم لدينا مكين أمين ﴾

---

(١) يوسف : ٤٠ .

لقد وصل إلى هذه المكانة بالسلوك القويم ، بالعفة ، والطهارة وعزة النفس ، وقبل ذلك بفضل الله عز وجل .

وجوب طلب الإمارة خدمة لدين الله عز وجل :

وطلب يوسف من الملك : ﴿ قال : اجعلنى على خزائن الأرض ، إنِّى حفيظ عليم ﴾ .

إنّ يوسف هنا يقدم للملك وللبلاد خدمة يهرب منها الجميع ... إن تلك الوظيفة فى تلك الظروف عبء جسيم ... لايستطيعها إلا شخص ذو علم وأمانة ... ويوسف يعلم حال البلاد ، وما يفتقر إليه ذلك المجتمع من أمانة وعلم .

وأصبح يوسف – عليه السلام – له الكلمة والتمكين فى الأرض ، وحمل المسؤولية كاملة ، واستطاع أن ينقذ البلاد من الأزمة الاقتصادية الطاحنة ... التى عمت المنطقة كلها ، واشتكت منها البلاد المجاورة . ذلك كله بفضل الله تعالى .

سؤال أهل العلم :

بعد عجز الملأ من حاشية الملك عن تأويل رؤياه ... ذهب ساقى الملك إلى يوسف يسأله تأويل رؤيا الملك ... فلم يقتصر يوسف على التأويل المجرد ، إنما أعطاه علاج ما ستواجهه البلاد من متاعب **وذهب الساقى إلى الملك يخبره** بما حدث ... فأصدر الملك أمرا بأن يأتوه بالسجين ... ﴿ وقال الملك : ائتونى به ﴾ .

طهارة الذيل شرط فيمن يتولى أمراً من أمور المسلمين :

وكان يتوقع أن يطير السجين فرحا بالخلاص بعد سنين فى ظلام السجن ، ولكن رفض السجين أن يخرج من السجن قبل تحقيق الملك فى أمر سجنه ، وإعلان براءته على الجميع ، فقال لرسول الملك : ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله : ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ؟ إنَّ ربى بكيدهن عليم ﴾ .

وبدأ التحقيق ؛ وتبين الملك براءة يوسف وهنا يتحول موقف الملك من مجرد استدعاء سجين من سجنه ... إلى استدعاء رجل يحتاجه الملك ، وتحتاجه

الدولة ، رجل له من العلم النافع والحكمة ، ما هم فى أشد الحاجة إليهما ، رجل ثقة أمين نظيف السمعة .

الإســـــلام هو الحــــل :

لقد هددت المجاعة مصر بل ومعها المنطقة كلها ... مجاعة شاملة ...

قدم يوسف عليه السلام الحل لإنقاذ مصر من المجاعة المرتقبة ... لم يكن ضمن الحلول : تحديد عدد السكان ، لم يقل يوسف للملك : إن الانفجار السكانى هو السبب ... وإنما قدم الحل ونفذه بأمانة وصدق . أنقذ البلاد من كارثة محققة ... بل تعدى الإنقاذ مصر إلى ما حولها من بلاد ... لقد وصلت خطة الإنقاذ المواطن الذى كان يسكن أرض الشام : سورية وفلسطين . وها هم أخوة يوسف يأتون إلى مصر ، مع أعداد من أهل فلسطين يطلبون الطعام من مصر .

فإلى دعاة تحديد النسل نسوق هذا المثل من التاريخ ... ونقول لهم : إن يوسف استطاع بفضل الله – عز وجل – أن ينقذ البلاد من مجاعة محققة ، وحينما استجاب الحاكم والمحكوم واستسلموا لله – عز وجل – بالكلية ، حينما قبلوا أن يحكم الإسلام حياتهم بجلوس يوسف عليه السلام ، الرسول المسلم ، فى موقع رئيس وزراء مصر ، يحكم حياته وحياة أمته بمنهج الله عز وجل .

ولذلك يمكن القول : أنَّه لا مخرج للمشكلة الاقتصادية وغيرها ولا منقذ للأمم من ورطتها الاقتصادية التى حملتها بالديون لليهود والنصارى والملحدين إلا بالعودة إلى الله ، وإلا بتسليم القياد لله عز وجل وتحكيم حياتها بالمنهج الربَّانى الذى يقوم على الإسلام ..

هل يمكن تحديد زمن رسالة يوسف عليه السلام إلى شعب مصر[1]؟ حينما وصل يوسف عليه السلام وهو غلام صغير إلى مصر ، كانت مصر محكومة بالملوك الرعاة الذين عاش إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام قريبا منهم ، فعرفوا شيئا عن دين الله منهم ، يؤخذ هذا من ذكر القرآن ، لحاكم مصر ، الذى عاش فى عهده يوسف عليه السلام يلقب ملك بينما كان يلقب حاكم مصر الذى ولد على عهد موسى عليه السلام بلقب « فرعون » : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض ﴾[2] .

والملوك الرعاة أو الهكسوس[3] شكلّوا كما تذكر كتب التاريخ القديم ثلاث أسرات الخامسة عشر والسادسة عشر والسابعة عشر (١٦٨١ - ١٥٨٠ ق . م) وكان من أسماء ملوكهم « يعقوب » أى يعقوب آت[4] .

وكانوا يضمون فى الراجح أسباط من قبائل بنى إسرائيل .

ولعله من قدر الله أن بعض الوثائق المصرية القديمه قد حفظت لنا بعض أخبار هذه الفترة ، وهى تعكس لنا تراجعا للوثنية والطغيان على أرض مصر على عهد يوسف عليه السلام ؟؟

فقد روى كاهن مصرى قديم اسمه مانيتون ، خبراً مفاده أن مصر قد أصابتها ضربة من الله ، وجاءها غزاة من جهة الشرق تمكنوا من الاستيلاء على

---

(١) إن إثارة هذا السؤال ومحاولة الإجابة عليه لا قيمة له فى تحقيق الهدف الذى من أجله قص الله سبحانه وتعالى أخبار يوسف عليه السلام ، ولو سبق فى علم الله عز وجل أنه من مصلحة بنى آدم معرفة هذه المسألة لأخبر بها فى كتابه الكريم .

(٢) القصص : ٣ .

(٣) كلمة مصرية وهى تحريف للقب حقا خاسوت أى حاكم البلاد الأجنبية ، وكان لقب يطلقه المصريون على زعماء القبائل البدوية التى كانت تعيش فى شرق مصر ، يؤيد ذلك العثور على هذا اللقب مكتوبا فوق مناظر البدو الساميين القادمين إلى مصر فى مقابر بنى حسن كما ورد أيضا فى قصة سنوهى أثناء حديثه عن اقامته بين بدو لبنان وسوريا ، ولا جدال أن هؤلاء الهكسوس جاءوا عن طريق فلسطين وربما كانت جحافلهم المختلطة مستقرة هناك قبل مجيئهم إلى مصر (حضارة مصر الفرعونية ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٢) .

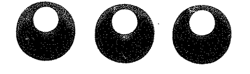
(٤) تراث العالم القديم ، جا ، ٣٣ .

مصر دون ضربة واحدة ، وبعد أن تغلبوا على حكام البلاد ، هدّموا معابد الآلهة (الوثنية) من أساسها[1] .

كما أن إحدى الملكات المصريات وهى حتشبسوت قد قررت فى نقش فى إحدى مقابر بنى حسن المصرية أنه لم يكن هنالك سلطان للوثن رع فى عهد الحكام الآسيويين الذين هدموا معابد الأوثان .

وهناك دليل ثالث يؤخذ من لوحة كارنارفون ، حيث وردت كلمة لمستشارى الملك كامس حينما طلب منهم الرأى فى رغبته طرد الآسيويين (بنى إسرائيل والهكسوس ؟) من مصر ، قالوا بصوت واحد : ولكننا فى طمأنينة ونحكم مصرنا الفنتين بخير وجميع البلاد حتى القوصية إلى جانبنا والرجال يحرثون لنا أراضينا ، وترعى ماشيتنا فى الدلتا ، ويأتينا الشعير علفا ... لم يأخذ أحد ماشيتنا غصبا ولم يعتد علينا معتد .

وإذا كان ما ورد فى الوثائق المصرية صحيحا ، فذلك يمكن أن يؤكد الافتراض القائل بأن رسالة يوسف عليه السلام إلى شعب مصر وموضوعها الإسلام الذى يقوم على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، كانت فى عصر الفترة الثانية . ومن ثم فقد ترتب على قيام الإسلام على أرض مصر القضاء على سلطان الأوثان وتم تحطيم معابدها ، والقضاء على نفوذ سدنتها فى ظل حكم الله واستقرت الأمور وحلت الطمأنينة فلذلك لا عجب إذ رفض المصريون أن يقاتلوا البدو أو الهكسوس أو يوسف ومن معه ، استجابة لرغبة أحد طواغيتهم كما تروى الوثائق المصرية .



---

(١) حضارة مصر الفرعونية : ص ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، تاريخ وحضاره مصر ، ص ٧٢ - ٧٤ ؛ وعرضنا لهذه الشواهد من النصوص القديمة ، من باب شهد شاهد من أهلها .

الجـــزء الرابـــع

بنـو إسرائيل (يعقوب) عليه السـلام ممكنون فى الأرض

بنو إسرائيل هم أبناء يعقوب النبى المسلم ، وهم الذين أخذ عليهم أبوهم العهد بأن الله قد ارتضى لهم الإسلام دينا ، فعليهم أن يعيشوا على الإسلام وبالإسلام ، وأن يحرصوا على الموتِ على الإسلام : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إبراهيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ يا بَنِىَّ إن الله اصْطَفَى لكم الدينَ فلَا تَموُتُنَّ إلّا وأَنْتُم مُسلِمُون . أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حضَرَ يَعْقُوبَ الموتُ إذ قَالَ لبَنيهِ ما تَعْبُدُون مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُد إِلَهكَ وإِلهَ آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون ﴾[1] .

ووفى من وفى من أبناء يعقوب عليه السلام ، بعهدهم مع الله ثم بعهدهم مع أبيهم ، ومن هؤلاء كان يوسف عليه السلام ، الذى حمل أمانة الدعوة إلى هذا الدين – وهو الإسلام – على أرض مصر كما عرضنا فى وقت سابق : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أَنْتَ ولِيِّى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾[2] .. لقد كان عليه السلام حريصا على أن يتوفاه الله على الإسلام ، تنفيذا لوصية أبيه يعقوب .

ومن هنا نخلص إلى أن بنى إسرائيل فى الأصل كانوا مسلمين موحدين ، ولم يكونوا يهودا أو نصارى ، وكانوا يشكلون المجتمع المسلم ، الذى فضله الله سبحانه وتعالى على العالمين لدينه وإسلامه وتقواه :

---

(١) البقرة : ١٣٣ .

(٢) يوسف : ١٠١ .

﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنّى فضلتكم على العالمين ﴾[1] .

إذن فالله سبحانه وتعالى فضل بنى إسرائيل على العالمين بسبب إيمانهم وتقواهم ، ولهذا فقد مكن لهم فى الأرض ، هذا التمكين نلمحه فى وصول يوسف عليه السلام إلى حكم مصر ، ومباشرته الدعوة إلى الإسلام على أرضها . وهذا التمكين نلمحه واضحا أيضا فى إهلاك فرعون مصر واسخلاف بنى إسرائيل من بعده . وهذا التمكين نلمحه واضحا فى عهد داود وسليمان عليهما السلام حينما منّ الله على سليمان بملك لم ينبغى لأحد من بعده

وبمضى الوقت ، نجح الشيطان فى اجتيال بنى إسرائيل عن دينهم ، وبدأوا يقترفون سلسلة من المعاصى ، أدت بهم فى النهاية إلى نزع الخيرية عنهم ، بل وجعلتهم يستحقون معها لعنة الله عز وجل : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾[2]

أى أنه بعد تنحيتهم عن مكان القيادة بسبب مروقهم من دين الله عز وجل لن يكون هنالك تمكين لهم فى الأرض أبدا ، وذلك إمضاء لسنن الله الكونية فى حياة الأمم والشعوب ، إن الله سبحانه وتعالى يمكن فى الأرض للمسلمين المؤمنين الموحدين العاملين ، فالتمكين فى الأرض قرين الإيمان بالله وعدم الشرك به : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾[3] .

وإذا ما وقع التمكين فهنالك تكاليف وواجبات : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله

---

(١) البقرة : ١٢٢ .

(٢) آل عمران : ١١٢ .

(٣) النور : ٥٥ .

عاقبة الأمور ﴾[١] .

وبنو إسرائيل المسلمون مُكِّنُوا فى الأرض : أرض مصر وأرض الشام ، حينما كانوا يعبدون الله حق عبادته ولا يشركون به شيئا : ﴿ يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾ ويقيمون دين الله فى حياتهم ، فلما نكصوا على أعقابهم ، ونكلوا عن القيام بواجباتهم نحاهم الله سبحانه وتعالى عن موقع القيادة ، ونزع عنهم الخيرية والأفضلية : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[٢] .

وهذه قاعدة أرساها الله فى حياة البشرية ، إن الأمة المسلمة تظل ممكن لها فى الأرض ، فإذا انحرفت ، ... فإذا حادت عن شرع الله ونظامه ، نحاها الله عن موقع القيادة ، استبدلها بغيرها .

فميزان المفاضلة بين الناس هو التقوى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[٣] . فميزان المفاضلة لا يقوم على الجنس أو العصبية أو القبلية . فكون بنى إسرائيل هم أحفاد إبراهيم أو أبناء إسحاق ويعقوب ، أن تظل لهم الأفضلية مطلقا . إن الأفضلية والخيرية والتمكين تكون لهم ما استقاموا على شرع الله ونظامه ، أما إذا انحرفوا عن نظام الله وشرعه فلا خيرية ولا تمكين حتى لو كانوا من صلب يعقوب وإسحاق وإبراهيم .

لقد وقع بنو إسرائيل فى سلسلة من المعاصى والانحرافات التى كانت فى بدايتها يسيرة ، ثم اتسعت تدريجيا حتى شملت جوانب الحياة كلها .

من ذلك : التآمر على قتل أخيهم يوسف - عليه السلام : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾[٤] .

إن الحقد على أخيهم قد أعمى بصائرهم ، فما عادوا يحسون أن القتل

---

(١) الحج : ٤١ .

(٢) محمد : ٣٨ .

(٣) الحجرات : ١٣ .

(٤) يوسف .

جريمة ، وأنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا . ومعنى ذلك أن إحساسهم بوجود إله رقيب منتقم جبار قد فتر . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، لقد تصوروا أنه يمكنهم بعد أن يقتلوا أخاهم أن يكونوا صالحين .

ومع هذا ، فقد تابوا فتاب الله عليهم ، وعاشوا ما بين مصرو بلاد الشام فى ظل سلطان الإسلام الذى قامت دعائمه على عهد يوسف عليه السلام .

وعاش أخوة يوسف ، أبناء يعقوب النبى المسلم ، بين ظهرانى سكان وادى النيل ، قرونا عديدة ، ويبدو إن الإسلام قد انتشر على أيديهم ، واستمر الحال هكذا ، حتى بدأت الدعوة ، تخبو فى النفوس والصدور ، وبدأ بنو إسرائيل الممكنون يُزَحْزَحُونَ عن مكان القيادة لأنَّ الخيرية بدأت تُنْزَعُ عنهم تدريجيا ، بسبب بعدهم التدريجى عن نظام الإسلام وشريعته ، سلط الله عليهم الفراعنة ، فأسقطوا نظام الحكم الذى قام على أكتاف يوسف - عليه السلام - (والذى تسميه الكتب حكم الهكسوس) ، وقام مكانه نظام وثنى جاهلى طاغوتى هدفه : أن لا يكون على أرض وادى النيل إنسان يقول: لا إله إلا الله .

وهذا سبب الحقد الأساسى من الفراعنة على بنى إسرائيل ، لأن بنى إسرائيل - أخوة يوسف - كانوا مسلمين ، والإسلام يقوم على قاعدة لا إله إلا الله أى لا معبود بحق إلا الله ، أى لا سلطان مع سلطان الله وذلك يعنى سقوط سلطان الطواغيت ومنهم الفراعنة ، وهذا هو السبب الحقيقى لعداء الفراعنة لبنى إسرائيل .

وفى ظل النظام الطاغوتى الفرعونى ، عاش بنو إسرائيل فى مصر ، مستذلين ، مستباح حماهم : ﴿ يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾[1] .

ولعل ما أصابهم كان من باب الابتلاء بالضراء لعلهم يرجعون .

عاش بنو إسرائيل بين ظهرانى سكان وادى النيل (مصر) ، وهى محكومة بنظام طاغوتى (ما يسمونه حكم الدولة الحديث (عام ١٥٧٠ - ١٠٩٠ ق.م)

---

(١) البقرة : ٤٩

ادعى الألوهية والربوبية ، وكان لا يطيق أن يرتفع صوت بلا إله إلا الله .

وعاش بنو إسرائيل مضطهدين ، ولكن رغم ذلك ظلوا محتفظين ، لا أقول جميعهم – إنما الكثيرون منهم – بأصل ديانته وعقيدته وهى الإسلام ، ولم يتجاوزوها إلى عبادة آلهة المصريين ، سواء أكانت أوثانا أو حكاما .

ولا شك أنه قد كان لوجود بنى إسرائيل فى مصر ، أثر كبير ، وهو استمرار وجود الإسلام على أرض مصر : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة »[1] . وبدون ذلك لا نستطيع أن نفهم كيف اعتنقت زوجة فرعون الإسلام ، ولا نستطيع أن نفهم وجود مؤمن آل فرعون بين ظهرانى فرعون وقومه ؛ ولا نستطيع أن نفهم ، وجود الرجل المؤمن ، الذى طلب من موسى ، أن يخرج ، لأن الملأ من قوم فرعون يأتمرون به .

يؤكد ما ذهبنا إليه قول الله سبحانه وتعالى فى بداية سورة القصص : ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾[2] . والتمكين لن يكون إلا لقوم مسلمين مؤمنين عاملين .

فكان ما وقع لبنى إسرائيل من اضطهاد ، من فضل الله عليهم ، علهم يفيقوا ويحاسبوا أنفسهم ، ويتذكروا أن ما أصابهم كان بسبب نكولهم وتراخيهم فى دينهم ، فيتوبون ويعودون إلى الله تعالى .

وهذه الوسيلة ربانية ، فى إعادة المسلم إلى إسلامه ... إلى دينه ، حينما ينسى أو يفتر أو يبتعد عن طريق الله عز وجل ، ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ .

وذلك يعنى : مع أن الانحراف بدأ يتسلل إلى نفوس بنى إسرائيل ، إلا أن الخير كان كامنا فيهم .

وشاءت إرادة الله عز وجل ، رحمة منه بعباده ، أن يرسل إلى بنى إسرائيل فى مصر رسولا منهم يردهم إلى ربهم الحق ودينهم الحق .

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الأول ، رقم ٢٧٠ .

(٢) القصص : ٥ .

الجـــزء الخـامس

رسول من بنى إسرائيل يدعو أبناء مصر إلى الاســـلام

سيرة موسى عليه السلام

منهـج عرض السـيرة :

عرض جوانب هذه السيرة العطرة ، يستلزم منا استحضار جميع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وغيرها من النصوص التاريخية الصحيحة التى تحكى أخبار هذا النبى الكريم وأخبار الأمة التى أرسل فيها ، مع استحضار المنهج القرآنى فى معالجة قصص الأنبياء السابقين واللاحقين لموسى[1] عليه السلام .

---

(١) تعرض تاريخ موسى عليه السلام للتشويه على يد المستشرقين ، ومن سار على نهجهم من أبناء العرب، والمسلمين .

فقد زعم الزاعمون أن موسى كان يدين باليهودية ، وينسبون إليه التوراة المحرفة ، وأنه قد تأثر بعقائد الفراعنة الملحدين ، وأنه قد تزعم ثورة ضد الفرعون وآلهة المصريين المتعددة ، وأنه يفكر فى الدعوة إلى إله جديد (كأن الدين من اختراع عقل موسى) . كما زعم الزاعمون أن التوراة التى نزلت على موسى بعد الرسالة هى نسخة من قوانين حمورابى . أى أن التوراة الأصلية قبل تحريفها مأخوذة عن الفكر البشرى وليست وحياً عن الله عز وجل لموسى عليه السلام (انظر قصة الحضارة ، م ١ ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ - ٣٨٥ ، الشرق الخالد ص ٣٧٩ ، ٣٩٩) . كما زعموا أيضاً أن دعوته كانت دعوة قومية (حضارة مصر والشرق القديم ص ٣٥٥) .

ويدخل فى هذا هدم النبوات والرسالات . فها هو موسكاتى يزعم بأن : « الأنبياء كانوا مظهراً تلقائياً لما كان يشعر به الناس من سخط على الصورة التى فرضها الحكم الملكى على الدين ، وكان الأنبياء يدعون إلى التمسك بالأفكار القديمة » (الحضارات السامية القديمة ، ص ١٤٢) وفى موضع آخر يقول : « وهذه الأحوال هى السبب فى قيام الأنبياء ، وكان يميز دعوتهم العداء للتطور السياسى الدينى الذى شهده عصر الملكية وأدى إلى تلوث دين يهوه القديم وفساده . وقد ندد الأنبياء بالبدع الوثنية ، وبذلك عارضوا السلطة الملكية معارضة صريحة ، وقد لاحظ العلماء بثاقب نظرهم أن هذه النبوة تعبير عن إنبعاث روح الحرية الموروثة =

كما أن الدارس لهذه السيرة لابد وأن يستحضر فى حسه ووجدانه المناسبة والهدف الذى من أجله قص الله سبحانه وتعالى هذه السيرة : ﴿ نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴾ .

فإلى القوم المؤمنين فى كل زمان ومكان يُوجه الله هذا الكتاب ، يُربيهم به ، وينشئهم عليه ويرسم لهم المنهاج ، ويشق لهم الطريق .

وقد نزلت هذه الآيات والمسلمون فى مكة قلة مستضعفة ، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان ، كما هو واقع عصرنا الحالى . نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم . نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة فى هذا الوجود ، هى قوة الله ، وأن هناك قيمة واحدة فى هذا الكون ، هى قيمة الإيمان ، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه ولو كان مجردا من كل مظاهر القوة المادية ، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن ولا طمأنينة لو ساندته جميع القوى ، ومن كانت له قوة الإيمان ، فله الخير كله ، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شَيْء أصلا .

ثم يأتى العرض والتحليل واستخلاص النتائج محققا للهدف بإذن الله . فمن خلال العرض نلمح :

« أمة سكنت وادى النيل ، مكن الله لها فى الأرض ، وتسلط عليها فرعون الطاغية المتجبر ، أعتى ملوك الأرض فى زمانه ، وأقدمهم عرشا ، وأثبتهم ملكا ، وأعرقهم مدنية ، وأشدهم تعبدا للخلق واستعلاء فى الأرض (لعله رمسيس الثانى أو مرنبتاح)[1] هذا الفرعون كان يقبض على ناصية الأمور بيد من حديد وادّعى الربوبية والألوهية ؛ ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ - ﴿ وقال يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ وهو فى هذه المقالة معاند يعلم أنه عبد مربوب وأن الله هو الخالق البارىء المصور

= عن حياة البداوة ، ص ١٤٥ » . وهكذا حاول الكاتب أن يهدم النبوة ، ليصل بنا فى النهاية أنه لا وحى ولا إله والعياذ بالله . كما أنه زعم بأنه إدعاء النبوة كان له أثر فى قيام دعوة الأنبياء (ص ٤٥٨) .

(١) من ملوك الأسرة التاسعة عشرة التى حكمت مصر ، إذ أن الدراسات الحديثة تذكر أن مصر على مدار ثلاثة آلاف عام حكمها ثلاثون أسرة من الملوك

الإله الحق كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[1] .

وبين ظهرانى هذه الأمة ، كانت تعيش ذرية يعقوب عليه السـلام ، النبى المسلم ، وهو (إسرائيل) ، الذين وفدوا إلى مصر على عهد يوسف عليه السـلام ، وكانوا كثرة ، ويشكلون عددا كبيرا .

هذه الفئة وقع عليهم أشد الاضطهاد والبغى لأن لهم عقيدة غير عقيدة الفرعون وقومه ، فهى تدين بدين جدّها إبراهيم ويعقوب عليهم السلام وهو دين الإسلام ، ومهما يكن فقد وقع فى عقيدة البعض من فساد وانحراف فى ذلك الوقت ، فقد بقى لها أصل الاعتقاد بإله واحد ، وإنكار ألوهية فرعون ، والوثنية الفرعونية جميعا .

ولهذا فقد أحس الطاغية ، أن هناك خطرا على عرشه وملكه من وجود هذه الطائفه فى مصر ، فابتكر طريقة جهنمية خبيثة للقضاء على الخطر الذى يتوقعه من هذه الطائفة ، التى لا تعبده ولا تخضع حياتها لنظامه وقوانينه .

هذه الطريقة تتمثل فى جعل أهل مصر شيعا وأحزابا ، كل طائفة فى شأن من الشئون ، بعضها يتجسس على البعض الآخر لمصلحة الطاغية ، كما هو حادث فى كثير من بقاع الأرض ، مثال ذلك قارون ، والقوابل اللاتى وكلن بالحوامل من نساء بنى إسرائيل للإبلاغ عن المواليد الذكور ؛ ﴿ إِنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فى الأَرضِ وجَعَل أَهْلَهَا شِيَعًا يستضعف طائفِةً مِنْهم يُذبِّحُ أبناءَهَمْ ويَسْتحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّه كَانَ مِن المُفْسِدِين ﴾[2] .

وهذا يعكس لنا مدى طغيان الفرعون الذى لا يستشعر الرحمة بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة (وهو دأب الطاغوت فى كل زمان) ؛ ﴿ ونُرِيدُ

---

(١) النمل : ١٤ .

(٢) القصص : ٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٧٩ .

أنْ نَمُنَّ علَى الذِينَ استُضْعِفُوا فى الأرضِ ونَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً ونَجْعَلَهُمْ الوارِثينْ ﴾[1] .

والسياق القرآنى ، يعلن واقع الحال ، وما هو مقدر فى المآل . لتقف القوتان وجها لوجه ، قوة فرعون المنتفشة المنتفخة التى تبدو للناس قادرة على الكثير وقوة الله الحقيقية الهائلة التى تتهاوى دونها القوى الظاهرية الهزيلة التى ترهب الناس وفى ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

فى ظل تلك الأوضاع القاسية ، ولد موسى ، ولد والخطر محدق به – وهاهى أمه حائرة خائفة عليه ، عاجزة عن حمايته ، عاجزة عن إخفائه .. هنا تتدخل يد القدرة ، فتتصل بالأم الوجلة القلقة : ﴿ وأوْحَيْنَا إلىَ أُمِّ مُوسَى أنْ أرْضِعِيه ، فَإذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَألْقِيهِ فى اليَمِّ ولَا تَخاف ولَا تَحْزَنِي ، إنَّا رادوه إلَيْكِ وجَاعِلُوهْ مِنَ المُرسَلِينْ ﴾[2] .. وتلك بشارة الغد ، ووعد أصدق القائلين . ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَونَ ﴾[3] ... أهذه هى البشارة ؟ وهل كانت الأم تخاف ؟ إلا أن يقع فى يد آل فرعون ؟

نعم ولكنها القدرة تتحدى بطريقة سافرة ومكشوفة ، فرعون وهامان وجنودهما ، وتلقى فى أيديهم بلا بحث بطفل ذكر على يديه هلاكهم أجمعين .. ﴿ ليكون لَهُمْ عَدُوًّا وحَزَنا ، إنَّ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وجُنُودَهُما كانُوا خَاطِئِينْ ﴾[3] .

﴿ وقَالَتِ امْرَأةُ فِرْعَونَ : قُرة عَيْنٍ لِي ولَكَ ، لَا تَقْتُلُوه عَسىَ أنْ يَنْفَعَنَا أوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ، وَهُمْ لَايَشْعُرُونْ ﴾[4] .

وهو الذى تُخبىءُ لهم الأقدار ، من ورائه ، ما حذروا منه طويلا . وهذا

---

(١) القصص : ٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٧٩ .
(٢) القصص : ٧ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ض ٣٨٠ .
(٣) القصص : ٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٨٠ .
(٤) القصص : ٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٨٠ .

دليل على قدرة الله القادرة التى تتحدى الطواغيت وتسخر منهم وهم لا يشعرون .

﴿ وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ، إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِيْنَ . وقَالَتْ لأُخْتِه قُصِّيه ، فَبَصُرَتْ به عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونْ . وَحَرَّمْنَا عَلَيْه المَرَاضِعَ مِنْ قَبْل ، فقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيتٍ يَكْفُلُونَهُ لكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونْ . فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُها ولَا تَحْزَنَ ، ولِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌ وَلِكنَّ أَكْثَرَهُمْ لايَعْلَمُونَ . ولَمَّا بَلَغ أَشُدَّه واسْتَوى آتيناهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذلِكَ نَجزى المُحْسِنِينِ ﴾[1] .

فهل ظل موسى فى قصر فرعون ، أم أنه اعتزل القصر ، ولم تسترح نفسه للحياة فى ظل تلك الأوضاع الآسنة التى لا تستريح إليها نفس مصفاة مجتباه كنفس موسى ؟ وبخاصة أن أمه لابد أن تكون قد عرَّفته من هو ومن قومه وما ديانته وهو يرى كيف يُسامُ قومه الخسف البشع والظلم الشنيع ، والبغى اللئيم ، وهو يرى ، أبشع صورة للفساد الشائع الأثيم .

﴿ ودَخَل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه . قال : هذا من عمل الشيطان إنَّه عَدُوٌّ مضل مبين . قال رب إنِّى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنْعَمْتَ على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾[2] .

﴿ فأصبح فى المدينة خائفًا يترقب ﴾[3] ، لأن هذه الفعلة لاشك قد أقلقت بال الفرعون وهزت عرشه هزا عنيفا ، وأن رجال مخابراته كانوا حريصين على الإمساك بالقاتل ؛ ﴿ فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى : إنك لغوى مبين ﴾[3] غوى بعراكه الذى لا ينتهى واشتباكاته التى

---

(١) القصص : ١٠ – ١٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٨٢ . وقد ورد فى الحديث مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها .

(٢) القصص : ١٥ – ١٧ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٨٢ .

(٣) القصص : ١٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٨٣ .

لا تثمر إلا أن تثير الثائرة على بنى إسرائيل ، وهم عن الثورة الكاملة عاجزون ، وعن الحركة المثمرة ضعاف ، فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التى تضر ولا تفيد .

﴿ فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدوٌ لهما قال : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسًا بالأمس ؟ إن تريد إلّا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾(١) .

وإنَّه لَيَقَع حينما يشتد الظلم ، ويفسد المجتمع ، وتختل الموازين ، ويخيم الظلام ، أن تضيق النفس الطيبة بالظلم الذى يشكل الأوضاع والقوانين والعرف ، وتفسد الفطرة العامة حتى يرى الناس الظلم فلا يثورون عليه ، ويرون البغى فلا تجيش نفوسهم لدفعه ، بل يقع أن يصل فساد الفطرة إلى حد إنكار الناس على المظلوم أن يدفع عن نفسه ويقاوم ، ويسمون من يدفع عن نفسه أو غيره جبارا فى الأرض كما قال القبطى لموسى .

ذلك لأنهم ألفوا رؤية الطغيان يبطش وهم لا يتحركون ، وهو واقع كثير من أبناء آدم فى عصرنا الحاضر ، حتى وهموا أن هذا هو الأصل ، وأن هذا هو الفضل ، وأن هذا هو الأدب ، وإن هذا هو الخلق وأن هذا هو الصلاح . فإذا رأوا مظلوما يدفع الظلم عن نفسه ، فيحطم السياج الذى أقامه الطغيان لحماية الأوضاع التى يقوم عليها ... ولولوا ، ودهشوا ، وسموا هذا المظلوم الذى يدفع الظلم سفاكا أو جبارا ، وصبوا عليه لومهم ونقمتهم ، ولم ينل الظالم الطاغى من نقمتهم ولومهم إلا القليل ، ولم يجدوا للمظلوم عذرا - حتى على فرض تهوره من ضيقه بالظلم الثقيل .

لقد عرف الملأ من قوم فرعون ، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليه أنها فعلة موسى . وما من شك أنهم أحسوا فيها بشبح الخطر ، فهى فعلة طابعها الثورة والتمرد ، والانتصار لبنى إسرائيل ، وإذن فهى ظاهرة خطيرة تستحق التآمر .

---

(١) القصص : ١٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٨٣ .

فانتدبت يد القدرة رَجُلاً من الملأ ، الأرجح أنه مؤمن آل فرعون الذى يكتم إيمانه ... انتدبته ليسعى إلى مُوسى من أقصى المدينة فى جدّ واهتمام ومسارعة ليبلغه قبل أن يَبلُغُهُ رجال المَلِكِ :

﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إنى لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب . قال : رب نجنى من القوم الظالمين ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربِّى أن يهدينى سواء السبيل ﴾[1] .

﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تزودان . قال : ما خطبكما ؟ قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير[2] فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل ، فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير . فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا ، فلما جاءه وقصَّ عليه القصص ، قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما يا أبت استئجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾[3] . إنها وأختها تعانيان من رعى الغنم ، ومن مزاحمة الرجال على الماء ومن الاحتكاك الذى لابد منه للمرأة التى تزاول أعمال الرجال ، وهى تتأذى وأختها من هذا كله ، وتريد أن تكون امرأة تأوى إلى بيت ، امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء فى المرعى والمسقى . والمرأة العفيفة الروح ، النظيفة القلب ، السليمة الفطرة ، لا تستريح لمزاحمة الرجال ، ولا للتبذل الناشىء من هذه المزاحمة . فهى تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتبذل . وهو قوى على العمل ، أمينٌ على المال ، فالأمين على العرض هكذا أمين على ماسواه .

واستجاب الشيخ وقال : ﴿ إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين ، على

---

(١) القصص : ٢٠ - ٢٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٨٣ ، فى ظلال القرآن ، المجلد الخامس ، ص ٢٦٨٥ .

(٢) والنص القرآنى يبين لنا أن خروج البنتين كان لضرورة ، وهو كبر سن الأب ، وملازمته للبيت وحاجتهما إلى سقى الغنم .

(٣) القصص : ٢٣ - ٢٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾[1] .

يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس فى هذا مايخجل ، والتصنع والتكلف مما يشاهد فى البيئة التى تنحرف عن سواء الفطرة ، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة ، تمنع الوالد أو ولى الأمر من التقدم لمن يرتضى خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته ، وتحتم أن يكون الزوج أو وليه هو الذى يتقدم ، ولا يليق أن يجيىء العرض من الجانب الذى فيه المرأة ومن مفارقات هذه البيئة المنحرفة كما هو حادث فى زماننا ، أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون ، ويتكشفون ، بعضهم لبعض ، فى غير ما خطبة ولا نية نكاح . فأمَّا عند ما تعرض الخطبة أو يذكر النكاح ، فيهبط الخجل المصطنع ، وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة .

ووعى رسول الله محمد ﷺ ، وصحبه ، هذا التوجيه الربانى من خلال تصرف شيخ مدين من الخطبة لابنته . فكان الصحابة يعْرضون بناتهم على الرجال ، بل كانت النساء ، تعرض نفسها على النبى ﷺ أو من يرغب فى تزويجهن منهم ، وكان يتم هذا فى صراحة ونظافة وأدب جميل ، لا تخدش معه كرامة ولا حياء . عرض عمر رضى الله عنه ابنته حفصة على أبى بكر فسكت ، وعلى عثمان فاعتذر ، فلّما أخبر النبى ﷺ بهذا طيب خاطره . ثم تزوجها . وعرضت امرأة نفسها على النبى ﷺ فاعتذر لها . فألقت إليه ولاية أمرها يزوجها ممن يشاء ، فزوجها رجلا لا يملك إلا سورتين من القرآن علمّها إياهما فكان هذا صداقها .

وهكذا صنع الشيخ الكبير ، وقبل موسى العرض وأمضى العقد ، وأشهد الله : ﴿ قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على[2] والله على

---

(١) القصص : ٢٧ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٨٤ – ٣٨٥ .

(٢) والنص القرآنى يبن لنا أن خروج البنتين كان لضرورة ، وهو كبر سن الأب ، وملازمته للبيت وحاجتهما إلى سقى الغنم .

ما نقول وكيل . فلمّا قضى موسى الأجل ، وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا ، إنّى آنست نارا ، لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة : أن يا موسى إنّى أنا الله رب العالمين ، وأن ألق عصاك ، فلمّا رآها تهتز كأنها جانٌّ ولّى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف ، إنك من الآمنين . أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ، إنهم كانوا قوما فاسقين . قال : رب إنّى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخى هارون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءًا يصدقنى إنّى أخاف أن يكذبون . قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾[1] .

إن الرسالة تكليف ضخم شاق متعدد الجوانب والتبعات ، يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق فى واقع الحياة العملى ، إلى جانب هبة الله اللدنية ، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير .

ورسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تلقاه بشر – عدا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر ، أعتى ملوك الأرض فى زمانه .

وهو مرسلٍ لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمرأوا مذاقه ، فمردوا عليه واستكانوا دهرا طويلا ، والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن ، ويذهب بما فيها من الخير والجمال ، فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل عسير .

وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة هى الإسلام ، انحرفوا عنها وفسدت صورتها فى قلوبهم ، .. وهو فى اختصار مرسل لإعادة بناء أمة بل لإنشائها من الأساس ، فلأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعبا مستقلا ، له حياة خاصة ، تحكمها

---

(١) القصص : ٢٩ – ٣٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٨٧ – ٣٨٨ .

رسالة ، وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير .

إذن فهى الرسالة إلى فرعون وملئه ، إذن فهو الوعد الذى تلقته أم موسى وهو طفل رضيع ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾[1] . وعد الله لا يخلف الله وعده وهو أصدق القائلين .

يذهب موسى وهارون إلى فرعون . ليسا مجردين ، إنما يذهبان إليه وهما مزوّدان بسلطان ، لا يقف له فى الأرض سلطان : ﴿ ونجعل لكما سلطانا ﴾[2] ولا تناهما معه كف طاغية ولا جبار : ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾[2] وهو لكما من الله سياج ، ولكما منه حصن وملاذ ... ومعهما بشارة عن غلبة الحق : ﴿ بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾[2] .

فالقدرة تتجلى سافرة على مسرح الأحداث ، وتؤدى دورها مكشوفا بلا ستار من قوى الأرض ، لتكون الغلبة بغير الأسباب التى تعارف عليها الناس ، فى دنيا الناس ، وليقوم فى النفوس ميزان جديد للقوى وللقيم ، إيمان وثقة بالله ، وما بعد ذلك فعلى الله .

يذهب موسى وهارون ومعهما توجيهات ربانية عن أسلوب الدعوة : ﴿ إذهبا إلى فرعون إنّهُ طغى ، فقولا له قولا ليّنا لعله يتذكر أو يخشى ﴾[3] وهذا هو الأصل فى أسلوب الدعوة : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[4] .

﴿ فأتيا فرعون فقولا إنَّا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل . قال ألم نربك فينا وليدا. ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين . قال فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لمّا خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنّها

---

(١) القصص : ٧ .

(٢) القصص : ٣٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٨٩ .

(٣) طه : ٤٣ - ٤٤   (٤) النحل : ١٢٥

عليّ أن عبدت بنى إسرائيل . قال فرعون وما رب العالمين : قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾[1] .

وهكذا أسقط فى يد الطاغية ، فلم يجد وسيلة للنيل من الدعوة وصاحبها سوى اتهامه بالجنون .. وهكذا كان موقف الملأ الذين كفروا من قوم نوح : ﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾[2] .

وهكذا كان موقف الملأ من قوم هود ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلّا اعْتَرَاكَ بَعضُ آلِهَتِنَا بِسُوء ﴾[3] .

وهكذا زعم الملأ من قريش عن محمد ﷺ . وهذا هو موقف الجاهلية الحديثة من دعوة الإسلام وحملتها ؛ ولكن موسى الرسول الداعية ، الذى يرى أن الدعوة واجبة ، والبلاغ لابد وأن يكون كاملا ، لم يفارقه هدوء الداعية الواثق من ربه فقال :

﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المَسْجُونِينَ ﴾[4] . وهذا أسلوب الطغيان الجاهل الذى فشل فى الصمود أمام الحق الأبلج ..

قال موسى ﴿ أو لو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين . قال للملأ حوله : إنّ هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾[5] . نفس التهمة التى وجهت إلى نوح عليه السلام وإلى صالح ﴿ قالوا إنَّما أنت من المسحرين ﴾ . وإلى الرسل جميعا ومنهم محمد ﷺ . حينما اتفق أهل قريش ماذا يقولون فيه ، قالوا نقول : ساحر يفرق

---

(١) الشعراء : ١٦ - ٢٢ .

(٢) القمر : ٩ .

(٣) هود : ٥٤

(٤) الشعراء : ٢٧ - ٢٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٥) الشعراء : ٣٠ - ٣٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٣٣ .

بين الأب وابنه .. وهى نفس التهم التى توجه إلى الدعاة على مر العصور والأزمان .

وأشار الملأ على فرعـون :

﴿ أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحّار عليم . فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين . فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين﴾[1] . وهنا يبدو بيع الذمم وشراؤها بالمال واضحا للوقوف إلى جانب الطاغية ، رغم أنه على الباطل . وهو دأب الجاهليات فى كل زمان - ﴿ قال نعم وإنّكم إذن لمن المقربين ﴾[2] . وقبل أن نستمر فى تتبع المواجهة بين حزب الرحمن وحزب الشيطان ، نقف قليلا لنلمح :

(أ) أسلوب موسى فى الدعوة عن طريق توجيه نظر المدْعُو إلى قدرة الله فى الخلق ، وعلمه المحيط ، وقدرته على الرزق ، وقدرته على الخلق والإماتة والإحياء :

﴿ قال فمن ربكما يا موسى ؟ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[3] .

ولكن فرعون مصر الطاغية استمر على كفره : ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذّب وأبى ﴾[4] . وهذا دأب الجاهلية فى كل زمان ، إنها تعرض عن منهج الله عز وجل ، لا لنقص فى الدليل والبرهان على صدق دعوة الله ولكن بسبب

---

(١) الشعراء : ٣٦ - ٤١ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٣٤ .
(٢) الشعراء : ٤٢ .
(٣) طه : ٤٩ - ٥٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .
(٤) طه : ٥٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ١٥٦ .

انحرافٍ ، أصاب فطرتها ، فهى معرضة عن الحق مهما كان الدليل والبرهان .

ونلمـح أيضـا :

(ب) أسلوب موسى فى الدعوة عن طريق الترهيب بعذاب الله :

﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى . قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ... ﴾[1] .

(ج) التواطؤ على إشاعة التهم الباطلة ضد جند الحق :

ولكن الملأ تواطؤا على الكفر ﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى ﴾[2] ، ولابد من إشاعة التهم الباطلة ضد الحق . وأنصاره لصرف الناس عنه ، وحشد جميع القوى للوقوف فى وجه الحق . وهذا دأب الجاهلية الحديثة ..

﴿ قالوا إنّ هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ، فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾[3] .

(د) المواجهـــــة :

ونلمح بعد ذلك المواجهة وقد حشد لها الناس ، ولعل ذلك من قدر الله سبحانه وتعالى لإقامة الحجة على الجميع ، كما حدث فى حادثة أصحاب الأخدود . وكان ذلك يوم الزينة .

﴿ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنَّا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون . فألقِىَ السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . قالوا لا ضير إنا إلى ربنا

---

(١) طه : ٦١ (٢) طه : ٦٢ . (٣) طه : ٦٣ .

منقلبون . إنَّا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنّا أول المؤمنين ﴾[1] .

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا ، فاقض ما أنت قاض إنّما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنَّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ، إنه من يأتِ ربه مجرما ، فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾[2] .

إن موقف السحرة جدير بالوقوف عنده ، فمنذ لحظة كانوا مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم ، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية ، ولكن الحق الذى مس قلوبهم ، قد حولها تحويلا . لقد كانت هزة رجتهم رجا ، ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم ، فأزالت عنها ركام الضلال ، وجعلتها صافية حية خاشعة للحق ، عامرة بالإيمان ، فى لحظات قصار . فإذا هم يجدون أنفسهم سجدا . ﴿ آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾ .

وإن القلب البشرى لعجيب غاية العجب ، فإن لمسة واحدة تصادف مكانها لتبدله تبديلا . وصدق محمد ﷺ « ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه » (متفق عليه) .

وهكذا انقلب السحرة المأجورون ، مؤمنين من خيار المؤمنين ، على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملئه . لا يفكرون فيما يعقب جهرهم بالإيمان فى وجه الطاغية من عواقب ونتائج .

أو كما يقول الحافظ ابن كثير :

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم رضى الله عنهم . قال عبدالله بن عباس وعبيد بن عمير : كانوا من أول النهار سحرة ، فصاروا فى آخره شهداء بررة[3] . ويؤيد هذا قولهم : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ .

---

(١) الشعراء : ٤٣ – ٥١ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٣٤ .
(٢) طه : ٧٢ .
(٣) تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ .

وهنا نلمح الطغيان وقد وقف عاجزا أمام الإيمان ، وأمام الاطمئنان ، ووقف عاجزا أمام القلوب التى خيل إليه أنه يملك الولاية عليها ، كما يملك الولاية على الرقاب . ويملك التصرف فيها ، كما يملك التصرف فى الأجسام ، فإذا هى مستعصية عليه ، لأنها من أمر الله ، لا يملك أمرها إلا الله .

إنه موقف من المواقف الحاسمة فى تاريخ البشرية . هذا الذى كان بين فرعون وملئه ، والمؤمنين من السحرة السابقين . يتمثل فى انتصار العقيدة على الحياة ، وانتصار العزيمة على الألم ، وانتصار الإنسان على الشيطان . وفيه يبدو ميلاد الحرية الحقيقية . فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة . والاستهانة بالقوة المادية التى تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب ، وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح ، وفيه يبدو أيضا إفلاس المادية ، فهذه القلة التى كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز ، وتمنى بالقرب من السلطان . هذه ذاتها التى تستعلى على فرعون ، وتستهين بالتهديد والوعيد ، وتقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتعذيب .

لقد أدرك فرعون وملئه أن إيمان السحرة برب العالمين ، يمثل خطرا على نظام ملكهم وحكمهم ، لتعارض القاعدة التى يقوم عليها هذا الإيمان ، مع القاعدة التى يقوم عليها سلطان فرعون الطاغية ، وهو نفس السبب لموقف الملأ من القوم من دعوة نوح ودعوة إبراهيم ودعوة هود ودعوة صالح ودعوة شعيب ودعوة أصحاب الأخدود ودعوة محمد ﷺ ، وهو نفس السبب لموقف الجاهلية من دين الله عز وجل فى كل زمان . لأنه لا يجتمع فى قلب واحد ، ولا فى بلد واحد ، ولا فى نظام واحد ، أن يكون الله رب العالمين ، وأن يكون السلطان فى حياة الناس لعبد من العبيد يباشره بقوانين من عنده ، فهذا دين وذلك دين وهنا نقف أمام إدراك السحرة – بعد أن أشرق نورُ الإيمان فى قلوبهم ، وجعل لهم فرقانا فى تصورهم ، أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هى معركة العقيدة ، وأنه لا ينقم منهم إلا إيمانهم برب العالمين ، فهذا الإيمان على هذا النحو يهدد عرش فرعون وملكه وسلطانه ، ويهدد مراكز الملأ (أصحاب الجاه والسلطان) من قومه ، وسلطانهم المستمد من سلطان فرعون .. وهذا الإدراك لطبيعة المعركة ضرورى لكل من يتصدى للدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى .

ونقف أمام مشهدٍ آخر ، إنَّه مشهد التآمر والتناجى بالإِثْم والتَحْريض ، بعد الهزيمة والخذلان فى معركة الإيمان والطغيان .

مشهد الملأ من قوم فرعون يَكْبُرُ عليهم أن يذهب موسى ناجيا والذين آمنوا معه - ﴿ وما آمن له إلّا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ﴾ فإذا الملأ يتناجون بالشر والإثم وهم يهيجون فرعون على موسى ومن معه ، ويتخوفون عاقبة التهاون فى أمرهم من ضياع الهيبة والسلطان باستشراء العقيدة الصحيحة ، فى ألوهية الله رب العالمين وربوبيته ، فإذا فرعون الطاغية وهذا دأب الطاغوت فى كل زمان - هائج مائج ، مهددا متوعدًا، مُستعزاً بالقوة الغاشمة التى بين يديه وبالسلطان المادى الذى يرتكز عليه .

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ، ويذرك وآلهتك قال : سَنُقَتِّلُ أبْنَاءَهُمْ ، ونستحى نساءهم ، وإنَّا فوقهم قاهرون ﴾ .

إنه الطغيان فى كل زمان ، لا فرق بين وسائله اليوم ووسائله قبل عشرات القرون والأعوام .

وهنا نلمح الداعية إلى الله ، نلمح موسى عليه السلام الرسول الكريم ، مع قومه ، يحدث المؤمنين بقلب النبى ولُغَتِه ، ومعرفته بحقيقة ربه ، وبسنته وقدره ، فيوصيهم باحتمال الأذى ، والصبر على البلية ، والاستعانة بالله عليهم ، ويعرفهم بحقيقة الواقع فى الكون ، أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة لمن يتقون الله ولا يخشون أحدًا سواه .

فإذا شكوا إليه أن هذا العذاب الذى يحل بهم قد حل بهم من قبل أن يأتيهم ، وهو يحل بهم كذلك بعد ما جاءهم ، حيث لا تبدو له نهاية ، ولا يلوح له آخر ، أعلن لهم رجاءه فى ربه أن يهلك عدوهم ، ويستخلفهم فى الأرض ليبتليهم فى أمانة الخلافة .

﴿ قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ،

قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾[1] .

وهذا درس يستخلصه المؤرخ ، إنه ليس لأصحاب الدعوات فى كل زمان ، إلا رب العالمين ، ليس لهم إلا ملاذ واحد ، وهو الملاذ الحصين الأمين وليس لهم إلا ولىٌّ واحد وهو الولى القوى المتين ، وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولى بالنصر فى الوقت الذى يقدره بحكمته وعلمه . وألا يعجلوا فهم لا يطلعون على الغيب ولا يعلمون أين الخير .

وأن الأرض لله ، وما فرعون وقومه وغيرهم إلا نزلاء فيها . ، والله يورثها من يشاء من عباده وفق سنته وحكمته . فلا ينظر الداعون إلى « لا إله إلا الله » إلى شىء من ظواهر الأمور التى تُخَيِّلُ للناظرين أن الطاغوت ممكن فى الأرض غير مزحزح منها ، فصاحب الأرض ومالكها هو الله الذى يقدر متى يطردهم منها . وأن العاقِبَةَ للمتقين طال الزمن أم قصر ، فلا يخالج قلوب الداعين إلى ربِّ العالمين قلق على المصير ولا يخايل لهم تقلب الذين كفروا فى البلاد ، فيحسبونهم باقين .

ومن الواجب أيضا على أصحاب الدعوات أن ينظروا فى تاريخ الدعوة من خلال توجيهات القرآن الكريم ، ليتأكد لهم أن سنة الله تجرى وفق وعده للصابرين ، وللمجاهدين . وليروا من خلال سنة الله ، هلاك الطاغوت وأهله ، واستخلاف الصابرين المستعينين بالله وحده ، فيدفعوا قومهم دفعا إلى الطريق لتجرى بهم سنة الله إلى ما يريد .

وليعلموا أيضا منذ البداية ، أن استخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء لهم ، ليس لأنهم أبناء الله وأحباؤه – كما زعم بنو إسرائيل ، فلا يعذبهم بذنوبهم ؛ وليس جزافا بلا غاية ، وليس خلودا بلا توقيت ، إنه استخلاف للامتحان : ﴿ لينظر كيف تعملون ﴾ .

---

(١) الأعراف : ١٢٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ .

ونلمح من النص القرآنى ، أن فرعون وملأه قد مضوا فى جبروتهم ، ونفذ فرعون وعيده وتهديده ، فقتل الرجال واستحيا النساء ، كما يفعل الطواغيت فى العصر الحديث . ومضى موسى وقومه يحتملون العذاب ، ويرجون فرج الله ، ويصبرون على الابتلاء ، وعندئذ ... عندما يتمحص الموقف : إيمان يقابله الكفر . وطغيان يقابله الصبر . وقوة أرضية تتحدى الله .. عندئذ أخذت القوة الكبرى تتدخل سافرة بين المتجبرين والصابرين .

﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾[1] . والسنين تطلق فى اللغة على سنى الجدب والشدة والقحط . وهى أرض مصر المعطية المثمرة المعطاءة ، تبدو ظاهرة تلفت النظر ، وتهز القلب ، وتثير القلق وتدعو إلى اليقظة والتفكير ، لولا أن الطاغوت الذى يستخفهم بفسقهم عن دين الله . فيطيعونه ، لا يريدون أن يتدبروا ولا أن يتفكروا ، ولا يريدون أن يروا يد الله فى جدب الأرض ونقص الثمرات . ولا يريدون أن يتذكروا سنن الله ووعيده ، ولا يريدون أن يعترفوا بأن هناك علاقة وثيقة بين القيم الإيمانية وواقعيات الحياة العملية .. لأن هذه العلاقة من عالم الغيب ، وهم أغلظ حسا وأجهل قلبا من أن يروا وراء الواقع المحسوس الذى تراه البهائم وتحسه ولا ترى غيره ولا تحسبه شيئا ، وإذا رأوا شيئا من عالم الغيب كالزلازل والبراكين والأعاصير والعواصف والسيول والأمراض والأوبئة كما يحدث فى كل زمان ، وكما هو حادث فى زماننا . لم يفطنوا إلى سنة الله الجارية ، وفق المشيئة الطليقة ، وإنّما نسبوه إلى المصادفات العابرة ، التى لا علاقة لها بنواميس الوجود الدائرة .. كما هو واقع البشرية فى غالب الأرض الآن .

وكذلك لم ينتبه آل فرعون إلى العلاقة بين كفرهم وفسقهم عن دين الله ، وبغيهم وظلمهم لعباد الله ، وبين أخذهم بالجدب ونقص الثمرات .. فى مصر التى تفيض بالخصب والعطاء ، ولا تنقص غلتها عن إعالة إلا لفسوق أهلها وأخذهم بالابتلاء لعلهم يتذكرون .

---

(1) الأعراف : ١٣٠ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٢٣٩ .

لم ينتبهوا لهذه الظاهرة – كما هو واقع البشرية فى غالبية الأرض اليوم – التى شاءت رحمة الله بعباده أن تُبرزَها لأعينهم . ولكنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة والرخاء حسبوها حقا طبيعيا لهم ، وإذا أصابتهم السيئة والجدب نسبوا هذا إلى موسى ومن معه : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾[1] ، .. لقد فسروها تفسيرات منفصلة منعزلة ، لا صلة بينها ولا قاعدة ولا ترابط ، وتهيم مع الخرافة فى دروب ملتوية متفرقة لا تلتقى ولا تجتمع وفق نظام ، وذلك كالذى قاله خروشوف صاحب الاشتراكية « العلمية » عن معاكسة الطبيعة لهم فى تعْليل نقص الثمرات والغلات ، أو كما تفعل بعض الدول الآن بإعزائه إلى كثرة النسل ، وكما يقول الذين يمضون مع هذه العلمية المدعاة فى تعْليل هذه الأحداث وهم ينكرون قدر الله ... وفيهم من يدعى بعد استنكار غيب الله وقدر الله أنه مسلم وهو ينكر أصول الإيمان بالله ..

وهكذا مضى فرعون وآله يعللون الأحداث : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[2] .

إن ما يقع لهم مصدره كله واحد ، إنه من أمر الله ، ومن هذا المصدر تصبهم الحسنة للابتلاء ، وتصبهم السيئة للابتلاء ، ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾[1] ، ويمضى آل فرعون – كما يفعل الطاغوت فى العصر الحاضر فى كثير من بقاع الأرض ، فى عتوهم تأخذهم العزة بالإثم ، ويزيدهم الابتلاء شماتة وعنادا .

﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾[3]

وعندئذ تتدخل القوى الكبرى سافرة بوسائلها الجبارة :

---

(١) الأعراف : ١٣١ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٢٣٩

(٢) الأنبياء : ٣٥ .

(٣) الأعراف : ١٣٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٢٤٠ .

﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع والدم آيات مفصلات[1] ﴾ واضحة الدلالات ، تتبع الواحدة منها الأخرى ، وتصدق اللاحقة منها السابقة .

وهم فى كل مرة يطلبون إلى موسى تحت ضغط البلية أن يدعو ربه لينقذهم منها ، ويعدونه أن يرسلوا معه بنى إسرائيل إذا أنجاهم منها ، وإذا رفع عنهم هذا الرجز ، أى العذاب الذى لا قبل لهم بدفعه .

﴿ ولمّا وقع عليهم الرجز قالوا : يا موسى ادع لنا ربك ، بما عهد عندك – لئن كشفت عنَّا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل ﴾[2] .

وفى كل مرة ينقضون عهدهم : ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾[3] .

وهنا يجدر التنبيه على المهتمين بالدراسات التاريخية مستخدمين المنهج الإسلامى ، أنه ليس لنا وراء النص القرآنى شيء يفسر لنا كيف وقعت هذه الآيات ، ولم نجد – على قدر علمنا – فى الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله ﷺ عنها شيء ، ولذلك فمن الواجب عليهم أن يقفوا عند حدود النص القرآنى وذلك تحرزا من شيء آخر وهو الإسرائيليات والأقوال والدراسات التى لا أصل لها والتى تسربت مع الأسف إلى بعض التفاسير .

ثم تجيىء الخاتمة وفق سنة الله فى أخذ المكذبين بعد الابتلاء بالضراء والسراء – وتقع الواقعة ويدعو الله على فرعون وملئه – بعد إذ أمهلهم وأجّلهم إلى أجل هم بالغوه ، ويحقق وعده للمستضعفين الصابرين ، بعد إهلاك الطغاة المتجبرين .

﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم ، بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها

---

(١) الأعراف : ١٣٣ ؛ المصدر السابق ، ص ٢٤٠ .

(٢) الأعراف : ١٣٤ .   (٣) الأعراف : ١٣٥ .

غافلين ، وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾[1] . وما كانوا يقيمون من عمائر قائمة على عمد وأركان وما كانوا يعرشون من كروم وثمارا إذ هـذا كله حطام ، فى ومضة عين .

فيربط بين التكذيب بالآيات والغفلة عنها ، وبين هذا المصير المقدور ، ويقرر أن الأحداث فى تاريخ البشرية لا تجرى مصادفة ولا تمضى فلتات عابرة كما يظن القائلون .

درس ضربه الله للقلة المؤمنة المطاردة من الشرك وأهله . ورؤيا فى الأفق لكل عصبة مسلمة تلقى من مثل فرعون وطاغوته ، ما لقيه الذين كانوا مستضعفون فى الأرض ، فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها ، المباركة ، بما صبروا . لينظر كيف يعملون .

نصوص قرآنية مكملة توضح ملامح الدولة الفرعونية الجاهلية فى مواجهة دعوة موسى عليه السلام :

﴿ أولم يسيروا فى الأرض ؟؟ ﴾ أى : أولم يعتبر هؤلاء المشركون فى أسفارهم بما يرون من آثار المكذبين ، ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ ، أى ينظروا ما حل بالمكذبين من العذاب والنكال ؟ فإن العاقل من اعتبر بغيره ﴿ كانوا هم أشد منهم قوة ﴾ ، أى كانوا أشد قوة من هؤلاء الكفار من قومك ﴿ وآثارا فى الأرض ﴾ ، أى : وأقوى آثارا فى الأرض من الحصون والقصور والجند الأشداء ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أهلكهم الله لما كذبوا الرسل ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ أى أهلكهم إهلاكا فظيعا بسبب إجرامهم وتكذيبهم رسل الله ﴿ وما كان لهم من واق ﴾ ، أى وما كان لهم أحد يدفع عنهم عذاب الله ، ولا يقيهم من عقابه ... ثم ذكر تعالى سبب عقابه لهم

---

(١) الأعراف : ١٣٦ - ١٣٧ ؛ تفسير القرآن ، جـ٢ ، ص ٢٤٢ .

(٢) غافر : ٢١ - ٢٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٧٦ .

فقال : ﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أى ذلك العذاب بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الباهرات ، والآيات الساطعات الواضحات ﴿ فكفروا فأخذهم الله ﴾ . ، أى فكفروا مع هذا البيان والبرهان فأهلكهم الله ودمرهم ﴿ إنه قوى شديد العقاب ﴾ ، أى أنه تعالى قوى لا يقهر ، ذو قوة عظيمة وبأس شديد . أى عقابه شديد لمن عصاه وعذابه أليم وجيع ، أعاذنا الله من عقابه ، وأجارنا من عذابه .

ولما ذكر تعالى ما حل بالكفار من العذاب والدمار ، أردفه بذكر قصة موسى مع فرعون تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من الأذى والتكذيب . وهى كذلك للدعاة على مدار تاريخ البشرية ، وبيانا لسنة الله تعالى فى إهلاك الظالمين :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون ﴾ ، أى إلى فرعون الطاغية الجبار ، ووزيره هامان وقارون صاحب الكنوز والأموال ، وخص قارون وهامان بالذكر لمكانتهما فى الكفر ، ولأنهما أشهر أتباع فرعون .

﴿ فقالوا : ساحر كذاب[1] . فلما جاءهم بالحق من عندنا ، قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾ ، أى اقتلوا الذكور لئلا يتناسلوا ، وهذا القتل غير الأول ، لأن فرعون بعد ولادة موسى أمسك عن قتل الأولاد ، فلما بعث موسى وعجز عن معارضته أعاد القتل فى الأولاد ليمتنع الناس من الإيمان ، ولئلا يكثر جمعهم فيكيدوه ، فأرسل الله عليهم أنواع العذاب كالضفادع والقمل والدم والطوفان ، إلى أن خرجوا من مصر فأغرقهم الله تعالى ، وجعل كيدهم فى نحورهم ﴿ وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ﴾[2] ، أى وما تدبيرهم ومكرهم إلا فى خسران وهلاك لأن الله لا يُنْجِحُ سعيهم .

﴿ وقال فرعون : ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ، إنّى أخاف أن يبدل

---

(١) غافر : ٢٣ – ٢٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٧٦ .

(٢) غافر : ٢٦ ؛ المصدر السابق ، ص ٧٦ ، ٧٧ .

دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ ، وهكذا كما قال الملأ : « صار فرعون واعظا » .

فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال عن موسى تلك المقالة ؟ أليست هى بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح ؟ أليست هى كلمة الباطل الكالح فى وجه الحق الجميل ، أليست هى بعينها كلمة الخداع الخبيث ، لإثارة الشبهات فى وجه الإيمان الهادى ؟ إنه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والصلاح والطغيان ، على توالى الزمان والمكان ، والقصة قديمة تعرض بين الحين والحين .

﴿ وقال موسى : إنِّى عذت بربى وربكم ﴾ أى إنى استجرت بالله واعتصمت به ليحفظنى ﴿ من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾[1] .

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربِّى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ ، أى بالمعجزات الظاهرة ، ﴿ وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ ﴾ ، وهنا تأخذ فرعون العزة بالإثم ويستبد به الجبروت والطغيان ﴿ قال فرعون : ما أريكم إلا ماأرى ﴾ ، أى ما أشير عليكم برأى سوى ما ذكرته من قتل موسى حسما لمادة الفتنة ، ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾[2] . ﴿ وقال الذى آمن : يا قوم إنِّى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ ، أى أخشى عليكم مثل أيام العذاب التى عذب بها المتحزبون على الأنبياء ﴿ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد[3] . ويا قوم إنِّى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين . ما لكم

(١) غافر : ٢٧ ؛ المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(٢) غافر : ٢٨ – ٢٩ ؛ المصدر السابق ، ص ٧٧ – ٧٨ ؛ وفى الحديث عن رسول الله ﷺ « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة .

(٣) درس من تاريخ الأمم السابقة ، من تاريخ أمة نوح ، وأمة هود ، وأمة صالح . وهذا يشير إلى أن الداعية لابد وأن يستخدم المادة التاريخية لخدمة قضية الدعوة إلى الله . فالتاريخ لابد وأن يكون فى خدمة العقيدة وهذا غير متحقق الآن .

من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾[١] .

﴿ وقال فرعون : يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل ، وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾[٢] .

﴿ وقال الذى آمن : يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد[٣] . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . تدعوننى لأكفر بالله ، وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم ﴾ ، أى فستذكرون كلامى عندما يحل بكم العذاب ، ﴿ وأفوض أمرى إلى الله ﴾ ، وهذا كما قال القرطبى دليل على أنهم هددوه وأرادوا قتله ، ﴿ إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾[٤] ، وهو الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة . ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ﴾ أى عذابهم فى القبور ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾[٥] .

---

(١) غافر : ٣٠ – ٣٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٧٩ .
(٢) غافر : ٣٦ – ٣٧ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٨٠ .
(٣) وفى الحديث « وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .
(٤) غافر : ٣٨ – ٤٥ .
(٥) غافر : ٤٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٧١ .

وللنص القرآنى توجيهات يجب أن يتأملها ويعيها أصحاب الدعوات :

* **أسلوب الدعوة إلى الله يستلزم أحيانا التخفى بالإيمان** : ﴿ يكتم إيمانه ﴾ .

* **استدراج المخاطب** ، وذلك أنه حينما رأى المؤمنُ ، فرعون قد عزم على قتل موسى أراد الانتصار له بطريق يخفى عليهم بها أنه متعصب له ، وأنه من أتباعه ، فجاءهم بطريق النصح والملاطفة فقال : ﴿ أتقتلون رجلا ﴾ ولم يذكر اسمه ، بل قال رجلا ليوهمهم أنه لا يعرفه ، ثم قال : ﴿ أن يقول ربى الله ﴾ ولم يقل : رجلا مؤمنا بالله أو هو نبى الله ، إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ولم يقبلوا قوله ثم أتبعه بقوله : ﴿ وإن يك كاذبا ﴾ فقدم الكذب على الصدق موافقة لرأيهم فيه ، ثم تلاه بقوله ﴿ وإن يك صادقا ﴾ ، ولم يقل : هو صادق ، وكذلك قال : ﴿ يصبكم بعض الذى يعدكم ﴾ ، ولم يقل : كل ما يعدكم ، ولو قال ذلك لعلموا أنه متعصب له ، وأنه يزعم نبوته ، وأنه يصدقه ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدق له وهو قوله : ﴿ إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب ﴾ . وفيه تعريض بفرعون ، إذ هو غاية فى الإسراف والكذب على الله ، إذ ادعى الألوهية والربوبية .

* **تكرار النصح مع التلطف** : ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ﴾ ، إظهار أنه منهم وأن الذى ينصحهم به هو مشارك لهم فيه ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ .

* **استعراض تاريخ الأولين عسى أن يتذكر المدعو ويعتبر** :

﴿ وقال الذى آمن : يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ ، أى أخشى عليكم مثل أيام العذاب التى عذب بها المتحزبون على الأنبياء ﴿ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود ﴾ ، وما أصابهم من العذاب والدمار بتكذيبهم رسلهم ﴿ والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد ﴾ .

* **الترهيب من عذاب الآخرة** :

﴿ ويا قوم إنِّى أخاف عليكم يوم التناد ﴾ ، يوم الحشر الأكبر ، حيث ينادى

المجرمون بالويل والثبور ﴿ يوم تولون مدبرين ، ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

* **استعمال الاسم الغائب بدلا من المخاطب فى الدعوة** ، لحسن محاورة المدعو ، واستجلاب قلبه لئلا يفاجأ بالخطاب ﴿ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ ، أى يجادلون فى شريعة الله بغير حجة وبرهان ﴿ كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا . كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ .

* **تكرار الدعوة والنصيحة مع بيان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة :**

﴿ وقال الذى آمن : يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنَّما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ متاعا زائلا لا ثبات له ولا دوام ، ﴿ وإنَّ الآخرة هى دار القرار ﴾ الاستقرار والخلود ، فإما خلود فى النعيم أو خلود فى الجحيم .

* **التذكير بالحساب والجزاء :**

﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ .

* **المواجهة الصريحة :**

﴿ ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة ﴾ الإيمان الموصل إلى النجاة ﴿ وتدعوننى إلى النار ﴾ أى الكفر الموصل إلى النار ، ﴿ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ﴾ وأن أعبد ما ليس لى علم بربوبيته ، وما ليس بإله ، كفرعون ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار لا جرم مما تدعوننى إليه ، ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنَّا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ﴾ . وهذا يدل على أنهم هددوه وأرادوا قتله ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾[1] ، وهو الغرق فى الدنيا ، والحرق فى

---

(١) غافر : ٤٥ ؛ وهو الغرق فى اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساء إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار ، تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٨٢ .

الآخرة ، ثم فسره بقوله : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾[1] .

*** استثارة مشاعر المدعوين عن طريق عرض ما يقع للأمم فى العالم الآخر بعد البعث والحساب :**

﴿ وإذ يتحاجون فى النار ﴾ أى يختصمون ﴿ فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنَّا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ﴾ ، أى يقول الأتباع الضعفاء للرؤساء المستكبرين عن الإيمان واتباع الرسل ، إنَّا كنا لكم أتباعا كالخدم فى الدنيا ننقاد لأوامركم ونطيعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال ، ﴿ فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ﴾ فهل أنتم دافعون عنا جزءا من هذا العذاب الذى نحن فيه . ﴿ قال الذين استكبروا : إنَّا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد ﴾[2] . إنّا جميعا فى نار جهنم ، فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا .

﴿ وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ، قالوا : أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ أى المعجزات الظاهرات فكفرتم بهم وكذبتموهم ؟ ﴿ قالوا : بلى ، قالوا : فادعوا ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾

نظرة الإسلام إلى حقيقة الروابط والوشائج ، التى تربط المؤمنين بعضهم ببعض « زوج فرعون تعتنق الإسلام ، وتبرأ من فرعون وعمله » :

﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين ﴾[3] .

واسمها آسية بنت مزاحم آمنت بموسى عليه السلام ، فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها ، فنجاها الله من شره .

وقد ورد أنها كانت آسيوية من بقايا المؤمنين بدين الإسلام ، والمهم أن

---

(١) غافر : ٤٦ – ٤٨ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٨٣ .
(٢) غافر : ٤٩ – ٥٠ ؛ المصدر السابق .
(٣) التحريم : ١١ .

هذه السيدة لم يصدها طوفان الكفر الذى تعيش فيه فى قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها ، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتا فى الجنة وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهى ألصق الناس به : ﴿ ونجنى من فرعون وعمله ﴾ وتبرأت من قوم فرعون وهى تعيش بينهم ﴿ ونجنى من القوم الظالمين ﴾ .

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثلا للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا فى أزهى صورة ... فقد كانت امرأة فرعون ، أعظم ملوك الأرض يومئذ ، فى قصر فرعون ، أمتع مكان تجد فيه امرأةٌ ما تشتهى ... ولكنها استعلت على هذا بالإيمان . ولم تعرض عن هذا العرض فحسب ، بل اعتبرته شرا ودنسا وبلاء تستعيذ بالله منه وتتفلت من عقابيله ، أو تطلب النجاة منه .

وهى امرأة واحدة فى مملكة عريضة قوية ... وهذا فضل آخر عظيم . فالمرأة – كما أسلفنا – أشد شعورا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته . ولكن هذه المرأة ... وحدها ... فى وسط ضغط المجتمع ، وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية ، والمقام الملوكى ...

هذه المرأة هى آسية بنت مزاحم رضى الله عنها ، عذّبها فرعون فشد يديها ورجليها بالأوتاد وهى صامدة ، فرأت بيتها فى الجنة ، فضحكت حين رأته ، فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها !!! إنّا نعذبها وهى تضحك ، فقبض الله روحها فى الجنة ، رضى الله عنها[1] .

وهى نموذج عال فى التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأوامر ، وكل هذه المعوقات وكل هذه الهواتف ، ومن ثم استحقت هذه الإشارة فى كتاب الله الخالد ، الذى تتردد كلماته فى جنبات الكون ، وهى تتنزل من الملأ الأعلى .

وهكذا كانت العقيدة هى التى دفعت امرأة فرعون المسلمة أن تقطع ما بينها وبين زوجها فرعون ، الذى ادعى الألوهية والربوبية .

---

(١) « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، امرأة فرعون » حديث صحيح رواه أحمد فى مسنده والطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك .

دروس وعبر ومعالم ترسيها سيرة موسى عليه السلام على طريق الأمة المسلمة :

لاحظنا أن سيرة الرسول الكريم موسى عليه السلام تشكل جزءا من تاريخ الأمة المسلمة التى عاشت فى مصر ، وانتقل جزء منها إلى بلاد الشام فى منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد – أى منذ ثلاثة آلاف وثلاثمائة عام تقريبا .

ولولا أهمية هذا الجزء من التاريخ الإسلامى ما قصه الله سبحانه وتعالى علينا ، وجعله قرآنا يتلى إلى يوم القيامة ، يربى به الله الأمة المسلمة وينشئها عليه ، ويرسم لها المنهاج ، ويرسم لها الطريق .

* فالمسلم الذى يتتلمذ على هذه السيرة يستشعر أن الإنسان ما خلق عبثا ، لكى يأكل ويشرب ، ويتزاوج ويتناسل فقط ، ولكن قد خلق لغاية كريمة وهى العبادة : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ . والعبادة بمفهومها الشامل لا تقف عند الشهادتين من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ، ولكن تمتد لتشمل جنبات الحياة كلها : ﴿ قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ .

* ويستشعر أيضا أن الله ما خلق الناس طبقات فى الثراء والمكانة ليستعبد بعضهم بعضا ، وليظلم بعضهم بعضا ، ولكن ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، وأنه سبحانه وتعالى لم يطلق يد الظلمة فى أقدار الخلق ، ولكن يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ويملى لهم أن كيده متين .

* إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى دعا إليه الرسل والأنبياء جميعا ، وهو الرسالة الأولى والرسالة الخاتمة ، ولا يقبل الله سبحانه وتعالى من الأولين والآخرين غيره .

كما أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف نبيا من الأنبياء بالدعوة إلى دين اسمه اليهودية أو دين اسمه المسيحية . فاليهودية والمسيحية كفر بالله تعالى وشرك به . وإنما كل رسول حمل أمانة الدعوة إلى دين الله الذى ارتضاه لأهل الأرض والسماء وهو الإسلام .

* إن شعب مصر قد تعهده الله بالرسل[1] كما تعهد غيره من الشعوب يدعونه إلى دين الله وهو الإسلام ، وهذا يدحض مزاعم من يسمون علماء بالتاريخ القديم ، الذين يزعمون أن شعب مصر قد تطور فى معتقده من الطوطمية إلى الوثنية إلى التثنية إلى التوحيد ، وأنه قد وصل إلى التوحيد من تلقاء نفسه – أى أن الدين من اختراع العقل البشرى – وذلك يعنى أن الله سبحانه وتعالى كان يتعهد البشرية بالرسل ، كلما خبا نور التوحيد ، وأصبح الكفر دينا ، يعتنقه طواغيت وجبابرة يبطشون بالحق وأهله ، وهذا إمضاء لسنة من سنن الله الثابتة التى تجعل من الحق سمت أصيل فى هذا الكون ، لاينقطع نوره عن الإشعاع أبدا حتى يأتى وعد الله .

* إن الصراع بين الحق والباطل صراع يرجع إلى زمن بعيد ، وهذا الصراع مستمر إلى أن يشاء الله ، وسبب هذا الصراع دعوة أهل الحق الذين استسلموا لله عز وجل بالكلية ، لأهل الباطل أن يكونوا مسلمين عبيدا لله الواحد القهار ، كما شاهدنا من خلال عرض سيرة موسى عليه السلام ، فجريمة موسى فى تصور أهل الباطل ، أنه يدعو الناس إلى الإيمان بالله الواحد القهار ، والكفر بالطاغوت ، وإقامة شريعة الله ونظامه فى حياتهم .

وهى نفس التهمة التى توجه إلى الدعاة فى كل زمان .

* توجيه المسلمين فى كل زمان ومكان أن لايكونوا عونا للكافرين ، كما يتضح ذلك من قوله تعالى :

﴿ قال : رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾ .

يقول القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن : جـ ١٣ ، ص ٢٦٢ : قوله تعالى : ﴿ قال : رب بما أنعمت على ﴾ أى من المعرفة والحكمة والتوحيد ﴿ فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾ ، أى عونا للكافرين ، وأورد أيضا : – وقيل : أراد

---

(١) كما يعنى ذلك أيضا أن الإسلام أصيل فى مصر أصالة هذا الشعب ، وأن الوثنية والعقائد الفاسدة دخيلة على وادى النيل وطارئة عليه ، وأن صحابة رسول الله بعد بعثة محمد ﷺ قد أعادوا مصر إلى أصالتها الإسلامية التى فطرت عليها .

إنى وإن أسأت فى هذا القتل الذى لم أؤمر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين – . فعلى هذا كان الإسرائيلى مؤمنا ونصرة المؤمن واجبة فى كل الشرائع .

وأورد أيضا : قال عطاء : فلا يحل لأحد أن يعين ظالما ولا يكتب له ولا يصحبه ، وأنه إن فعل شيئا من ذلك فقد صار معينا للظالمين . وفى الحديث : ينادى مناد يوم القيامة ، أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما ، فيجمعون فى تابوت من حديد ، فيرمى به فى جهنم . ويروى عن النبى ﷺ أنه قال : « من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة ، يوم تزل فيه الأقدام ، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزل الله قدميه على الصراط يوم تدحض فيه الأقدام » ، وفى الحديث : « من مشى مع ظالم فقد أجرم » ، فالمشى مع الظالم لا يكون جرما إلا إذا مشى معه ليعينه لأنه ارتكب ما نهى الله تعالى فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ . (ص ٢٦٢ – ٢٦٤) .

* لابد وأن يوقن الدعاة إلى الإسلام فى كل زمان أن قدرة الله لا حد لها ، وهى تملى للظالم حتى إذا أخذته لم تفلته ، فالله سبحانه وتعالى يدبر ، وليس كتدبيره تدبير ، ﴿ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾ ففى اللحظة التى يتصور الشر أنه قد تمكن من رقبة الخير ، وأنه فى الطريق للإجهاز عليه ، ليقضى بذلك على دعوة الإسلام ، وأنه قد اتخذ من التدابير والحيطة ما يكفل له تنفيذ مخططه الشرير ، حينذاك تتدخل يد الله – سبحانه وتعالى – لحسم الأمر لصالح جند الحق .

ونموذج لذلك نراه فى سيرة موسى عليه السلام ، فها هو فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر ، وفى مواجهته موسى طفلا رضيعا ، لا حول له ولا قوة ، ولا ملجأ له ولا وقاية ، وقد علا فرعون فى الأرض ، واتخذ أهلها شيعا . واستضعف بنى إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم ، وهو على حذر منهم ، وهو قابض على أعناقهم ، ولكن قوة فرعون وجبروته ، وحذره ويقظته ، لا تغنى عنه شيئا ، بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير المجرد من كل قوة وحيلة ، وهو فى حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ، ترعاه عين العناية وتدفع عنه السوء ، وتعمى عنه العيون ، وتتحدى به فرعون وجنده تحديا سافرا ، فتدفع به إلى

حجره ، وتدخل به عليه عرينه بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه ، مكفوف الأذى عنه ، يصَنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه .

وهكذا يدل هذا الجزء من السيرة النبوية العطرة فى تاريخ البشرية ، على أنه حين يتمخض الشر ويسفر الفساد ، ويقف الخير عاجزا والصلاح حسيرا ، ويخشى من الفتنة ، عندئذ تدخل القدرة سافرة متحدية ، بلا ستار من الخلق ، الخلق ، ولا سبب من قوى الأرض لتضع حدا للشر والفساد .

* إن التمسك بدين الله عز وجل - وهو الإسلام - فى مواجهة الجاهلية الطاغية المتجبرة ، يعرض الصف المسلم للابتلاء حتى يكتمل بناء القاعدة المسلمة الصلبة التى ينهار أمامها سلطان الطاغوت ليقوم حكم الله تعالى .

* إن الطاغوت لا يهمه بالدرجة الأولى إلا الاحتفاظ بعرشه وسلطانه ، مهما كان الثمن ولذلك فإنه يبطش ويقتل وينكل بالمسلمين وأبنائهم وبناتهم وأزواجهم ، ظنا منه أنه بذلك يقضى على العصبة المسلمة فى الأرض ، ويطيل فى عمر ملكه وسلطانه ، وهذا وهم يؤدى بصاحبه إلى الدمار كما حدث لفرعون وجنوده .

وكون أن الطغيان عمره يطول ، فلا يعنى ذلك أن الله تعالى قد تركه يرتع ويفعل ما يشاء دون عقاب ، ولكنه هو من باب الإملاء والاستدراج : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ .

ولذلك إذا لاحظ المسلم أن ليل الظالمين قد طال ، فلا يحسبن أن الله مخلف وعده رسله ، إن الله عزيز ذو انتقام

كما أن الصف المسلم يجب أن يحرص على عدم استثارة الطاغوت ، بما يعطيه التبرير للجرائم التى قد يرتكبها ضد الصف المسلم وإذا تعرض لضربات من قبل الطاغوت ، فليثبت وليصبر وليحتسب حتى يتم البناء .

* إن المتكبرين والمجرمين هم دواما أعوان الطاغوت : ﴿ فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ والكبر يصرف القلب عن الإيمان بالله عز وجل ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ﴾

وكذلك الفسقة : ﴿ إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾

وكذلك الظالمين : ﴿ أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون ﴾ .

وذلك يعنى أن المتكبرين والمجرمين والفسقة والظالمين هم دائما أعداء الرسل والدعاة وأعداء دين الله على مدار تاريخ البشرية هؤلاء ... هم دائما شركاء الفراعنة فى باطلهم ، وأصحاب المصلحة فى بقاء الأوضاع الجاهلية التى تجعلهم حاشية ، ذات نفوذ وسلطان ، وقد خافوا أن يغلبهم موسى وبنو إسرائيل على أرضهم لو اتبعتهم الجماهير وأسلموا ، حين ترى معجزة موسى ، وتستمع إلى ما يقول ، لذلك فقد أشاروا على فرعون أن يلقى سحره بسحر مثله :

﴿ وجمع السحرة ، وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ﴾ ، ليشهدوا المباراة ، وقد بثوا فيهم الحماسة للسحرة ، ومن خلفهم من أصحاب السلطان ، وتهيأ أرض المباراة بين الحق والباطل ، أو بين الإيمان والطغيان ... والجماهير تتجمع لمثل هذه الأمور ، دون أن تفطن إلى أن حكامها يلهون بها ويعبثون ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات ليلهوها عما تعانى من ظلم وكبت وبؤس ، ... وهى صورة مكرورة ... من الجاهلية فى كل زمان .

ثم يجىء مشهد السحرة بحضرة الفرعون قبل المباراة ، يطمئنون على الأجر والمكافأة إن كانوا هم الغالبين . ويتلقون من فرعون الوعد بالأجر الجزيل ، والقربى من عرشه الكريم .

وهكذا ينكشف الموقف فجأة عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية ، تبذل مهاراتها فى مقابل الأجر الذى تنتظره ، ولا علاقة لها بعقيدة ، ولا صلة لها بقضية ، ولا شىء سوى الأجر والمصلحة . وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة فى كل مكان وفى كل زمان وغالبهم من المنافقين أو الكفرة والملحدين .

*** تشويه صورة الرسل والدعاة إلى الإسلام فى كل زمان ، سمت مكرور فى كل جاهلية قديمة ومعاصرة :**

فها هو فرعون الطاغية يتهم موسى بالجنون ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾[1] .

ويتهمه أيضا بالسحر : ﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ﴾[2] . يعنى انقلاب سحرى يستهدف السلطة بدلا من الفرعون وهذا ما رددته أيضا أجهزة إعلام الطاغية : ﴿ إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾[3] .

هذه الأجهزة التى سخرت قواها لخدمة الطاغية ، تشيع فى كل مكان : ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون ﴾[4] . وهكذا تحول موسى ومن معه من المسلمين إلى شرذمة متآمرة تريد أن تقلب نظام الحكم ، وباتوا مطاردين فى كل مكان لأنهم يقولون « لا إله إلا الله موسى رسول الله » .

هذا الموقف موقف مكرر فى تاريخ الجاهلية وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلّا قالوا ساحر أو مجنون ، أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾[5] .

فها هم قوم نوح يتهمونه بالكذب : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾[6] . وها هم قوم هود يتهمون هودا بالسفاهة والكذب : ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنَّا لنراك فى سفاهة ، وإنَّا لنظنك من الكاذبين ﴾[7] . ﴿ ما هذا إلّا بشرٌ مثلكم ، يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنَّكم إذاً لخاسرون . أيعدكم أنكم إذَا متم وكنتم ترابا وعظاما أنَّكم مخرجون هيهات هيهات لِما توعدون ﴾[8] .

وهو نفس موقف الجاهلية من دعوة صالح عليه السلام : ﴿ إنَّما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشرٌ مثلنا ﴾[9] . ﴿ قالوا : اطَّيرنا بك وبمن معك ﴾[10].

---

(١) الشعراء : ٢٧ . (٢) طه : ٥٧ . (٣) طه : ٦٣ . (٤) الشعراء : ٥٤ – ٥٦
(٥) الذاريات : ٥٢ – ٥٣ . (٦) الشعراء : ١٠٥ .
(٧) الأعراف : ٦٦ . (٨) المؤمنون : ٣٣ – ٣٦ .
(٩) الشعراء : ١٥٣ – ١٥٤ . (١٠) النمل : ٤٧ .

﴿ أألقى الذكر عليه من بيننا ، بل هو كذاب أشر ﴾[1] .

وهو نفس موقفها من دعوة شعيب : ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين – ما أنت إلّا بشرٌ مثلنا – لئن اتبعتم شعيبا إنَّكم إذًا لخاسرون – يا شعيب ما نفقه كثيرًا مما تقول ﴾ .

وهو موقف الجاهلية من دعوة الله فى هذه الأيام ..

*** تهديد الرسل والدعاة بالسجن والقتل والإخراج والإيذاء إذَا هم لم يعبدوا الطاغوت ، ويتخلوا عن دعوتهم ، سمت الجاهلية على مدار الأزمان .**

فقد شاهدنا فرعون يهدد موسى : ﴿ لئن اتخذت إلَهًا غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾ ويهدد الصف المؤمن الذين أسلموا مع موسى لله رب العالمين : ﴿ إنَّ هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾ (يعنى بلغة العصر : قلب نظام الحكم) ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ ...

وهو نفس الموقف الذى وقفته الجاهلية من نوح عليه السلام : ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ ..

وهو نفس موقفها من صالح عليه السلام : ﴿ وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا : تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه : ما شهدنا مهلك أهله وإنَّا لصادقون ﴾ .

وهو نفس موقف الطاغوت من شعيب عليه السلام : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن فى ملتنا ﴾ ..

وهو موقف قريش من دعوة محمد ﷺ : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

ولقد وعى رسولنا محمد ﷺ هذا التوجيه الربانى من خلال عرض سيرة

---

(١) القمر : ٢٥ .

هذا النبى المسلم موسى عليه السلام فى الوقت الذى اشتد فيه النكير على العصبة المسلمة فى مكة ، فها هم الملأ من قريش يقتلون سمية زوج ياسر ، ويعذبون عمار وياسرا وبلال ...

فيروى عبدالله خباب بن الأرت رضى الله عنه ، قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ، فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » . البخارى .

وهو نفس توجيه الصبى لأمه حينما أمرت أن تقتحم النار فى واقعة أصحاب الأخدود . فقال لها الغلام : « يا أمّه اصبرى فإنك على الحق » . رواه مسلم .

ومن هنا يظهر لنا أهمية ربط تاريخ أصحاب الدعوات بعضه ببعض ، للخلوص إلى مواطن العظة والعبرة ، ولكى يدرك أصحاب الدعوات فى عصرنا الحاضر وفى المستقبل أنهم يسلكون طريق أصحاب الدعوات ..

* إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يدير المعركة بين حزب الله وحزب الشيطان ، يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، فقد أملى سبحانه وتعالى لفرعون وجنده والملأ من قومه حتى ظنوا أنهم قادرون على كل شىء ، بما فى ذلك استئصال شأفة الحق وجنده ، وظلمهم لأنفسهم ولغيرهم ، وحينذاك شاءت إرادة السميع العليم أن يحسم الأمر لمصلحة جند الحق ، فأغرقت فرعون وجنده والملأ من قومه : ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾[(1)] .

﴿ النارُ يعرضون عليها غُدُوًّا وعشيا ، ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب ﴾[(2)] .

---

(١) الفجر : ١٣ . (٢) غافر : ٤٦ .

﴿ وفى موسى إذْ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين . فتولى بركنه وقال : ساحر أو مجنون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم ﴾[1] .

﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾[2] .

﴿ فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا ﴾[3] .

﴿ فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال : أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إنّ فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾[4]

قد يكون للجاهلية بريق ، وقد يأخذ بأبصار المشاهدين ، ولكن ذلك لا يمكن أن يستمر طويلا ، فسرعان ما يتضح زيفه ، ويتهاوى تحت ضربات الحق وجنده :

﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس ، واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم ﴾[5] .

﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾[6] . فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى : ﴿ لا تخف إنَّك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ، إنَّما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾[7]

﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾[8] .

---

(١) الذاريات : ٣٨ – ٤٠ .
(٢) القمر : ٤١ – ٤٢ .
(٣) المزمل : ١٦ .
(٤) النازعات : ٢١ – ٢٦ .
(٥) الأعراف : ١١٦ .
(٦) طه : ٦٦ – ٦٧ .
(٧) طه : ٦٨ – ٦٩ .
(٨) الأعراف : ١١٨ .

* درس يجب أن يتملاه الدعاة المسلمون فى كل زمان ، وهم يستشعرون المطاردة من الجاهلية التى لا تطيق أن يرتفع صوت بـ – لا إله إلا الله – هذا الدرس نلمحه فى حركة موسى وهو رسول الله الذى صنع على عينه سبحانه وتعالى ، يخرج من مصر فرارا من الطاغية ، وهو « خائف يترقب » .

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال : يا موسى ، إن الملأ يأتمرون بكَ ليقتلوك فاخرج إنِّى لك من الناصحين . فخرج منها خائفا يترقب ﴾[1] .

ونلمحه أيضا فى توجيه أحد الفتية الذين آمنوا بربهم ، وهربوا من الطغيان ، واعتزلوا الجاهلية : ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه ، وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . إنهم إنْ يَظْهروا عليكم يرجموكم ، أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذًا أبدا ﴾[2] .

ونلمحه أيضا فى الأمر الربانى : ﴿ يأيها الذين آمنوا خُذوا حِذْرَكُم ﴾[3] . ونلمحه فى سلوك على بن أبى طالب ، وهو يواعد أبا ذر الغفارى لرؤية رسول الله ﷺ : يا هذا سآتى لك من الغد ، فإذا رأيتنى أميل على نعلى لأصلحه فاعلم أن هناك من يتبعنى فانصرف .

ونلمحه أيضا فى دخول موسى عليه السلام إلى مصر على حين غفلة من أهلها كما يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾[4] .

يقول القرطبى : (لما عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحق فى دينه عاب ما عليه قوم فرعون ، وفشا ذلك منه ، فأخافوه فخافهم ، فكان لا يدخل المدينة إلا خائفا مستخفيا . وكان موسى قد أظهر خلاف فرعون ، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام) « القرطبى جـ ١٣ ، ص ٢٦٠ » .

ونلمحه أيضا فى رواية عبادة بن الصامت عند توجهه وإخوانه إلى بيعة

---

(١) القصص : ٢٠ – ٢١ .
(٢) الكهف : ١٩ – ٢٠ .
(٣) النساء : ٧١ .
(٤) القصص : ١٥ .

العقبة : « تسللنا لمقابلة رسول الله ﷺ تسلل القطا » .

ويمكن أن نلمحه أيضا فى هجرة رسول الله محمد ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة .

* إن النتائج لا يسبقها بالضرورة أسباب معينة ، كما أن الأسباب ليس من الضرورة أن تتبعها نتائج معينة . لأن الذى ينشىء النتائج والأسباب هو الله ... نلمح ذلك فى الإيحاء القرآنى التالى :

حينما أُوفِدَ موسى إلى فرعون أعتى ملوك الأرض فى زمانه ، كان مجردا من كل مظاهر القوة المادية ، ولكنه – أى موسى – كان يملك كل مقومات القوة الإيمانية التى متعه الله بها .

ذهب موسى ليدعو فرعون المحاط بجيوشه ورجال شرطته إلى الإسلام ، وذلك بالقول اللين ﴿ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾[1] .

وفعل موسى ما أمر به ، وبلغ عن ربه الدعوة إلى الدخول فى الاسلام كافة ، وكان يربى ، وينمِّى الإيمانَ فى قلوب الناس بعد أن آمن به من آمن ، وكفر به من كفر ، وقد بذل ما فى طوقه وأعد ما فى وسعه ، بالطبع ما فى طوقه لا يصل إلى مستوى إعداد فرعون المادى . لم يكن له ملأ كملأ فرعون ، ولم يكن له جيش كجيش فرعون ، ولم يكن له أجهزة إعلام كأجهزة إعلام الفرعون ... أى بمعايير القوة المادية ، لا يمكن لموسى أن يتغلب على فرعون بقوته المادية ، وجاءت اللحظة التى حسم الله فيها المعركة لصالح العصبة المسلمة ، فأهلك فرعون الطاغية المتجبر ، واستخلف العصبة المسلمة المؤمنة بقيادة موسى عليه السلام .

والدرس المستفاد هنا : أن الصف المسلم مطالب ببناء أساس الإيمان فى نفوس أفراده ، وبذل الأسباب التى فى طوقه ، وإن لم يتيسر له إلا القليل فى مواجهة قوة الجاهلية ، وحينذاك يتنزل نصر الله على المؤمنين .

---

(١) طه : ٤٤ .

معلم بارز فى سيرة موسى عليه السلام :

لقد كان موسى عليه السلام نبيا مسلما وإلى الإسلام دعا :

﴿ وقال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾(1) .

وكذلك أتباع موسى كانوا مسلمين موحدين : ﴿ قالوا : إنَّا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾(2) .

* حينما أعلن فرعون رغبته فى قتل موسى عليه السلام :

﴿ وقال فرعون : ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، إنِّى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾(3) . وهكذا كما يقول المثل – صار فرعون واعظا – .

فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال عن موسى تلك المقالة ؟؟ أليست هى بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح ؟ أليست هى كلمة الباطل الكالح فى وجه الحق الجميل ؟ أليست هى بعينها كلمة الخداع الخبيث ، لإثارة الشبهات فى وجه الإيمان الهادى ، إنه منطق واحد يتكرر كلما

---

* « انتسب رجلان على عهد موسى فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعة فمن أنت لا أمّ لك قال : أنا فلان بن فلان بن الإسلام فأوحى الله إلى موسى أن قل لهذين المنتسبين أمّا أنت أيها المنتسب إلى تسعة فى النار فأنت عاشرهم فى النار ، وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين فى الجنة فأنت ثالثهما فى الجنة » الجامع الصغير ، حديث ١٥٠٤/٦٦١/٢ .

(1) يونس : ٨٩ . تفسير القرآن العظيم ؛ جـ٢ ، ص ٤٢٨ .

(2) الأعراف : ١٢٥ – ١٢٦ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٢٣٨ .

وفى هذا رد على مؤلفى ما تسمى التوراة اليهودية الذين زعموا أن موسى كان يهوديا ، وفى هذا رد على الذين يحملون أعلى الدرجات العلمية ويتصدرون المناصب الحساسة فى الجامعة ودور العلم ، ويزعمون أن موسى كان يهوديا وإليها دعا .

(3) غافر : ٢٦ .

التقى الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والصلاح والطغيان ، على توالى الزمان والمكان :

﴿ وقال موسى : إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾[1] .

وهنا نلمح موقف مؤمن آل فرعون ، وهو جدير بالدراسة المتأنية الواعية :

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإنْ يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يكُ صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾[2] .

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما هم فرعون - لعنه الله - بقتل موسى عليه السلام ، وعزم على ذلك ، وشاور ملأه فيه ، خاف هذا المؤمن على موسى فتلطف فى رد الفرعون بكلام جمع فيه بين الترغيب والترهيب ، فقال على وجه المشورة والرأى ، وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

وهذا الكلام فى هذا المقام من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام :

﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ﴾[3] . وفى هذا يقول ابن كثير ، جـ ١ ص ٢٦٠ : (يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فإنه ما تعترض الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم ، وكذا وقع لآل فرعون) :

---

(١) غافر : ٢٧ .
(٢) غافر : ٢٨ .
(٣) غافر : ٢٩ .

﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى – من قتل موسى حسما لمادة الفتنة – وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾(١) .

ومن هذا الموقف يمكن للعصبة المسلمة أن تتعلم الشيء الكثير ، ومن ذلك :

إن انخراط بعض أفرادها داخل جسد المجتمع الجاهلى ضرورى لأسباب كثيرة منها التعرف على كيد مخطط الجاهلية للنيل من الصف المسلم ، ولتحذير الصف المسلم من ذلك المخطط ، ومنها : النجاح فى بعض الأحيان فى صرف الجاهلية عن النيل من الصف المسلم وكذلك التعرف على نقاط الضعف فى الجاهلية لتقويمها ومعالجتها حتى تستقيم على أمر الله ، ومنها : تدريب الصف المسلم على تسيير أمور الدولة الإسلامية .



---

(١) غافر : ٢٩

الفصـــل الرابــع

الجــزء الأول

الأمة المسلمة فى وادى النيل
بنــو إسرائيل يمكنون فى الأرض
بعد هلاك فرعون

إن القارىء لتاريخ البشرية ، يدرك أن هذا الكون يجرى كل شىء فيه طبقا لما قدره الله سبحانه وتعالى ، وأنه لا يوجد شىء فى الكون مفلوت لا سلطان لرب العالمين عليه ، بل كل شىء فى قبضة الله وداخل سلطانه . وفى تاريخ فرعون وهامان وجنودهما ، وتربصهم بالحق وأهله ، عظة وعبرة ، **ففيه تبدو سنة من سنن الله الكونية** الثابتة فى حياة الأمم والشعوب ، وهى استدراج الظالم ، سواء كان فردا أو أسرة أو أمة ، والمدّ له ، وفتح أبواب كل شىء عليه ، حتى إذا أخذه لم يفلته . وهذه سنة ليست للتطبيق على أمة دون أمة ، ولكنها تطبق على الظلم والظالمين فى أى زمان وأى مكان .

ففرعون علا فى الأرض ما شاء الله له أن يعلو ، وطغى وتجبر ، وادعى تحكمه فى رقاب البلاد والعباد ﴿ فحشر فنادى ، فقال : أنا ربكم الأعلى ﴾[1] ، ﴿ أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ﴾[2] . ووقف فى وجه الدعوة إلى الله عز وجل وأصحابها بكل الوسائل ، من تنكيل بالدعاة ، إلى تشهير بهم ، إلى محاولة إخراجهم من ديارهم وأموالهم ...

---

(١) النازعات : ٢٣ .

(٢) الزخرف : ٤٣ .

ولكن جاء الوقت الذى استأصل الله شأفة ذلك الظالم وأعوانه : لأن الله لا يغفل عن الظالمين : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون . إنَّما يؤخرهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصار ، مهطعين مقنعى رؤوسهم ، لا يرتد إليهم طَرْفُهم وأفئِدَتُهم هواء . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال ..... فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ، إن الله عزيز ذو انتقام ﴾(١) .

وكان العقاب : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم ، بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون(٢) .

أى أهلك ذلك جميعه ، وسلبهم عزهم العريض فى الدنيا وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده .

ومن سنن الله التى تبدو واضحة للعيان من دراسة تاريخ هذه الفترة ، هو التمكين للحق وأهله بعد فترة طويلة من الابتلاءات والتمحيص الشديد : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب ﴾(٣) .

يتضح ذلك من التمكين لبنى إسرائيل واستخلافهم بعد مصرع الفرعون الطاغية ، والتمكين هنا لبنى إسرائيل على عهد موسى – عليه السلام – وقع إمضاء لسنة ربانية : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى

---

(١) إبراهيم : ٤٢ – ٤٦ .
(٢) الأعراف : ١٣٦ – ١٣٧ .
(٣) البقرة : ٢١٤ .

الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾[1] .

وكان الله سبحانه وتعالى قد بشر بنى إسرائيل بالتمكين فى الأرض : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾[2] . وهى بشرى قائمة للمؤمنين المسلمين المستضعفين على مدار تاريخ البشرية ، بعد تمحيصهم وابتلائهم ..

وتحقق وعد الله : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل ، بما صبروا ﴾ ، ﴿ كذلك أورثناها بنى إسرائيل ﴾[2]

وهو وعد ربانى قائم للمسلمين الذين يستضعفون فى الأرض إذا ضحوا وصبروا وثبتو[3] .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين فما بكت عليهم السماء والأرض ، وما كانوا منظرين ﴾[4].

﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ﴾[5] .

يقول ابن كثير : « واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل كما قال تبارك وتعالى : ﴿ كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ﴾[6] . ولذلك نرى يد القدرة الربانية المحيطة ، تتدخل سافرة

---

(١) النور : ٥٥ (٢) القصص : ٥ .

(٣) أورد ابن كثير : أن أهل الكتاب يذكرون أن مدة إقامة يعقوب وأولاده بمصر كانت حوالى أربعمائة سنة وثلاثين سنة ، (البداية والنهاية ، جـ١ ، ص ٢٧٥) .

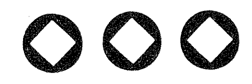
(٤) الدخان : ٢٥ — ٢٩ .

(٥) الشعراء : ٥٧ — ٥٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٣٥ .

(٦) تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ١٤١ .

للتمكين لهذه الفئة المسلمة (بنى إسرائيل) بعد ابتلائهم وتمحيصهم وصقلهم وإعادتهم إلى دينهم ، وبعد إهلاك الفرعون وجنوده وأتباعه الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، وقد تناولنا هذا الأمر تفصيلا فى سيرة موسى عليه السلام .

* * *



خـروج بنى إسـرائيل من وادى النيـل فـى طريقهم إلى بيت المـقدس علـــى عهد موسى ويوشع بن نون عليهما السلام

لقد كان من الواجب على بنى إسرائيل المسلمين أن يشكروا الله عز وجل ، وأن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا ، شكرا لهذا الإله العظيم ، الذى نجاهم من الطواغيت ، وأنعم عليهم بنعمة الإسلام ، ومكن لهم فى الأرض ..

ولكن ما حدث كان عجيبا ، إذ إن بنى إسرائيل المفضلين على العالمين ، الذين مكّن لهم فى الأرض ، بعد إهلاك طواغيت مصر ، يعبرون البحر مع موسى عليه السلام فى طريقهم إلى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، والتى كانت مقاما لجدهم إبراهيم وآبائهم يعقوب وإسحاق لزمن طويل يقعون فى سلسلة من الانحرافات التى أدت بهم فى النهاية إلى نزع الخيرية عنهم ، من هذه الانحرافات :

(أ) طلبهم من موسى عليه السلام صنما يتعبدون له كما يفعل الوثنيون :

﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا : يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون ﴾[1] .

أى أن موسى بين لهم أنهم لا يعقلون ، ولا يهتدون ﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون ﴾ . ثم ذكرهم نعمة الله عليهم فى تفضيله

---

(١) الأعراف : ١٣٨ – ١٣٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ص ٢٤٣ ؛ وقد جاء فى الحديث عن أبى واقد الليثى أنهم خرجوا مع رسول الله من مكة إلى حنين . قال ، وكان للكفار سدرة يعكفون عندها =

إياهم على عالمى زمانهم بالعلم والشرع والرسول الذى بين أظهرهم ، وما أحسن به إليهم ، وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد ، وإهلاكه إياه ، وهم ينظرون . وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعون من الأموال والسعادة وما كانوا يعرشون . وبيَّن موسى لبنى إسرائيل أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له لأنّه الخالق الرازق القهار .

وهنا نتساءل : هل كل بنى إسرائيل سألوا هذا السؤال ؟ ..

الإجابة بالنفى ، إذ ليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال . لأن الضمير عائد إلى الجنس[1] فى قوله : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا : يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ : **أى قال بعضهم** .

وهذا دليل على أن الانحراف كان محدودا ، ولم يمتد إلى كل الصف المسلم .

(ب) عبادتهم العجل فى غيبة موسى عليه السلام :

ولكن الانحراف قد ازداد ، فها هم بنو إسرائيل يضربون بنصيحة موسى عرض الحائط ، وينتهزون فرصة غيابه فى الطور ، يناجى ربه – عز وجل – ويتلقى أوامره وتشريعاته ، ويعبدون عجلا صنعه لهم السامرى من الذهب .

والعجيب أنهم عبدوا العجل وهم يعلمون أنه عاجز لا يستطيع أن يكلمهم ، أو يهديهم إلى أى شىء ، وبهذا أشركوا وظلموا أنفسهم .

= ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، قال فمررنا بسدرة خضراء عظمى قال فقلنا يارسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال : « قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم من بنى إسرائيل : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون .

(١) البداية والنهاية ، جـ١ ، ص ٢٧٦ – ٢٧٧ .

« ليس الخبر كالمعاينة ، إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت » حديث صحيح ٥٢٥٠ صحيح الجامع الصغير .

وحينما رجع موسى - عليه السلام - غضب غضبا شديدا ، آسفا على ما وقع من بنى إسرائيل ، ولام أخاه هارون على موقفه . ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل هارون ، وقد حاول القوم قتله حينما نهاهم عن عبادة العجل .

لقد نسى القوم ، أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ونسوا أن الذين يشركون سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا .

ولكن رغم ذلك فإن الله قد فتح التوبة لعباده ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾[١] . ولكن الله لم يقبل توبة عابدى العجل من بنى إسرائيل إلا بعد القتل كما بيّن تعالى :

﴿ وإذ قال موسى لقومه : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾[٢] .

وكان ذلك قبل دخول الأرض المقدسة (بيت المقدس) . ولعل السبب فى تلك العقوبة هو أنهم قد ارتدوا عن الإسلام ، وحدّ الردة فى الإسلام القتل .

* * *

(ج) طلب رؤية الله جهرة كشرط للإيمان بما أوتى موسى من التوراة :

﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾[٣] .

مطلب عجيب ، من غير المتصور أن يصدر عن قوم حياتهم كلها تموج بالدلائل والبراهين على أنه لهذا الكون خالق ، متصف بكل صفات الجلال والكمال ، وأن موسى عليه السلام مرسل من قبله سبحانه وتعالى .

---

(١) الأعراف : ١٥٣ .

(٢) البقرة : ٥٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جا ، ص ٩١ - ٩٢ ؛

(٣) البقرة : ٥٥ - ٥٦ .

(د) عدم شكر نعمة الله عز وجل ، والكفران بها وبالمنعم سبحانه وتعالى :

لقد رزق الله بنى إسرائيل بالرزق الطيب ممثلا فى المن والسلوى ، وكان من الواجب عليهم أن يؤدوا شكر النعمة : ﴿ كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾[1] . لأنه بالشكر تدوم النعم وتزيد ، ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾[2] والكفر بالنعم يؤدى إلى محقها : ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور ﴾[4] .

ولكن بنى إسرائيل طلبوا من موسى أن يدعو لهم الله ، يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . قال : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾[4] .

فذكر الله إنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المن والسلوى طعامين شهيين ، بلا كلفة ولا سعى لهم فيه ، بل ينزل الله المن باكرا ويرسل عليهم طير السلوى عشيا ، وأنبع الماء لهم بضرب موسى – عليه السلام – حجرا كانوا يحملونه معهم بالعصا ، فتفجر منه اثنتا عشرة عينا ، لكل سبط عين منه تنبجس . ثم تنفجر ماءا زلالا ، فيستقون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم . وظلل عليهم الغمام من الحر . وهذه نعم من الله عظيمة ، وعطيات جسيمة ، فما رعوها حق رعايتها ، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها : ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ﴾ .

---

(١) البقرة : ٦٠ .

(٢) إبراهيم : ٧ .

(٣) سبأ : ١٧ .

(٤) البقرة : ٦١ .

ثم ضجر كثير منهم وتبرموا بها ، وسألوا أن يستبدلوا بها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، فقرعهم الكليم ووبخهم وانبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلا : ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾[1] . أى هذا الذى تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التى أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار . وإذا هبطتم إليها ونزلتم عن هذه المرتبة التى لا تصلحون لمنصبها تجدون بها ما تشتهون .

وبسبب بطرهم النعمة أذلهم الله ، فلا منعة لهم ، وجعلهم تحت أقدام المسلمين ، وبسبب بطرهم النعمة استحقوا غضب الله . إن ما جوزى به بنو إسرائيل من الذلة بسبب استكبارهم عن اتباع الحق ، وكفرهم بآيات الله ، وإهانتهم حملة الشرع ، وهم الأنبياء ، وأتباعهم ، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم ، فلا كفر أعظم من هذا .

إنهم كفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياء الله بغير الحق . ولهذا جاء فى الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » . يعنى : رد الحق وانتقاص الناس والازدراء بهم والتعاظم عليهم . ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله وقتلهم أنبياء الله أحل بهم بأسه الذى لا يرد ، وكساهم ذلا فى الدنيا موصولا بذل الآخرة جزاء وفاقا .

وبالإضافة إلى الانحرافات السابقة ، يذكر النص القرآنى علة أخرى فى مجازاتهم بما جوزوا به ، إنهم كانوا يعصون ويعتدون : فالعصيان فعل المناهى والاعتداء المجاوزة فى حد المأذون فيه والمأمور به .

* * *

(هـ) رفض إخضاع حياتهم للتوراة التى أنزلت على موسى :

لما جاء موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم ،

---

(١) البقرة : ٦٣ – ٦٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١٠٢ ، ١٠٣

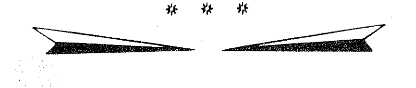
فقالوا : انشرها علينا ، فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها . فقال : بل اقبلوها بما فيها ، فراجعوه مرارا ، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلة : أى غمامة على رؤوسهم ، وقيل لهم ، إن لم تقبلوها بما فيها ، وإلا سقط هذا الجبل عليكم ، فقبلوا ذلك . وأمروا بالسجود فسجدوا : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون . ثم توليتم من بعد ذلك ، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ .. ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾[1] .

ثم توليتم من بعد ذلك : أى ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم ، نكثتم عهودكم ومواثيقكم ﴿ فلولا فضل الله عليكم ﴾ : بأن تداركم بالإرسال إليكم ، وإنزال الكتب عليكم لكنتم من الخاسرين .

وفى موضع آخر من القرآن يقول الله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا . قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم . قل : بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

والكفر هنا يبين أنفسًا خبيثة جبلت على الانحراف مصرة على عصيان أوامر الله – عز وجل – ، ﴿ قالوا : سمعنا وعصينا ﴾ .

وأشربوا فى قلوبهم العجل : أى حب العجل حتى خلص ذلك إلى قلوبهم[2] .



---

(١) والله فى هذه الآية يرسم لنا الطريقة لعلاج النفوس الملتوية التى لا تجدى معها الكلمة الطيبة اللينة ، عن طريق استعمال القوة الجبارة مثل قوة الجبل ، وكأن العهود والمواثيق لا تجدى معهم شيئا .

(٢) يقول محمد ﷺ : حبك الشيء يعمى ويصم ، البداية والنهاية ، جـ ١ ، ص ١٢٦ ؛ البقرة : ٩٣ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ١ ، ص ١٢٦ .

(و) **قتل رجل منهم واللجوء إلى موسى لمعرفة القاتل مع التردد فى تنفيذ أمر الله بذبح بقرة :**

﴿ وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها ﴾ . لقد قتل بنو إسرائيل رجلا منهم ، ثم ذهبوا إلى موسى يسألونه عما إذا كان يستطيع أن يعرف القاتل أم لا ؟ ويبدو أن موسى - عليه السلام - تقدم بالطلب إلى الله - عز وجل - فأمرموسى بنى إسرائيل بناء على أمر الله - عز وجل - أن يذبحوا بقرة :

﴿ وإذ قال موسى لقومه : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا : أتتخذنا هزوا ، قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، قالوا : أدع لنا ربك يبين لنا ما هى ، قال : إنه يقول : إنها بقرة لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة صفراء فاقع لونها ، تسر الناظرين . قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ إن البقر تشابه علينا ، وإنَّا إن شاء الله لمهتدون . قال : إنه يقول : إنَّها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها ، قالوا : الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون . وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها ، كذلك يحيى الله الموتى ، ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾[1] ..

* * *

(ز) **نكولهم عن الجهاد فى سبيل الله بقيادة موسى عليه السلام :**

حينما واجه موسى ومن معه بيت المقدس ، كان يسيطر عليه قوم من الجبارين ، فأمرهم موسى - عليه السلام - بالدخول عليهم ، وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس لأن الله كتبه لهم ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم

---

(١) البقرة : ٦٧ - ٧٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جا ، ص ١٠٧ - ١١٣ .

الجليل ، فأبوا ونكلوا عن الجهاد ، فسلط الله عليهم الخوف ، وألقاهم فى التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون فى مدة من السنين طويلة ، وهى من العدد أربعون كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا[1] على أدباركم ، فتنقلبوا خاسرين . قالوا : يا موسى ، إنّ فيها قوما جبارين[2] وإنَّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون[3] ، أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنَّكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا : يا موسى ، إنَّا لن ندخلها أبدا ، ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون . قال : رب إنِّى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾[4] ..

وللنص القرآنى إيحاءات وتوجيهات :

١ - إن الصف المسلم بقيادة موسى - عليه السلام - كان به بعض النفوس المريضة التى لم تستسلم لله سبحانه وتعالى بالكلية .

٢ - إن الله قد فضل بنى يعقوب (إسرائيل) فى وقت من الأوقات لدينهم وإسلامهم وإيمانهم ، وأنعم عليهم بالنعم ، وجعل منهم أنبياء وملوكا ، وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين .

وخزائن الله لا تنفد ، وفضل الله حاضر ، وعطاؤه واسع للمؤمنين المسلمين الموحدين فى كل زمان ومكان : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا

---

(١) أى تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا عن قتال أعدائكم .

(٢) عتاة كفرة متمردين .

(٣) أى أنعم الله عليهما بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة . (البداية والنهاية ، جـ١ ، ص ٢٧٨) .

(٤) المائدة : ٢٠ - ٢٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ؛ جـ٢ ، ص ٣٦ - ٤١ .

لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾[1] . ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾[2] .

٣ - إن الله سبحانه وتعالى قد جعل بيت المقدس للأمة المسلمة ﴿ الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ﴾ ولذلك فقد أوجب الله على المسلمين من قوم موسى الدخول إلى الأرض المقدسة ، وإخراج الكفرة المتمردين على الله تعالى منه ، وهذا واجب على المسلمين فى كل زمان ، وهو تخليص الأرض المقدسة من الكفرة المتمردين .

ولذلك حينما أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس ، وصلى بالأنبياء والمرسلين إماما فى مسجد بيت المقدس ، وكان بيت المقدس فى ذلك الوقت مستعمرة رومية (منذ ٦٤ ق . م) . فقد برهنت هذه الواقعة على أن القيادة على هذه الأرض المباركة يجب أن تكون فى يد المسلمين - كما كانت دواما على عهد إبراهيم وإسحاق ويعقوب وذريته - وأن ترتفع راية التوحيد ، ولا يجب أن تبقى لحظة واحدة فى أيد غير الأيدى المسلمة .

ومن هنا ، حينما قامت الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة وجه الرسول ﷺ جيشا بقيادة زيد بن حارثة وعبدالله بن أبى رواحة وجعفر بن أبى طالب وخالد بن الوليد لمقاتلة الروم وإجلائهم عن بلاد الشام ، بما فى ذلك بيت المقدس ، لإقامة حكم الإسلام عليها .

وكان ذلك بمثابة الطلقة الأولى لتوجيه نظر المسلمين ، إلى أنّه لا يجوز أن يظل بيت المقدس وأرض الشام (سورية وفلسطين) بعيدة عن أيدى المسلمين وأن تحكم بشرع غير شرع الله ...

وقد أدرك الصحابة معنى إعداد رسول الله لحملة أسامة بن زيد ، ولذلك

---

(١) الأعراف : ٩٦ .

(٢) نوح : ١٠ .

فإن أبا بكر وعمر قد وجها الحملات لتحرير أرض الإسراء والمعراج ، الأرض التى عاش عليها الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ؛ وقد تحقق لهم التحرير على عهد عمر بن الخطاب ، لتعود بيت المقدس مدينة إسلامية يرتفع عليها راية لا إله إلا الله ، وتحكم بشرع الله بعد سبعة قرون من الاستعمار الرومى .

وذلك يعنى : أنه لا يصح ، ولا يجوز للمسلمين أن يتركوا بيت المقدس فى أيدى اليهود ، بل عليهم أن يعلنوا الجهاد لتحرير هذه الأرض المقدسة ، وإقامة حكم الله عليها ، لأن الله قد كتب تلك الأرض للمسلمين ﴿ ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ﴾[1] .

وذلك يعنى أيضا ، أن المرشحين لإنهاء الهجمة اليهودية الشرسة على أرض فلسطين هم المسلمون . وليس غيرهم .

وأنها لن تكون - أى أرض فلسطين - للجيل الجبان الذى ينكص عن قتال أعداء الله - عز وجل - .

٤ - إن النكوص عن الجهاد ومقاتلة الأعداء يؤدى بصاحبه إلى الخسران ، بل يؤدى به إلى الفسوق .

٥ - إن التوكل على الله عز وجل من علامات إيمان المسلم .

٦ - على هذا الدرس من تاريخ بنى إسرائيل مع نبيهم موسى : تعلم محمد ﷺ وصحبه واستفادوا وتجنبوا عثرات الأمم السابقة . يتضح ذلك من موقف المسلمين فى غزوة بدر حينما قالوا لرسول الله ﷺ : « والله يا رسول الله ، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ولكنا نقاتل على يمينك وشمالك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك »[2] .

لقد أدرك الرسول ﷺ وصحبه أن النكوص عن الجهاد يعنى : الخسران .

---

(١) المائدة : ٤١ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ٣، ص ٢٦٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٢ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

ولذلك ما ترك الرسول محمد ﷺ فرصة إلا وحض فيها على الجهاد امتثالا لأوامر الله عز وجل (لأن رزق الأمة المسلمة جعل تحت رماحها ، والجنة تحت ظلال السيوف ، وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا) .

٧ - سُوءُ أدب بنى إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام ، فى قولهم له : ﴿ إذهب أنت وربك فقاتلا ، إنَّا ههنا قاعدون ﴾ .

وكان من الواجب أن يقولوا : ربنا ، بدلا من ربك لأن رب العالمين هو ربهم وهم مقهورون ، سواء رغبوا أم لم يرغبوا ، مثل كل المخلوقات التى خلقها الله عز وجل . ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ﴾[٢] .

(ح) دخول بيت المقدس على غير الهيئة التى أمرهم بها الله عز وجل :

وكان ذلك لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام ، فأمروا بدخول الأرض المقدسة ، التى هى ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل (النبى المسلم) : وقتال من فيها من العتاة الجبابرة الكفرة ، فنكلوا عن قتالهم ، وضعفوا واستحسروا ، فرماهم الله فى التيه عقوبة لهم .

ولما خرج بنو إسرائيل من التيه بعد أربعين سنة - وكان قد هلك الجيل الجبان . وهذه سنة ربانية : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[٢] - مع يوشع بن نون - عليه السلام وفتحها الله عليهم عشية جمعة ، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح .

ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا البــاب سجــدا : أى شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ، ورد بلدهم عليهم ، وإنقاذهم من التيه والضلال ، لكنهم دخلوا على غير الهيئة التى أمروا بها .

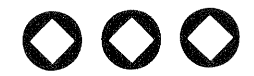
---

(١) آل عمران : ٨٣ .

(٢) محمد : ٣٨ .

إنه ولكنه الانحراف الذى زادت زاوية انفراجه ، فما عادت النفوس تستشعر أن الله سميع بصير ، وقد روى عن رسول الله ﷺ : « قيل لبنى إسرائيل : ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة . فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا : حَبَّةٌ فى شعير »[1] .

وكان العقاب الربانى ، رجزا من السماء ، سواء كان طاعونا أو وجعا وسقما كما ورد فى حديث محمد ﷺ :« الطاعون رجز (عذاب) ، عذب به من كان قبلكم » . إن هذا الوجع والسقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم[2] .



---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جا ، ص ٩٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جا ، ص ١٠٠ .

الجـزء الثـالث

موسـى والخَضِرْ عليهمـا السـلام★

نموذج لما يجب أن يكون عليه العلماء وهم يتلقون العلم ، وهم يبذلونه ، من تواضع لله عز وجل ومعرفة لفضله ، وأداء لحقه ، وليدركوا أن العلم مصدره الله عز وجل : ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾(١) وأنّهم لو قاسوا ما علموا إلى ما لم يعلموا ، لأدركوا أنهم ما أوتوا من العلم إلا قليلا .

هذا النموذج نتلقاه عن النبى محمد ﷺ عن الوحى عن الله عز وجل ، وهو يحكى لنا خبر عالم ومتعلم ، العالم نبى يوحى إليه هو الخضر عليه السلام والمتعلم نبى يوحى إليه ، هو موسى بن عمران صاحب بنى إسرائيل عليه السلام ، ولكن تتفاوت الأقدار وتتفاوت المعلومات ، ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ .

النص القرآنى : قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنِّى نسيتُ الحوتَ وما أنسانِيهُ إلا الشيطانُ أنْ أذكرهُ ، واتخذ سبيلهُ فى البحر عجبا . قال : ذلك ما كُنَّا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا . قال : إنك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال : ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا .. قال : فإن اتبعتنى فلا تسـألنى عن شـىء حتى

★ قال رسول ﷺ : « إنّما سُمِّى الخَضِرْ ، لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز من خلفه خضراء » أخرجه البخارى والترمذى (جامع الأصول ، جـ ٩ ، ص ٣٩٠) .

(١) العلق : ٥ .

أحدث لك منه ذكرا . فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها . قال : أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا . قال : ألم أقل إنّك لن تستطيع معى صبرا . قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا . فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله . قال : أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا . قال : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يُضَيِّفُوهُما ، فوجدا فيها جدارًا يُريد أنْ يَنْقَضَّ فأقامه قال : لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال : هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا . أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ، ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى ، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾[1] .

وقد ورد فى الحديث[2] ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا فعتب الله عليه إذ لَمْ يَرُدَّ العلمْ إليهِ ، فأوحى الله إليه : إنّ لى عَبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب وكيف لى به . قال : تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم . فأخذ حوتا فجعله بمكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة ، وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل ، فخرج منه فسقط فى البحر ، واتخذ سبيله فى البحر سربا . وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق . فلما استيقظ نسى صاحبه أن

---

(١) الكهف : ٦٠ – ٨٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٩٢ – ١٠٠ .

(٢) مختصر صحيح مسلم للإمام أبى الحسين بن مسلم بنى الحجاج القشيرى النيسابورى ، للحافظ زكى الدين عبدالعظيم بن عبدالقوى بن سلامة المنذرى الدمشقى ، تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى ، ط ٣ ، ١٣٩٧ ، المكتب الإسلامى ، دمشق ، ص ٤٢٦ – ٤٢٨ ، حديث رقم ١٦١١ .

يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد ﴿ قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ . ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به . (قال) له فتاه ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنِّى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا ﴾ . قال : فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا . ﴿ قال : ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ . قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى . فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام . قال : أنا موسى . قال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا . ﴿ قال : إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ يا موسى ، إنى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . فقال : ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ﴾ . قال له الخضر : ﴿ فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ، فانطلقا ﴾ يمشيان على ساحل البحر ، فمرت سفينة ، فكلمهم أن يحملوهما ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول . فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لتغرق أهلها ، لقد جئت شيئا إمرا . قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا . قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ، ولا ترهقنى من أمرى عسرا ﴾ . قال ، وقال رسول الله ﷺ وكانت الأولى من موسى نسيانا . قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده ، فاقتلعه بيده ، فقتله . فقال له موسى : ﴿ أقتلت نفسا زكية بغير نفس ، لقد جئت شيئا نكرا . قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ . قال : وهذه أشد من الأولى . ﴿ قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى ، قد بلغت من لدنى عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض ﴾ . قال : مائل ، فقال الخضر بيده (فأقامه) . فقال

موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ، ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال : هذا فراق بينى وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ . قال رسول الله ﷺ : « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما »(١) . وقال رسول الله ﷺ : « كانت الأولى من موسى نسيانا » . قال : « وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة ثم نقر فى البحر فقال له الخضر : ما نقص علمى وعلمك من علم الله عز وجل إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر » .

(أ) موسى عليه السلام يحج بيت الله العتيق :

قال الإمام أحمد حدثنا داود بن أبى هند عن أبى العالية عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ مرّ بوادى الأزرق فقال : أى واد هذا ؟ قالوا وادى الأزرق . قال : كأنى أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية ، وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية حتى أتى على ثنية هرشاء . فقال : أى ثنية هذه ، قالوا : هذه ثنية هرشاء . قال : كأنى أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف ، خطام ناقته خلبة . قال : هشيم : يعنى : ليفا . وهو يلبى . أخرجه مسلم من حديث داود بن أبى هندبه(٢) .

(ب) وفاة موسى عليه السلام فى أرض التيه بسيناء - دفنه :

قال البخارى فى صحيحه : (وفاة موسى عليه السلام) : حدثنا يحيى ابن موسى ، حدثنا عبدالرازق أنبأنا معمر ، عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن أبى هريرة، قال: أُرسِلَ ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فلما جاءه صكه(٣)،

---

(١) البداية والنهاية ، جا ، ص ٢٩٥ - ٢٩٧ .

(٢) البداية والنهاية ، جا ، ص ٣١٦ .

(٣) جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ ، للإمام أبى السعادات مبارك بن محمد بن الأثير الجزرى (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) ، جـ ٩ ، ط ٢ ، دار أحياء التراث ، ١٤٠٠ هـ ؛ ص ٣٨٦ ، حديث ٦٣٠٠ .

فرجع إلى ربه عز وجل فقال : أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت . قال : ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور ، فله بما غطت يده ، بكل شعرة سنة . قال : أى رب ، ثم ماذا قال : ثم الموت . قال : فالآن . قال : فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر . قال أبو هريرة ، فقال رسول الله ﷺ : فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر[1] . وفى حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال : « مررت على موسى ليلة أسرى بى عند الكثيب الأحمر ، وهو قائم يصلى فى قبره[2] .

* * *

(ج) موسى عليه السلام فى السماء السادسة :

ورد فى الحديث عن النبى ﷺ : « أنه مر ليلة أسرى به بموسى فى السماء السادسة ، فقال له جبريل : هذا موسى فسلم عليه . قال : فسلمت عليه ، فقال : مرحبا بالنبى الصالح ، والأخ الصالح . فلما تجاوزت بكى ، قيل له ما يبكيك ؟ قال : أبكى لأن غلاما بعث بعدى ، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى »[3] .

كما ورد فى الحديث أيضا : أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاة فى اليوم والليلة فمر بموسى ، قال : ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، فإنى قد عالجت بنى إسرائيل قبلك أشد المعالجة ، وإن أمتك أضعف أسماعا وأبصارا وأفئدة . فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ويخفف عنه فى كل مرة حتى صارت إلى خمس صلوات فى اليوم والليلة .

وروى ابن عباس قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال : « عرضت على الأمم ورأيت سواداً كثيرا سد الأفق ، فقيل : هذا موسى فى قومه »[4] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ١ ، ص ٣١٦ - ٣١٧ ؛ مختصر صحيح مسلم ، حديث رقم ١٦١٣ .

(٢) مختصر صحيح مسلم ، حديث رقم ١٦١٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٣١٢ - ٣١٣ .

(٤) البداية والنهاية ، جـ١ ، ص : ٣١٤ .

معالم يرسيها خبر موسى مع الخضر فى حياة الأمة المسلمة :

– لابد لكل عالم أن يضع فى اعتباره أنه مهما أوتى من علم فإنَّه لم يُؤْتَ من العلم إلَّا قليلا ، وأن علمه مهما عظم لا يقاس إلى علم الله – سبحانه وتعالى – المحيط : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ ، ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ ، وإن العلم نعمة من الله عز وجل ، إن شاء أعطاها وإن شاء منعها ، فإن أعطاها فهي ابتلاء للعبد ، لينظر كيف تعملون ، فعلى العبد أن يوظف العلم فى طاعة الله ، وفى الدعوة إلى دين الله لتكون كلمة الله هى العليا .

– توجيه نظر المتعلم إلى ضرورة التحلى بصفة الصبر ، وعدم التسرع لتحصيل العلم ، والتحلى بالأدب الواجب عند التلقي من الأستاذ ، مع بذل الجهد الواجب لتحصيل ذلك العلم .

– إن الأحداث لا يجب أن تؤخذ بظواهرها ، فظاهر الأمر أن الخِضْرَ قد ارتكب تخريبا لسفينة يملكها مساكين يقتاتون من وراء تشغيلها ، وأنه قد ارتكب جريمة قتل لطفل لا ذنب له ، وأنه قد أدى معروفا لأهل قرية لا يستحقون هذا المعروف ، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك ، كما لاحظنا ، فظاهر الأمر أنه شر ، وأن هنالك سلسلة من الجرائم قد ارتكبت ، ولكن الحقيقة والأمر كان من أوله إلى آخره رحمة من الله عز وجل : « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا » .

– بركة صلاح الوالدين ، تتمثل فى حفظ أبنائهم الصغار من بعدهم ، فالله سبحانه وتعالى قد حفظ المال للغلامين الضعيفين لأن أباهما كان صالحا . وهذا مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وليخشى الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا ، خافوا عليهم ، فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديدا ﴾[1] .

– إن أخبار موسى – عليه السلام – والخضر قد حفظها لنا القرآن

---

(١) النساء : ٩٠ .

* « رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر لرأى من صاحبه العجب » حديث صحيح رواه أبو داود والنسائى والحاكم فى المستدرك ، رقم ٣٤٩٥ الجامع الصغير .

الكريم ، وحديث الرسول محمد ﷺ ولولاهما ، لم يكن فى وسعنا الحصول على خبر صحيح عنهما .

فمن ذا يقول لنا : إن لديه علما أن موسى - عليه السلام - قد حج بيت الله الحرام ، إذ لم يكن قد قرأ حديث رسول الله ﷺ ؟؟ ومن ذا الذى يقول لنا كيف وأين قبض موسى - عليه السلام - لو لن نقرأ حديث رسول الله محمد ﷺ الذى ما ينطق عن الهوى .

ومن ذا الذى يعطينا خبرا صحيحا عن موسى - عليه السلام - وما دار بينه وبين رسولنا محمد ﷺ من حوار ليلة الإسراء والمعراج فى السماء ؟؟

ومن ذا الذى يعطينا خبرا صحيحا عن موسى - عليه السلام - وهو يصلى فى قبره لو لم يخبرنا بذلك محمد ﷺ الذى أعلمه الله من الغيب ما لم يعرفه غيره .

هذا مثل نسوقه لهؤلاء الذين يشتغلون بما يسمى بالتاريخ القديم ، ويستبعدون القرآن والحديث من بين مصادرهم ، فى الوقت الذى يعتمدون فيه على ما يسمى بالتوراة والإنجيل المحرفتين .

إن المعلومات التى عرفت عن مقابلة محمد ﷺ لموسى - عليه السلام - فى السماء السادسة ، وعن موسى - عليه السلام - وهو يصلى فى قبره بجوار بيت المقدس ، تدير الرؤوس حقا ، وتؤكد لنا لهذا الكون إلهاً خالقاً ، مسيطراً ، وهو على كل شىء قدير .

ومثال ذلك أيضا قصة التضحية فى سبيل الله التى قام بالدور البارز فيها ماشطة بنت فرعون . والقصة كما رواها رسول الله ﷺ : « لمّا أسرى بى مَرّتْ بى رائحة طيبة فقلت : ما هذه الرائحة ؟ قال : ماشطة بنت فرعون وأولادها سقط المشط من يدها ، فقالت : باسم الله ، فقالت بنت فرعون : أبى ، قالت : ربى ورب أبيك قالت : أولَكِ ربٌ غير أبى ؟ قالت : نعم ربى وربك ورب أبيك الله . قال فدعاها فقال : ألك رب غيرى قالت : نعم ربى وربك الله عز وجل . قال فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها أن تلقى فيها قالت : إن لى إليك حاجة قال ما هى ؟ قال : تجمع عظامى وعظام ولدى فى موضع . قال ذاك لك

لما لك علينا من الحق قال فأمر بهم فألقوا واحدًا واحدًا حتى بلغ رضيعا فيهم فقال يا أمه قعِي ولا تقاعسى فإنك على الحق »[1] .

فسبحان الذى علم الإنسان ما لم يعلم وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾ .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ١٥ ؛ رواه البيهقى ، يقول الإمام الحافظ ابن كثير : إسناده لابأس به ولم يخرجوه .

الجـزء الخامـس

منـافق من بنى إسـرائيل
« قــارون »

قارون من بنى إسرائيل ، عاش فى مصر ، وكان معاصرا لموسى عليه السلام . وكان قارون ممالئا لفرعون وهامان ، وكافرا بما أرسل به موسى عليه السلام : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون . فقالوا : ساحر كذاب ﴾[1] .

والله سبحانه وتعالى قد أقام الحجة على قارون وأمثاله : ﴿ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين ، فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[2] .

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن قارون من أهل النار ، وأنه مع فرعون وهامان وأبى بن خلف[3] .

وقد أورد الله سبحانه وتعالى فى سورة القصص : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لايحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ

---

(١) غافر : ٢٤ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٧٦ .
(٢) العنكبوت : ٤٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٤١٣ .
(٣) البداية والنهاية ، جـ١ ، ص ٣١٢ .

الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندى . أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ، إنَّه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين ﴾[1] .

«وقصة قارون تعرض سلطان المال والعلم ، وكيف ينتهى بالبوار مع البعض ؛ والبطر والاستكبار على الخلق ، وجحود نعمة الخالق ؛ وتقرر حقيقة القيم ، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح ؛ مع الاعتدال والتوازن فى الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو فى الأرض ولا فساد[2] .

لقد كان قارون من قوم جهلاً ، فأتاه الله مالا كثيرا ، يصور كثرته بأنه كنوز – والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول – وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيى المجموعة من أقوياء الرجال .. من أجل هذا بغى قارون على قومه . ولا يذكر فيما كان البغى ، ليدعهِ مجهلا يشمل شتى الصور . فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم – كما يصنع طغاة المال فى كثير من الأحيان – وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم فى ذلك المال ، حق الفقراء فى أموال الأغنياء ، كى لايكون دولة بين الأغنياء وحدهم ومن حولهم محاويج إلى شيء منه ، فتفسد القلوب ، وتفسد الحياة . وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب » .

---

(١) القصص : ٧٦ – ٨٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٩٨ – ٤٠٢ ، فى ظلال القرآن جـ٥ ، ٢٧١٠ – ٢٧١٤ ؛ فتح البارى ، جـ٦ ، ص ٤٤٨ .

وعلى أية حال فقد وجد قارون من قومه من يحاول رده عن هذا البغى ، ورجعه إلى النهج القويم ، الذى يرضاه الله فى التصرف بهذا الثراء ، وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم ، ولا يحرمهم المتاع بما وهبهم الله من مال ، ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال ، وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذى أنعم عليهم ، ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب :

﴿ إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحبُ المفسدين ﴾ .

وفى هذا القول جماع ما فى المنهج الإلهى القويم من قيم وخصائص تفرده بين سائر مناهج الحياة .

﴿ لا تفرح ﴾ .. فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال ، والاحتفال بالثراء ، والتعلق بالكنوز ، والابتهاج بالملك والاستحواذ .. لا تفرح فرح البطر الذى ينسى المنعم بالمال ، وينسى نعمته ، وما يجب لها من الحمد والشكران . لا تفرح فرح الذى يستخفه المال ، فيشغل به قلبه . ويطير له لبه ويتطاول به على العباد ..

﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ .. فهم يردونه بذلك إلى الله ، الذى لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال ، المتباهين ، المتطاولين بسلطانه على الناس .

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ ... وفى هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهى القويم . المنهج الذى يعلق قلب واجد المال بالآخرة ، ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع فى هذه الحياة . بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا ، كى لا يتزهد الزهد الذى يهمل الحياة ويضعفها .

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس ، وليعملوا فى الأرض لتوفيرها وتحصيلها ، فتنمو الحياة وتتجدد ، وتتحقق خلافة الإنسان فى هذه الأرض . ذلك على أن تكون وجهتهم فى هذا المتاع هى الآخرة ، فلا ينحرفون عن طريقها ، ولا يُشْغَلُون بالمتاع عن تكاليفها ، والمتاع فى هذه الحالة لون من

ألوان الشكر للمنعم وتقبل لعطاياه ، وانتفاع بها . فهو طاعة من الطاعات يجزى عليها الله بالحسنى .

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق فى حياة الإنسان . ويمكنه من الارتقاء الروحى الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة ، التى لا حرمان فيها ، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة .

﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ .. فهذا المال هبة من الله وإحسان . فليقابل بالإحسان فيه . إحسان التقبل ، وإحسان التصرف ، والإحسان به إلى الخلق ، وإحسان الشعور بالنعمة ، وإحسان الشكران .

﴿ ولا تبغ الفساد فى الأرض ﴾ .. الفساد بالبغى والظلم . والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة . والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء . والفساد بإنفاق المال فى غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال .

﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .. كما أنه لا يحب الفرحين .

كذلك قال له قومه : وكان رده جملة واحدة ، تحمل شتى معانى الفساد والإفساد :

﴿ قال : إنما أوتيته على علم عندى ﴾ ..

إنما أوتيت هذا المال استحقاقا على علمى الذى طوع لى جمعه وتحصيله . فما لكم تُملون علىَّ طريقة خاصة فى التصرف فيه ، وتتحكمون فى ملكيتى الخاصة ، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدى الخاص واستحققته بعلمى الخاص ؟

إنها قولة المغرور المطموس الذى ينسى مصدر النعمة وحكمتها ، ويفتنه المال ، ويعميه الثراء .

وهو نموذج مكرر فى البشرية . فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه . ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك ، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح ، غير حاسب لله حسابا ، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه ..

والإسلام يعترف بالملكية الفردية ، ويقدر الجهد الفردى الذى يبذل فى تحصيلها من وجوه الحلال التى يشرعها ، ولا يهون من شأن الجهد الفردى أو يلغيه . ولكنه فى الوقت ذاته يفرض منهجا معينا للتصرف فى الملكية الفردية — كما يفرض منهجا لتحصيلها وتنميتها — وهو منهج متوازن متعادل ، لا يحرم الفرد ثمرة جهده ، ولا يطلق يده فى الاستمتاع به حتى الترف ، ولا فى إمساكه حتى التقتير ، ويفرض للجماعة حقوقها فى هذا المال ، ورقابتها على طرق تحصيله ، وطرق تنميته ، وطرق انفاقه والاستمتاع به . وهو منهج خاص واضح الملامح ، متميز السمات .

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه ، ولم يشعر بنعمة ربه ، ولم يخضع لمنهجه القويم . وأعرض عن هذا كله فى استكبار لئيم ، وفى بطر ذميم .

ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية ، ردًّا على قولته الفاجرة المغرورة :

﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون ، من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ .

فإن كان ذا قوة ومال ، فقد أهلك الله من قبله أجيالا كانت أشد منه قوة وأكثر مالا . وكان عليه أن يعلم هذا . فهذا هو العلم المنجى . فليعلم . وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم . فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد ..

﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ .

* * *

ذلك كان المشهد الأول من مشاهد القصة ، يتجلى فيه البغى والتطاول ، والإعراض عن النصح ، والتعالى عن العظة ، والإصرار على الفساد ، والاغترار بالمال ، والبطر الذى يقعد بالنفس عن الشكران .

ثم يجيء المشهد الثانى حين يخرج قارون بزينته على قومه ، فتطير لها قلوب فريق منهم ، وتتهاوى لها نفوسهم ، ويتمنون لأنفسهم مثل ما أوتى قارون ،

ويحسون أنه أوتى حظا عظيما يتشهاه المحرومون . ذلك على حين يستيقظ الإيمان فى قلوب فريق منهم فيعتزون به ، على فتنة المال ، وزينة قارون ، ويذكرون إخوانهم المبهورين المأخوذين ، فى ثقة وفى يقين :

﴿ فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين : يريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثلما أوتى قارون إنَّه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾[1] .

وهكذا وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوى المتهافت ، ووقفت طائفة أخرى تستعلى على هذا كله بقيمة الإيمان والرجاء فيما عند الله ، والاعتزاز بثواب الله . والتقت ، قيمة المال ، وقيمة الإيمان ، فى الميزان :

﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ، إنَّه لذو حظ عظيم ﴾ ..

وفى كل زمان ومكان تستهوى زينةُ الأرضِ بعضَ القلوب ، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ، ولا يتطلعون إلى ما هو أكرم وأعلى منها ، فلا يسألون بأى ثمن اشترى صاحبُ الزينةِ زينتَه ؟ ولا بأى الوسائل نال ما نال من عرض الحياة ؟ من مال أو منصب أو جاه . ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى ، كما يتهافت الذباب على الحلوى ويتهاوى .. ويسيل لعابهم على ما فى أيدى المحظوظين من متاع ، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذى أدَّوَهُ ، ولا إلى الطريق الدنس الذى خاضوه ، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التى اتخذوها .

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة ، وفى نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع . وهم أعلى نفسا ، وأكبر قلبا من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعا . ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد . وهؤلاء هم ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ . العلم الصحيح الذى يقومون به الحياة حق التقويم :

---

(١) القصص : ٧٩ - ٨٠ .

﴿ وقال الذين أوتوا العلم . ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ .

ثواب الله خير من هذه الزينة ، وما عند الله خير مما عند قارون كما فى الحديث الصحيح « يقول الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر واقرءوا إن شئتم : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[1] . وقوله ﴿ ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ ..

والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون ... الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم، الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها ، الصابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون . وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة . درجة الاستعلاء على كل ما فى الأرض ، والتطلع إلى ثواب الله فى رضاً وثقة واطمئنان .

* * *

وعندما تبلغ فتنةُ الزينةِ ذروتها ، وتتهافتُ أمامها النفوس وتتهاوى ، تتدخل يد القدرة لتضع حدا للفتنة ، وترحم الناس الضعاف من إغرائها ، وتحطم الغرور والكبرياء تحطيما . ويجىء المشهد الثالث حاسما فاصلا :

﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين ﴾[2] ..

هكذا فى جملة قصيرة ، وفى لمحة خاطفة : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ فابتلعته وابتلعت داره ، وهوى فى بطن الأرض التى علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا . وذهب ضعيفا عاجزا ، لا ينصره أحد ، ولا ينتصر بجاه أو مال .

---

(١) السجدة : ١٧ .   (٢) القصص : ٨١ .

وهوت معه الفتنة الطاغية التى جرفت بعض الناس ، وردتهم الضر القاضيةُ إلى الله ، وكشفت عن قلوبهم قناعَ الغفلةِ والضلال . وكان هذا المشهد الأخير :

﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : وَىْ كأَنَّ الله يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ من عباده ويقدر لولا أن منَّ الله علينا لخسفَ بِنَا . وى كأنه لا يفلحُ الكافرون ﴾[1] ..

وقفوا يحمدون الله أن لم يستحب لهم ما تمنوه بالأمس ، ولم يؤتهم ما آتى قارون . وهم يرون المصير البائس الذى انتهى إليه بين يوم وليلة . وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى الله . فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضا والغضب . ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف . إنَّما هو الابتلاء الذى قد يعقبه البلاء . وعلموا أن الكافرين لا يفلحون . وقارون لم يجهر بكلمة الكفر ولكن اغترارە بالمال ، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يسلكونه فى عداد الكافرين ، ويرون فى نوع هلاكه أنه هلاك للكافرين .

ويسدل الستار على هذا المشهد ، وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة السافرة ، وقد رجحت قيمة الإيمان فى كفة الميزان .. ثم يأخذ فى التعقيب فى أنسب أوان :

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا . والعاقبة للمتقين ﴾[2] ..

تلك الآخرة التى تحدث عنها الذين أوتوا العلم العلم الحق الذى يقوم الأشياء قيمتها الحقيقية . تلك الدار الآخرة العالية الرتبة البعيدة الآفاق . تلك الدار الآخرة ﴿ نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ﴾ .. فلا يقوم فى نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم ، ولا يهجس فى قلوبهم الاعتزاز

---

(١) القصص : ٨٢ .
(٢) القصص : ٨٣ .

بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها . إنَّما يتوارى شعورهم بانفسهم ليملأها الشعور بالله ومنهجه فى الحياة . أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشيائها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابا . ولا يبغون فيها كذلك فسادا . أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة . تلك الدار العالية السامية .

﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ الذين يخشون الله ويراقبونه ويتحرجون من غضبه ويبتغون رضاه .

وفى تلك الدار الآخرة يقع الجزاء كما كتب الله على نفسه . الحسنة بأضعافها وبما هو خير منها . والسيئة بمثلها رحمة بضعف الخلق وتيسيرا :

﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين يعملون السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ .

وقد روى ابن أبى حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس : أن قارون كان ابن عم موسى عليه السلام . واختلف فى تفسير بغى قارون فقيل : السر ، لأنه قال ذهب موسى وهارون بالأمر فلم يبق لى شىء ، وقيل أنه واطأ امرأة من البغايا أن تقذف موسى بنفسها فألهمها الله أن اعترفت بأنه هو الذى حملها على ذلك . وقيل : الكبر ، لأنه طغى بكثرة ماله ، وقيل هو أول من أطال ثيابه حتى زادت على قامته شبرا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال : كان موسى يقول لبنى إسرائيل : إن الله يأمركم بكذا حتى دخل عليهم فى أموالهم فشق ذلك على قارون . فقال لبنى إسرائيل : إن موسى يقول : من زنا رجم ، فتعالوا نجعل لبغى شيئا حتى تقول : إن موسى فعل بها فيرجم ، فنستريح منه . ففعلوا ذلك . فلما خطبهم موسى قالوا له : وإن كنت أنت . قال : وإن كنت أنا . فقالوا : فقد زنيت فجزع . فأرسلوا إلى المرأة ، فلما جاءت عظم عليها موسى وسألها بالذى فلق البحر لبنى إسرائيل ألا صدقت ، فأقرت بالحق . فخر موسى ساجدا يبكى ، فأوحى الله إليه : إنى أمرت الأرض أن تطيعك فأمرها بما شئت ، فأمرها فخسفت بقارون ومن معه .

وكان من قصة قارون أنه حصل أموالا عظيمة جدا وكان يسكن تنيس وحكى أن عبدالعزيز الحرورى ظفر ببعض كنوز قارون وهو أمير تنيس فلما مات تأمر ابنه على مكانه ، وتورع ابنه الحسن بن عبدالعزيز عن ذلك . فيقال : إن عليا كتب إلى أخيه الحسن إنى إستطيبت لك من مال أبيك مائة ألف دينار ، فخذها ، فقال : أنا تركت الكثير من ماله لأنه لم يطب لى ، فكيف آخذ هذا القليل ؟ وقد روى البخارى فى هذا صحيح عن الحسن بن عبدالعزيز هذا[1] .

* * *



(١) فتح البارى ، جـ٦ ، ص ٤٤٨ و ٤٤٩ .

دروس مستفادة :

« فبغى عليهم » لقد ترك النص نوع البغى ، لكى يكون عبرة لكل باغ ، ولكى يفهم البغاة جميعا بأن البغى مرفوض لا يرضاه رب العزة ، وأن هؤلاء مصيرهم سيكون مثل مصير قارون ...

لكن النص أبان بعضاً من أنواع بغى قارون ، فأوضح أنه بغى عليهم بقوته وكثرة جمعه ... بكثرة ماله ..

والنص القرآنى يظهر لكل الذى يستعمل قوته فيما لا يرضى الله ، يظلم الناس أن الله أشد منه قوة .... وأنه قد أهلك أمثلة كثيرة من هؤلاء البغاة كانوا أشد قوة من قارون المغتر بقوته وجمعه . فسلب الله منهم القوة ، ولم يستطع الجمع أن ينفعه .

ثم يضرب القرآن الكريم مثلا من أمثلة بغى قارون تمثل فى الاغترار بالمال ... والتباهى به أمام المحرومين المطحونين ...

خرج مزركشا فى زينته ، ... التى فتنت فئة من الناس فَتَمنَّتْ أن يكون لها مثلما أوتى قارون ، واعتبرت أن المال - الزينة - هى « حظ عظيم » ...

أما الذين عندهم علم فقد بينوا لهؤلاء المفتونين أن الخير العظيم هو عند الله .. وأن هذا الخير يعطيه الله للصالحين ... الذين يصبرون على بلاء الدنيا ، فيجزل لهم صاحب العطاء ثوابه ...

لكن هؤلاء المفتونين يرون غير هذا ، إنهم يرون أن قارون هو صاحب الحظ العظيم وها هو أمامهم يمشى متبخترا فى جاهه وسلطانه .. وجمعه ...

وهنا يتدخل الله سبحانه وتعالى ويسلب من قارون كل شىء ... ويصبح قارون القوى ضعيفا ، لا حول له ولا قوة ... لا ينفعه ماله ولا ينفعه جمعه ... ولا تنفعه قوته : ﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ .

الفصل الخامس

الجزء الأول

بنو إسرائيل بعد موسى - عليه السلام -
طالوت وداود - عليه السلام -
فى مواجهة جالوت وجنوده .

لاحظنا أن بنى إسرائيل على عهد موسى قد نكصوا على أعقابهم ، ونكلوا عن الجهاد فى سبيل الله ، ورفضوا دخول بيت المقدس وإجلاء الكفرة المتمردين عنه ، فعاقبهم الله بالتيه لمدة أربعين عاما ، ثم ولد جيل جديد من بنى إسرائيل ، قاده يوشع بن نون ، ودخلوا بيت المقدس بعد قتال الأعداء الكفرة الذين كانوا يتحكمون فيه ، ولكن بنى إسرائيل خالفوا أمر نبيهم فى دخول بيت المقدس على الهيئة التى أمرهم بها ، فعاقب الله من فعل ذلك منهم برجز من السماء .

وبمضى الوقت ، استطاع أعداؤهم أن يخرجوهم من بيت المقدس ، وشردوهم بعد أن أخذوا مقدساتهم ، ممثلة فى التابوت الذى يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون .

ولعل هذا هو السبب فى طلب بنى إسرائيل من نبيهم أن يدعو الله لهم ليرسل لهم ملكا يقودهم للجهاد فى سبيل الله :

﴿ ألم[1] تر إلى الملأ من بنى إسرائيل ، من بعد موسى ، إذ قالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله . قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال

---

(1) البقرة : ٢٤٦ - ٢٥٢ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ١ ، ص ٣٠٠ - ٣٠٣ ، فى ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ٢٦١ ، ٢٧١ .

ألّا تقاتلوا ، قالوا : وما لنا ألّا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا ، وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلّا قليلا منهم . والله عليم بالظالمين ﴾ .

﴿ وقال لهم نبيهم : إنَّ الله قد بعث لكم طالوت ملكا . قالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال قال : إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، تحمله الملائكة ، إنَّ فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين[١] ، فلما فصل طالوت بالجنود ، قال : إن الله مبتليكم بنهر[٢] فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفةً بيده ، فشربوا مِنْه إلّا قليلا منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه ، قالوا ؟ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده . قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ، كم من فئة قليلة[٣] غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبرا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود[٤] جالوت ، وآتاه الله الملك

---

(١) أورد الطبرى ، جا ، ص ٤٦٧ : (لما طال عليهم البلاء ، وأذلتهم الملوك من غيرهم ، ووطئت بلادهم ، وقتلوا رجالهم ، وسبوا ذراريهم ، غلبوهم على التابوت الذى فيه السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ، رغبوا إلى الله عز وجل أن يبعث لهم نبيا يقيم أمرهم ، فاستجاب الله لهم وأرسل لهم طالوت ملكا) .

(٢) نهر فلسطين .

(٣) يقول الطبرى ، جا ، ص ٤٦٩ : (وخلص فى ثلثمائة وتسعة عشر عدة أهل بدر) .

(٤) وداود كان فتى صغيرا من بنى إسرائيل . وجالوت كان ملكا قويا وقائدا مخوفا ، ولكن شاء الله أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجرى بظواهرها إنَّما تجرى بحقائقها .. وحقائقها يعلمها هو . ومقاديرها فى يده وحده ، فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم ويفوا لله بعهدهم ، ثم يكون ما يريده الله بالشكل الذى يريده . وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير ، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف يغلبهم الصبية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم . وكانت هناك حكمة أخرى معنية يريدها الله ، فلقد قرر أن يكون داود هو الذى يتسلم الملك بعد طالوت ، ويرثه ابنه سليمان ، فيكون عهدهما هو العهد الذهبى لبنى إسرائيل فى تاريخهم الطويل من جراء انتفاضة العقيدة فى نفوسهم بعد الضلال والانكسار والتردد . ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ .

والحكمة ، وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ .

إيحاءات وتوجيهات النص القرآني وهو يعرض أخبار بني إسرائيل مع طالوت وداود :

إنها تجربة فى حياة بنى إسرائيل من بعد موسى .. بعد ما ضاع ملكهم ، ونهبت مقدساتهم ، وذلوا لأعدائهم[1] ، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدى ربهم وتعاليم نبيهم ، ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة واستيقظت فى قلوبهم العقيدة ، واشتاقوا للقتال فى سبيل الله : فقالوا لنبىلهم: ﴿ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ﴾

ومن خلال هذه التجربة تبرز جملة حقائق ، تحمل إيحاءات قوية للجماعة المسلمة فى كل جيل ، فضلا عن ما كانت تحمله للجماعة المسلمة فى ذلك الحين .

والعبرة التى تبرز من القصة كلها هى أن هذه الانتفاضة — انتفاضة العقيدة — على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف ، ومن تخلى القوم عنها فوجا بعد فوج فى مراحل الطريق — على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين قد حقق لبنى إسرائيل نتائج ضخمة جدا — فقد كان فيها النصر والتمكين ، بعد الهزيمة المنكرة ، والمهانة الفاضحة ، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين ، ولقد جاءت لهم بملك داود ، ثم ملك سليمان — وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بنى إسرائيل فى الأرض ، وهى عهدهم الذهبى الذى يتحدثون عنه ، والذى لم يبلغوه من قبل فى عهد النبوة

= وكان داود مليكا نبيا وعلمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب كما يفصله القرآن فى مواضعه فى سورة أخرى . (الطبرى ، جـ١ ، ص ٤٧٦ وما بعدها) .

(١) وكان أعداؤهم الذين شردوهم من الأرض المقدسة — التى غلبوا عليها على يد نبيهم يوشع بعد فترة التيه ووفاة موسى — عليه السلام — قد سلبوا منهم مقدساتهم ممثلة فى التابوت الذين يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون . وقيل : كانت فيه نسخة من الألواح التى أعطاها الله لموسى على الطور ..

الكبرى ... وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام ، وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت ..

ومن خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية ، كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة فى كل حين : من ذلك أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها ، فيجب أن يضعوها على محك : التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة ... فقد تقدم الملأ من بنى إسرائيل من ذوى الرأى والمكانة فيهم — إلى نبيهم فى ذلك الزمان ، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكا يقودهم فى المعركة مع أعداء دينهم الذين سلبوا ملكهم وأموالهم ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون . فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال ، وقال لهم : ﴿ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ استنكروا عليه هذا القول ، وارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له ﴿ ومالنا أَلَّا نُقَاتِلَ فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارِنَا وأبنائنا ﴾ .

ولكن هذه الحماسة ما لبثت أن انطفأت شعلتها وتهاوت على مراحل كما تذكر القصة ، وكما يقول السياق بالإجمال : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلَّا قليلا منهم ﴾ . ومع أن لبنى إسرائيل طابعا خاصا فى النكول عن العهد ، والنكوص عن الوعد ، والتفرق فى منتصف الطريق ، إلا أن هذه الظاهرة ظاهرة بشرية على كل حال ، فى الجماعات التى لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغا عاليا من التدريب .. وهى خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة فى أى جيل .. فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بنى إسرائيل .

ومع ذلك أن اختيار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر فى نفوس الجماعات ينبغى ألا يقف عند الابتلاء الأول ، فإن كثرة بنى إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيها وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الحِجَاجْ والجدَالَ حول جدارته بالملك والقيادة ، ووقوع علامة الله باختياره لهم . ورجعة تابوتهم وفيه مخلفات أنبيائهم تحمله الملائكة ؟ ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود فى المرحلة الأولى وضعفوا أمام الامتحان الأول الذى أقامه لهم قائدهم : ﴿ فلما فصل طالوت

بالجنود قال : إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلا منهم ﴾ . وهذا القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية ، فأمام الهول الحى ، أمام كثرة الأعداء وقوتهم ، تهاوت العزائم ، وزلزلت القلوب : ﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ .. وأمام هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة .. اعتصمت بالله ووثقت ، وقالت : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ، بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾ . وهذه هى التى رجحت الكفة ، وتلقت النصر ، واستحقت العز والتمكين .

وفى ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحاذقة المؤمنة ... وكلها واضحة فى قيادة طالوت . تبرز منها خبرته بالنفوس ، وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة ، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى ، ومحاولة اختبار الطاعة والعزيمة فى نفوس جنوده قبل المعركة ، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه . ثم – وهذا هو الأهم – عدم تخاذله ، وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة . ولم يثبت معه فى النهاية إلا تلك الفئة المختارة ، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص ، ووعد الله الصادق للمؤمنين .

والعبرة الأخيرة التى تكمن فى مصير المعركة ... إن القلب الذى يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل ، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود ، فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التى ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا : ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف . إنما حكمت حكما آخر فقالت : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾ . ثم اتجهت لربها تدعوه : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ . وهى تحس أن ميزان القوى ليس فى أيدى الكافرين ، إنما هو فى يد الله وحده ، فطلبت منه النصر ، ونالته من اليد الذى تملكه وتعطيه . وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقا ، وعندما يتحقق فى القلب

الإيمان الصحيح . وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون :

﴿ فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾[1] .

الخلاصـــــة :

ــ الله يبتلى بنى إسرائيل بإخراجهم من ديارهم (بيت المقدس) فيتوبون إلى الله ، ويسألونه أن يرسل إليهم ملكا يقودهم للقتال فى سبيل الله .

ــ الله يستجيب لهم ويبعث لهم طالوت ملكا .

ــ الاعتراض على الاختيار ، بحجة أنه فقير ، ولكن ربنا الله رب العالمين لا يسأل عما يفعل وهم يسألون والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس .

ــ الآيات التى أيد الله بها طالوت .

ــ طالوت يخوض ببنى إسرائيل العديد من الاختبارات قبل ملاقاة أعداء الله فى القتال .

ــ لقاء العدو ؛ الله يثبت الصف المؤمن .

ــ داود يقتل طالوت . الله يكافىء داود فيهبه الملك والحكمة ويسبغ عليه من فضله الواسع .

ــ الدروس المستفادة ، ومنها :

الجهاد هو المحك العملى والسبيل الوحيد لتبين الصدوق من الكذوب ، من بين الذين يرفعون شعارات الجهاد فى سبيل الله .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ٢ ، ص ٥ – ٩ .

فها هم الملأ من بنى إسرائيل يطلبون من نبى لهم أن يبعث لهم ملكا يقودهم للقتال فى سبيل الله ، فيسألهم إن كانوا جادين فى هذا الطلب ، فيزعمون أنهم جادون وخاصة أنهم قد أخرجوا من ديارهم وأموالهم ...

وفى الطريق تبين القائد : أن الجهاد فى سبيل الله مجرد شعار رفعه الملأ من بنى إسرائيل ، إنما الأصل هو الجهاد فى سبيل الديار والمال ، ولذلك فقد حرمهم الله - سبحانه وتعالى - من نعمة الجهاد فى سبيل الله ، لقد عرف قائدهم المسلم مرض هذه الفئة وعلتها ، وأنه بمثل هذه النفوس لا يمكن أن يخوض معركة ضد الكفر وأهله وينتصر فيها ، فمكث يربيهم ويوجههم حتى خلصت نفوس البعض تماما لله عز وجل ، وأصبحت الغاية هى القتال فى سبيل الله ، وأنه لابد من طلب النصرة من الله ، ولذلك فقد قالوا : ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ﴾(١) .

وعندما اتضحت القضية ، وهى أن الجهاد لابد وأن يكون فى سبيل الله وأن يكون خالصا لله تعالى ، وتميز الصف ، وسقط أصحاب الشعارات الزائفة ، استجاب رب العزة : ﴿ فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾(٢) .

---

(١) البقرة : ٢٥٠ .

(٢) البقرة : ٢٥١ .



الجـزء الثـانى

سـيرة داود عليه السـلام

ينسب داود عليه السلام إلى إبراهيم الخليل عبدالله ونبيه وخليفته فى أرض بيت المقدس ، جمع الله له بين الملك والنبوة ، بين خيرى الدنيا والآخرة . وقتل داودُ جالوتَ ، وآتاه الله الملكَ والحكمةَ وعلّمه مما يشاء . ولولا إقامة الملوك حكاما على الناس لأكل قوى الناس ضعيفهم . ولذلك قال أمير المؤمنين عثمان ابن عفان : « إن الله ليزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن » .

ومعلوماتنا عن هذا النبى الكريم تعتمد على ما ورد فى القرآن وما ورد فى أحاديث النبى محمد ﷺ .

يقـول الله تعالـى :

ـ ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوبى معه ، والطير ، وألنَّا له الحديد ، أن اعمل سابغاتٍ وقدِّر فى السردِ ، واعملوا صالحا إنِّى بما تعملون بصير ﴾[1] .

ـ ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ، وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾[2] .

---

(١) سبأ : ١٠ - ١١ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٢) الأنبياء : ٧٩ - ٨٠ أى أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلين من الأعداء وليأكل من عمل يده ، وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال فقدر فى السرد : أى لا تدق المسمار فيفلق ، ولا تغلظه فيفصم . ولقد أثنى محمد ﷺ على داود : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن نبى الله داود كان يأكل من كسب يده » . (البداية والنهاية ، جـ٢ ، ص ١٠ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

— ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنَّه أواب . إنَّا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾[1] .

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود . كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه . وكان يصوم يوما ويفطر يوما . ولا يفر إذا لاقى » .

— ﴿ وهل أتاك[2] نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا : لا تخف خصمان بغى بعضُنَا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدِنَا إلىَ سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال : أكفلنيها ، وعزنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

— ﴿ يا داود إنَّا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إنَّ الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[3] .

---

(١) سورة ص : ١٧ – ٢٠ ؛ الأيد : القوة فى الطاعة ، يعنى ذا قوة فى العبادة والعمل الصالح . قال قتادة : أعطى قوة فى العبادة وفقها فى الإسلام . – أوبى معه : أى سبحي معه – روى أن الله قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحدا ، بمعنى أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير فى السماء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيا صلوات الله وسلامه عليه (البداية والنهاية ، جـ٢ ، ص ١١) . روى أن رسول الله سمع صوت أبى موسى الأشعرى وهو يقرأ فقال : لقد أعطى أبو موسى من مزامير داود . (البداية والنهاية ، جـ٢ ، ص ١١) . – شددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب : أى أعطيناه ملكا عظيما وحكما نافذا ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٢٩ – ٣٠ .

(٢) ص : ٢١ – ٢٥ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٣١ – ٣٢ .

(٣) ص : ٢٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٢ .

هذا الخطاب من الله تعالى مع داود ، والمراد ولاة الأمور وحكام الناس وأمرهم بالعدل ، واتباع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الآراء والأهواء وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك . وقد كان داود هو المقتدى به فى ذلك الوقت فى العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات حتى أنه كان لا يمضى ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته فى عبادة ليلا أو نهارا كما قال تعالى : ﴿ اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾ .

وقد توفى داود عليه السلام وعمره مائة عام ، الدليل على ذلك ما أورده ابن كثير فى أحاديث خلق آدم عليه السلام ، إن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ، ورأى فيهم رجلا يزهر فقال : أى رب من هذا ؟ قال : هذا ابنك داود . قال : رب كم عمره ؟ قال : ستون عاما . قال : أى رب زد فى عمره ، قال : لا ، إلا أن أزيده من عمرك ، وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاما . فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال بقى من عمرى أربعون سنة ، ونسى آدم ما كان وهبه لولده داود فأتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة[1] .

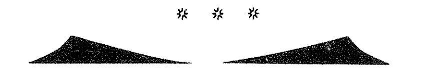
وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا قبيصة حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن بن محمد بن عمرو بن أبى عمرو عن المطلب عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ ، قال : « كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة ، فكان إذا خرج أغلق الأبواب . فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع . قال : فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن فى البيت : من أين دخل هذا الرجل ، والدار مغلقة والله لنفتضحن بداود ، فإذا الرجل قائم فى وسط الدار ، فقال له داود : من أنت ؟ فقال : أنا الذى لا أهاب الملوك ولا أُمْنَعُ مِنَ الحجاب . فقال داود : أنت والله إذن ملك الموت ، مرحبا بأمر الله . ثم مكث حتى قبضت روحه ، فلما غسل

---

(١) رواه أحمد عن ابن عباس والترمذى وصححه عن أبى هريرة ، وابن خزيمة وابن حبان . وقال الحاكم على شرط مسلم . (البداية والنهاية ، جـ٢ ، ص ١٦ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٣٥٨) .

وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس فقال سليمان للطير : أظلى على داود فأظلته الطير حتى أظلت عليه الأرض . فقال سليمان للطير : اقبضى جناحا . قال ، قال أبوهريرة : فطفق رسول الله ﷺ بيده وغلبت عليه يومئذ المضرحية » .

* * *



الفصل السادس

سيرة سليمان عليه السلام

من هو سليمان عليه السلام ؟ وإلى من ينتسب ؟ وأين كان ينزل ؟ ومن أين أتى ؟ ما مدى التمكين الذى تحقق له فى أرض الله ؟ وهل قامت له دولة ؟ وما هى الحدود التى كانت عليها ؟ وهل يمكن تحديد زمن تقريبى لها ؟ وهل يمكن التعرف على جوانب من تاريخ تلك الدولة الفكرى والعقائدى والسياسي والاقتصادى والاجتماعي ؟ .

ما هى مصادر ومراجع معلوماتنا عن هذا النبى الكريم وقومه ؟ وما هي الاستفادة التى يمكن أن تعود على الدارس لتاريخ سليمان عليه السلام وقومه ؟ .

تلك أسئلة كثيرة تدور فى ذهن الراغب فى التعرف على حقيقة تاريخ هذا النبى الكريم ، وتاريخ الدولة التى كان يحكمها ، وطبيعة القوم الذين بعث فيهم .

وسنحاول بإذن الله – اعتمادا على الله ثم على ما بين أيدينا من مصادر صحيحة الإجابة على هذه الأسئلة بقدر الاستطاعة ، دون أن نتطرق إلى محاولة إدراج أى من الافتراضات التى لا تعتمد على وثائق صحيحة توفيرا لجهد القارىء والباحث ، حتى ينصرف إلى ما يفيده فى دنياه وأخراه .

سليمان – عليه السلام – رسول كريم بعث فى بلاد الشام والبلاد المجاورة ، بعد وفاة والده داود – عليه السلام – . وداود عليه السلام ينتهى نسبه إلى إبراهيم الخليل – عليه السلام – ، وكانوا جميعا ينزلون بالأرض التى بارك الله فيها للعالمين (بيت المقدس) ، والتى كان ينزل فيها آباؤهم وأجدادهم يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام .

وقد مكن الله لداود وأعطاه النبوة والملك والحكمة . كما مكن لابنه سليمان من بعده فأعطاه ملكا لم ولن ينبغى لأحد من بعده كما سنرى .

وسليمان عليه السلام قامت على عهده وعهد أبيه دولة إسلامية عاصمتها بيت المقدس ، وحدودها من المؤكد كانت تشمل بلاد الشام الحالية (سورية وفلسطين) وتشمل الجزيرة العربية كلها .

هذه الدولة كانت تعاصر ما يطلق عليه المشتغلون بالتاريخ فى عصرنا الحاضر ، اسم الدولة السبأية الأولى (٩٥٠ - ٦٥٠ ق .م؟؟) . والدولة التي كان يحكمها داود وسليمان كانت دولة عقائدية دينها الإسلام ، وسنعرض لجوانب من تاريخها السياسى والاجتماعى والاقتصادى إن شاء الله .

والتعرف على تاريخ هذه الدولة يستلزم منا التعرض لتاريخ الدولة الإسلامية التى قامت على عهد سليمان - عليه السلام - وكانت عاصمتها بيت المقدس ، وعلاقتها بالدولة السبأية قبل إسلامها وبعد إسلامها ، ثم بعد ردتها . مع العلم بأن مصادر معلوماتنا عن هذه الفترة وتاريخها هما القرآن والسنة وشروح المفسرين والمحدثين ، بالإضافة إلى ما ورد فى بعض كتابات المؤرخين المسلمين كالطبرى وابن كثير .

وسنعرض :

للنصوص القرآنية وتفاسيرها التى يمكن أن نستنبط منها بعض الملامح التاريخية الأساسية لهذه الفترة ، مع استخلاص الدروس المستفادة ، والوقوف عند رؤوس العظات والعبر .

عرض لأحداث السيرة مع بيان
الدروس المستفادة

النص القرآني : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمانُ داودَ وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء ، إنّ هذا لهو الفضل المبين . وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علي وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين . وتفقد الطير فقال : ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذاباً شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنّى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألّا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت : يا أيها الملأ ، إنّي ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علي ، وأتونى مسلمين . قالت : يا أيها الملأ ، أفتونى فى أمري ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون . وإنّى مرسلةٌ إليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع

المرسلون . فلما جاء سليمان ، قال : أتمدونني بمال ، فما أتاني الله خير مما أتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنّهم منها أذلة وهم صاغرون . قال : يا أيها الملأ ، أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإنّي عليه لقوي أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربي ليبلوني ، ءأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنَّما يَشكُرُ لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم . قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنَّه هو . وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبدُ من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها : ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها ، قال : إنَّه صرح ممرد من قوارير . قالت : رب إنِّي ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾[1] .

الشروح مع الدروس المستفادة :

أولا : الشروح :

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما . وقالا : الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ .

هذه هي إشارة البدء في الخبر التاريخي . وإعلان الافتتاح . خبر تقريري عن أبرز النعم التي أنعم الله بها على داود وسليمان – عليهما السلام – نعمة العلم . فأما عن داود فقد ورد تفصيل ما آتاه الله من العلم في سورة أخرى . منها

---

(١) النمل : ١٥ – ٤٤ ؛ أوزعني ، ألهمني وأرشدني . وقد روى عن النبي ﷺ قال : قالت أم سليمان بن داود : « يابني لاتكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرا يوم القيامة » . رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه (البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٠) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٥٨ – ٣٦٦ .

تعليمه الترتيل بمقاطع الزبور ، ترتيلا يتجاوب به الكون من حوله ، فتثوب الجبال معه والطير ، لحلاوة صوته ، وحرارة نبراته ، واستغراقه فى مناجاة ربه ، وتجرده من العوائق والحواجز التى تفصل بينه وبين ذرات هذا الوجود . ومنها تعليمه صناعة الزرد وعدة الحرب ، وتطويع الحديد له ، ليصوغ منه من هذا ما يشاء ، ومنها تعليمه القضاء بين الناس ، مما شاركه فيه سليمان .

وأما سليمان ففى هذه السورة تفصيل ما علمه الله من منطق الطير وما إليه ، بالإضافة إلى ما ذكر فى سور أخرى من تعليمه القضاء ، وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله .

تبدأ القصة بتلك الإشارة ، ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ وقبل أن تنتهى الآية يجىء شكر داود وسليمان على هذه النعمة ، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم ، والحمد لله الذى فضلهما بها على كثير من عباده المؤمنين . فتبرز قيمة العلم ، وعظمة المنة به من الله على العباد ، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين .

ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار ، وللإيحاء بأن العلم كله هبة من الله ، وبأن اللائق بكل ذى علم أن يعرف مصدره ، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه ، وأن ينفقه فيما يرضى الله الذى أنعم به وأعطاه . فلا يكون العلم مبعدا لصاحبه عن الله ، ولا منسيا له إياه . وهو بعض مننه وعطاياه[1] .

والعلم الذى يبعد القلب عن ربه علم فاسد ، زائغ عن مصدره وعن هدفه ، لايثمر سعادة لصاحبه ولا للناس ، إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار ، لأنه انقطع عن مصدره ، وانحرف عن وجهته ، وضل طريقه إلى الله ....

ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم ، بتحطيم الذرة واستخدامها . ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذى

---

(١) فى ظلال القرآن ، المجلد الخامس ؛ ص ٢٦٣٢ - ٢٦٤٢ .

لا يذكر أصحابه الله ، ولا يخشونه ، ولا يحمدون له ، ولا يتوجهون بعلمهم إليه ؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية فى قنبلتى « هيروشيما » و « ناجازاكى » وغير الخوف والقلق الذى يؤرق جفون الشرق والغرب ويتهددها بالتحطيم والدمار والفناء[1] ؟ .

وبعد تلك الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان ، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها يفرد سليمان بالحديث :

﴿ وورث سليمان داود . وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء . إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ .. .

وداود أوتى الملك مع النبوة والعلم . ولكن الملك لا يذكر فى صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان ، إنما يذكر العلم ، لأن الملك أصغر من أن يذكر فى هذا المجال ! .

﴿ وورث سليمان داود ﴾ والمفهوم أنها وراثة العلم ، لأنه هو القيمة العليا التى تستأهل الذكر . ويؤكد هذا إعلان سليمان فى الناس : ﴿ قال : يا أيها الناس عُلِّمْنَا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء ﴾ ... فيظهر ما علمه من منطق الطير ويجمل بقية النعم مع إسنادها إلى المصدر الذى علمه منطق الطير . وليس هو داود . فهو لم يرث هذا عن أبيه . وكذلك ما أوتيه من كل شيء إنما جاء من حيث جاءه ذلك التعليم .

---

(١) قال البروفسور « م . ى . أولى فنيت » الأستاذ بجامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية فى إعداد القنبلة الذرية . بعد حادثى هيروشيما وناجازاكى :

« وأنا على يقين أنه سيظهر فى مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن فى قوة الانفجار . وستليها قنابل قوتها مليون . ولا ينفع فى التوقى منها دفاع أو احتياط . وإن ست قنابل من هذا القبيل تكفى لتدمير انجلترا على بكرة أبيها » .

وقد صحت توقعاته وانتجت القنابل الهيدروجينية التى تعد قنبلتا هيروشيما وناجازاكى بالقياس إليها لعبة أطفال !

وبهذه المناسبة نذكر أن قنبلة هيروشيما قد قتلت لفورها من اليابانيين من يترواح بين عشرة ومائتى ألف وأربعين ومائتى ألف . وذلك غير المشوهين والمعوقين الذين ماتوا بعد ذلك . وهم يعدون بعشرات الألوف !!

﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ ... يذيعها سليمان – عليه السلام – فى الناس تحدثا بنعمة الله ، وإظهارا لفضله ، لا مباهاة ولا تنفجا على الناس . ويعقب عليها ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ فضل الله الكاشف عن مصدره ، الدال على صاحبه . فما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله . وكذلك لا يؤتى أحدا من كل شيء – بهذا التعميم إلا الله .

وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم – هى لغاتها ومنطقها – فيما بينها . والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ ولا تكون أمما حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها ، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها . وذلك ملحوظ فى حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات . ويجتهد علماء هذه الأنواع فى إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين . فأما ما وهبه الله لسليمان – عليه السلام – فكان شأنا خاصا به على طريق الخارقة التى تخالف مألوف البشر . لا على طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفهم وسائل الطير وغيره فى التفاهم ، على طريق الظن والحدس ، كما هو حال العلماء اليوم .. .

أحب أن يتأكد هذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قصه القرآن عن سليمان – عليه السلام – فى هذا الشأن بأنه نوع من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة . وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها ، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشرى القليل ... وأنه لأيسر شيء وأهون شيء على الله ، أن يعلم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات ، هبة لدنية منه ، بلا محاولة ولا اجتهاد . وإن هى إلا إزاحة لحواجز النوع التى أقامها الله بين الأنواع وهو خالق هذه الأنواع ! .

على أن هذا كله لم يكن إلا شقا واحدا للخارقة التى أتاحها الله لعبده سليمان . أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطير لتكون تحت إمرته ، وطوع أمره ، كجنوده من الإنس سواء بسواء ، والطائفة التى سخرها له من الطير وهبها إدراكا خاصا أعلى من إدراك نظائرها فى أمة الطير .

يبدو ذلك فى قصة الهدهد الذى أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم . وكان ذلك كذلك على طريق الخارقة والإعجاز .

حقيقة أن سنة الله فى الخلق جرت على أن يكون للطير إدراك خاص يتفاوت فيما بينه ، ولكنه لايصل إلى مستوى إدراك الإنسان ، وأن خلقه الطير على هذا النحو حلقة فى سلسلة التناسق الكونى العام . وأنها خاضعة – كحلقة مفردة – للناموس العام ، الذى يقتضى وجودها على النحو الذى وجدت به .

وحقيقة أن الهدهد الذى يولد اليوم ، هو نسخة من الهدهد الذى وجد منذ ألوف أو ملايين من السنين ، منذ أن وجدت الهداهد . وأن هناك عوامل وراثة خاصة تجعل منه نسخة تكاد تكون طبق الأصل من الهدهد الأول . ومهما بلغ التحوير فيه ، فهو لا يخرج من نوعه ، ليرتقى إلى نوع آخر ، .. وأن هذا – كما يبدو – طرف من سنة الله فى الخلق ، ومن الناموس العام المنسق للكون .

ولكن هاتين الحقيقتين الثابتتين لا تمنعان أن تقع الخارقة عندما يريدها الله خالق السنن والنواميس . وقد تكون الخارقة ذاتها جزءا من الناموس العام ، الذى لا نعرف أطرافه . جزءا يظهر فى موعده الذى لا يعلمه إلا الله ، يخرق المألوف المعهود للبشر ، ويكمل ناموس الله فى الخلق والتناسق العام . وهكذا وجد هدهد سليمان . وربما كل الطائفة من الطير التى سخرت له فى ذلك الزمان .

ونعود من هذا الاستطراد إلى تفصيل قصة سليمان بعد وراثته لداود وإعلانه ما حباه الله به من علم وتمكين وأفضال ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ . .

فهذا هو موكب سليمان محشود محشور ، يتألف من الجن والإنس والطير . والإنس معروفون ، أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم فى القرآن . وهو أنه خلقهم من مارج من نار . أى من لهيب متموج من النار . وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ (الكلام عن إبليس أو الشيطان وإبليس من الجن) وإنهم

قادرون على الوسوسة فى صدور الناس بالشر عادة والإيحاء لهم بالمعصية - ولا ندرى كيف - وأن منهم طائفة آمنت برسول الله - ﷺ - ولم يرهم هو أو يعرف منهم إيمانهم ولكن أخبره الله بذلك إخبارا : ﴿ قل : أوحى إلى أنَّهُ استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ .. ونعرف أن الله سخر طائفة منهم لسليمان يبنون له المحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام ، ويغوصون له فى البحر ، ويأتمرون بأمره بإذن الله . ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا فى موكبه مع إخوانهم من الإنس والطير .

ونقول : إن الله سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير كما سخر له طائفة من الإنس . وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جندا لسليمان - إذ إن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات - فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مسخرين له ، إنما كانت طائفة من كل أمة على السواء .

ونستند فى مسألة الجن إلى أن إبليس وذريته من الجن كما قال القرآن .. ﴿ إن إبليس كان من الجن ﴾ .. وقال فى سورة « الناس » : ﴿ الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ . وهؤلاء كانوا يزاولون الإغواء والشر والوسوسة للبشر فى عهد سليمان . وما كانوا ليزاولوا هذا وهم مسخرون له مقيدون بأمره . وهو نبى يدعو إلى الهدى . فالمفهوم إذن أن طائفة من الجن هى التى كانت مسخرة له .

ونستند فى مسألة الطير إلى أن سليمان حين تفقد الطير علم بغيبة الهدهد ولو كانت جميع الطيور مسخرة له ، محشورة فى موكبه ، ومنها جميع الهداهد ، ما استطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد فضلا على بلايين الطير . مالى لا أرى الهدهد ؟ فهو إذن هدهد خاص بشخصه وذاته ، وقد يكون هو الذى سخر لسليمان من أمة الهداهد ، أو يكون صاحب النوبة فى ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه . ويعين على هذا ما ظهر من أن ذلك الهدهد موهوب إدراكا خاصا ليس من نوع إدراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة .

ولابد أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التى سخرت لسليمان ، لا لجميع الهداهد وجميع الطيور . فإن نوع الإدراك الذى ظهر من الهداهد الخاص فى مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس ! .

حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، وهو موكب عظيم ، وحشد كبير ، يجمع أوله على آخره ﴿ فهم يوزعون ﴾ حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى . فهو حشد عسكرى منظم . يطلق عليه اصطلاح الجنود ، إشارة إلى الحشد والتنظيم .

﴿ حتى إذا أتوا على وادى النمل . قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ . .

لقد سار الموكب . موكب سليمان من الجن والإنس والطير . فى ترتيب ونظام ، يجمع آخره على أوله ، وتضم صفوفه ، وتتلاءم خطاه . حتى إذا أتوا على واد كثير النمل ، حتى لقد أضافه التعبير إلى النمل فسماه « وادى النمل » قالت نَمْلَةٌ . لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح فى الوادى — ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم ، تتنوع فيها الوظائف وتؤدى كلها بنظام عجيب . يعجز البشر غالبا من اتباع مثله ، على ما أوتوا من عقل راق وإدراك عال — قالت هذه النملة للنمل ، بالوسيلة التى تتفاهم بها أمة النمل ، وباللغة المتعارفة بينها . قالت للنمل : ادخلوا مساكنكم — كى لايحطمنكم سليمان وجنوده . وهم لا يشعرون بكم .

فأدرك سليمان ما قالت النملة وهش له وانشرح صدره بإدراك ما قالت ، وبمضمون ما قالت . هش لما قالت كما يهش الكبير للصغير الذى يحاول النجاة من أذاه وهو لا يضمر أذاه . وانشرح صدره لإدراكه . فهى نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز . وانشرح صدره له لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك ، وأن يفهم عنها النمل فيطيع ! .

أدرك سليمان هذا ﴿ فتبسم ضاحكا من قولها ﴾ .. وسرعان ما هزته هذه المشاهدة ، وردت قلبه إلى ربه الذى أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه ، واتجه إلى ربه فى إنابة يتوسل إليه :

﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ﴾ . .

بهذا النداء القريب المباشر المتصل .. « أوزعنى » اجمعنى كلى . اجمع جوارحى ومشاعرى ولسانى وجنانى وخواطرى وخلجاتى ، وكلماتى وعباراتى ، وأعمالى وتوجهاتى . اجمعنى كلى . اجمع طاقاتى كلها . أولها على آخرها على أولها (وهو المدلول اللغوى لكلمة أوزعنى) لتكون كلها فى شكر نعمتك على وعلى والدى . .

وهذا التعبير يشى بنعمة الله التى مست قلب سليمان - عليه السلام - فى تلك اللحظة ويصور نوع تأثره ، وقوة توجهه ، وارتعاشة وجدانه ، وهو يستشعر فضل الله الجزيل ، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه ، ويحس مس النعمة والرحمة فى ارتياح وابتهال .

﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ﴾ .. ﴿ وأن أعمل صالحا ترضاه ﴾ .. والعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته ، وسليمان الشاكر الذى يستعين ربه ليجمعه ويقفه على شكر نعمته ، يستعين به كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه . وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله .

﴿ وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ .. .

أدخلنى برحمتك .. فهو يعلم أن الدخول فى عباد الله الصالحين ، رحمة من الله ، تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح ، فيسلك فى عداد الصالحين . يعلم هذا فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين فى هذا الرعيل . يضرع إلى ربه وهو النبى الذى أنعم الله عليه وسخر له الجن والإنس والطير . غير آمن مكر الله - حتى بعد أن اصطفاه ، خائفا أن يقصر به عمله ، وأن يقصر به شكره .. وتلك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته

والتشوق إلى رضاه ورحمته فى اللحظة التى تتجلى فيها نعمته كما تجلت والنملة تقول وسليمان يدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه .

ونقف هنا أمام خارقتين لا خارقة واحدة . خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها . وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده . فأما الأولى فهى مما علمه الله لسليمان . وسليمان إنسان ونبى ، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية فى مقالة النملة . فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر ، وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه . وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة . أما أن تدرك النملة أن هذه الشخوص هى سليمان وجنوده فتلك هى الخارقة الخاصة التى تخرج على المألوف . وتحسب فى عداد الخوارق فى مثل هذه الحال .

قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ :

والآن نأتى إلى قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ وهى مقطعة إلى ستة مشاهد ، بينها فجوات فنية ، تدرك من المشاهد المعروضة ، وتكمل جمال العرض الفنى فى القصة ، وتتخللها تعقيبات على بعض المشاهد تحمل التوجيه الوجدانى المقصود بعرضها فى السورة ، وتحقق العبرة التى من أجلها يساق القصص فى القرآن الكريم . وتتناسق التعقيبات مع المشاهدة والفجوات تنسيقا بديعا ، من الناحيتين : الفنية الجمالية ، والدينية الوجدانية .

ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الإشارة إلى الجن والإنس والطير ، كما تضمن الإشارة إلى نعمة العلم ، فإن القصة تحتوى دورا لكل من الجن والإنس والطير . فيها دور العلم كذلك . وكأنما كانت تلك المقدمة إشارة إلى أصحاب الأدوار الرئيسية فى القصة .. وهذه سمة فنية دقيقة فى القصص القرآنى .

كذلك تتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة . شخصية سليمان ، وشخصية الملكة (ملكة سبأ) وشخصية الهدهد ، وشخصية حاشية الملكة . كما تعرض الانفعالات النفسية لهذه الشخصيات فى شتى مشاهد القصة ومواقفها .

يبدأ المشهد الأول فى مشهد العرض العسكرى العام لسليمان وجنوده ، بعد ما أتوا على وادى النمل ، وبعد مقالة النملة ، وتوجه سليمان إلى ربه بالشكر والدعاء والإنابة :

﴿ وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ .. .

فها هو ذا الملك النبى . سليمان . فى موكبه الفخم الضخم . ها هو ذا يتفقد الطير فلا يجد الهدهد . ونفهم من هذا أنه هدهد خاص ، معين فى نوبته فى هذا العرض . وليس هدهدا ما من تلك الألوف أو الملايين التى تحويها الأرض من أمة الهداهد . كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته : سمة اليقظة والدقة والحزم . فهو لم يغفل عن غيبة جندى من هذا الحشد الضخم من الجن والإنس والطير ، الذى يجمع آخره على أوله كى لا يتفرق وينتكث .

وهو يسأل عنه فى صيغة مترفعة مرنة جامعة : ﴿ مالى لا أرى الهدهد ؟ أَمْ كَانَ مِن الغائبين ؟ ﴾ .

ويتضح أنه غائب ، ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن ! .. وحينئذ يَتعين أن يؤخذ الأمرُ بالحزم ، كى لا تكون فوضى . فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سرا . وإذَا لَمْ يُؤْخَذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندى الغائب المخالف : ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ﴾ .. ولكن سليمان ليس ملكا جبارا فى الأرض ، إنَّما هو نبى ، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب ، فلا ينبغى أنْ يقضى فى شأنه قضاء نهائيا قبل أن يسمع منه ، ويتبين عذره .. ومن ثم تبرز سمة النبى العادل : ﴿ أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ . أى حجة قوية توضح عذره ، وتنفى المؤاخذة عنه .

ويسدل الستار على هذا المشهد الأول فى القصة (أو لعله كان ما يزال قائما) ويحضر الهدهد . ومعه نبأ عظيم ، بل مفاجاة ضخمة لسليمان ، ولنا نحن الذين نشهد أحداث الرواية الآن ! .

﴿ فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنِّى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون ألَّا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ . . .

إنه يعرف حزم الملك وشدته . فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته ، وتضمن إصغاء الملك له . ﴿ أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ .. فأى ملك لا يستمع وأحد رعاياه يقول له : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ ! .

فإذا ضمن إصغاء الملك بعد هذه المفاجأة أخذ فى تفصيل النبأ اليقين الذى جاء به من سبأ – ومملكة سبأ تقع فى جنوب الجزيرة باليمن – فذكر أنه وجدهم تحكمهم امرأة ، ﴿ أوتيت من كل شىء ﴾ وهى كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب الحضارة والمتاع . ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ . أى سرير ملك فخم ضخم ، يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة . وذكر أنه وجد الملكة وقومها ﴿ يسجدون للشمس من دون الله ﴾ وهنا يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم ، فأضلهم ، فهم لايهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير ﴿ الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ﴾ والخبء : المخبوء إجمالا سواء أكان هو مطر السماء ونبات الأرض ، أم كان هو أسرار السماوات والأرض . وهى كناية عن كل مخبوء وراء ستار الغيب فى الكون العريض ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ وهى مقابلة للخبء فى السماوات والأرض بالخبء فى أطواء النفس . ما ظهر منه وما بطن .

والهدهد إلى هذه اللحظة يقف موقف المذنب . الذى لم يقض الملك فى أمره بعد ، فهو يلمح فى ختام النبأ الذى يقصه ، إلى الله الملك القهار ، رب الجميع ، صاحب العرش العظيم ، الذى لا تقاس إليه عروش البشر . ذلك كى يطامن الملك من عظمته الإنسانية أمام هذه العظمة الإلهية :

﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ . . .

فيلمس قلب سليمان – فى سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها – بهذه الإشارة الخفية ! .

ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب . صاحب إدراك وذكاء وإيمان ، وبراعة فى عرض النبأ ، ويقظة إلى طبيعة موقفه ، وتلميح وإيماء أريب .. فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية . ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله . ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض ، وأنه هو رب العرش العظيم .. وما هكذا تدرك الهداهد . إنما هو هدهد خاص أوتى هذا الإدراك الخاص ، على سبيل الخارقة التى تخالف المألوف .

ولا يتسرع سليمان فى تصديقه أو تكذيبه ، ولا يستخفه النبأ العظيم الذى جاءه به . إنما يأخذ فى تجربته ، للتأكد من صحته . شأن النبى العادل والملك الحازم :

﴿ وقال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾ .

ولا يعلن فى هذا الموقف فحوى الكتاب ، فيظل ما فيه مغلقا كالكتاب نفسه ، حتى يفتح ويعلن هناك وتعرض المفاجأة الغنية فى موعدها المناسب ! .

ويسدل الستار على هذا المشهد ليرفع فإذا الملكة وقد وصل إليها الكتاب وهى تستشير الملأ من قومها فى هذا الأمر الخطير :

﴿ قالت : يا أيها الملأ إنِّى ألقى إلىّ كتاب كريم . إنه من سليمان ، وإنه باسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ . . .

فهى تخبرهم أنه ألقى إليها كتابا . ومن هذا نرجح أنها لم تعلم من ألقى إليها الكتاب ، ولا كيف ألقاه . ولو كانت تعرف أن الهدهد هو الذى جاء به كما تقول التفاسير – لأعلنت هذه العجيبة التى لا تقع كل يوم . ولكنها قالت بصيغة المجهول . مما يجعلنا نرجح أنها لم تعلم كيف ألقى إليها ولا من ألقاه .

وهى تصف الكتاب بأنه « كريم » . وهذا الوصف ربما خطر لها من خاتمه أو شكله . أو من محتوياته التى أعلنت عنها للملأ : ﴿ إنه من سليمان ، وإنه باسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ .. وهى كانت لا تعبد الله . ولكن صيت سليمان كان ذائعا فى هذه الرقعة ، ولغة الكتاب التى يحكيها القرآن فيها استعلاء وحزم وجزم . مما قد يوحى إليها بهذا الوصف الذى أعلنته .

وفحوى الكتاب فى غاية البساطة والقوة . فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم . ومطلوب فيه أمر واحد :

ألا يستكبروا على مرسله ويستعصوا ، وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذى يخاطبهم باسمه .

ألقت الملكة إلى الملأ من قومها بفحوى الكتاب ، ثم استأنفت الحديث تطلب مشورتهم ، وتعلن إليهم أنها لن تقطع فى الأمر إلا بعد هذه المشورة ، برضاهم وموافقتهم :

﴿ قالت : يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ﴾ . . .

وفى هذا تبدو سمة الملكة الأريبة ، فواضح منذ اللحظة الأولى أنها أخذت بهذا الكتاب الذى ألقى إليها من حيث لاتعلم ، والذى يبدو فيه الحزم والاستعلاء . وقد نقلت هذا الأثر إلى نفوس الملأ من قومها وهى تصف الكتاب بأنه « كريم » وواضح أنها لا تريد المقاومة والخصومة ، ولكنها لا تقول هذا صراحة ، إنما تمهد له بذلك الوصف . ثم تطلب الرأى بعد ذلك والمشورة ! .

وعلى عادة رجال الحاشية أبدوا استعدادهم للعمل . ولكنهم فوضوا للملكة الرأى :

﴿ قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ﴾ .

وهنا تظهر شخصية « المرأة » من وراء شخصية الملكة . المرأة التى تكره الحروب والتدمير ، والتى تنضى سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضى سلاح القوة والمخاشنة :

﴿ قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ .

فهى تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية (والقرية تطلق على المدينة الكبيرة) أشاعوا فيها الفساد . وأباحوا دمارها ، وانتهكوا حرماتها ، وحطموا القوة المدافعة عنها ، وعلى رأسها رؤساؤها ، وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة . وأن هذا هو دأبهم الذى يفعلونه .

والهدية تلين القلب . وتعلن الود ، وقد تفلح فى دفع القتال . وهى تجربة فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا ، ووسائل الدنيا إذن تجدى . وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة ، الذى لايصرفه عنه مال ، ولا عرض من أعراض هذه الأرض .

ويسدل الستار على المشهد ، ليرفع ، فإذا مشهد رسل الملكة وهديتهم أمام سليمان . وإذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال . أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام . ويعلن فى قوة وإصرار تهديده ووعيده الأخير .

﴿ فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ . .

وفى الرد استهزاء بالمال ، واستنكار للاتجاه إليه فى مجال غير مجاله . مجال العقيدة والدعوة : أتمدونن بالمال ؟ « أتقدمون لى هذا العرض التافه الرخيص ؟ » ﴿ فما آتانى الله خير مماآتاكم ﴾ لقد آتانى من المال خيرا مما لديكم ولقد آتانى ما هو خير من المال على الإطلاق ، العلم والنبوة . وتسخير الجن والطير ، فما عاد شىء من عرض الأرض يفرحنى ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ وتهشون لهذا النوع من

القيم الرخيصة التى تعنى أهل الأرض ، الذين لا يتصلون بالله ، ولا يتلقون هداياه ! .

ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد : ﴿ ارجع إليهم ﴾ بالهدية وانتظروا المصير المرهوب ﴿ فلنأيتنهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾ جنود لم تسخر للبشر فى أى مكان ، ولا طاقة للملكة وقومها بهم فى نضال : ﴿ ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ مدحورون مهزومون .

ويسدل الستار على هذا المشهد العنيف وينصرف الرسل ، ويدعهم السياق لا يشير إليهم بكلمة كأنما قضى الأمر ، وانتهى الكلام فى هذا الشأن .

ثم إذا سليمان – عليه السلام – يدرك أن هذا الرد سينهى الأمر مع ملكة لا تريد العداء – كما يبدو من طريقتها فى مقابلة رسالته القوية بهدية ! ويرجح أنها ستجيب دعوته ، أو يؤكد . وقد كان .

ولكن السياق لا يذكر كيف عاد رسلها إليها ، ولا ماذا قالوا لها ، ولا ماذا اعتزمت بعد . إنما يترك فجوة نعلم مما بعدها أنها قادمة . وأن سليمان يعرف هذا ، وأنه يتذاكر مع جنوده فى استحضار عرشها ، الذى خلفته فى بلادها محروسا مصونا :

﴿ قال : يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك . وإنِّى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ .. .

ترى ما الذى قصد إليه سليمان – عليه السلام – من استحضار عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها ؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التى تؤيده ، لتؤثر فى قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله ، والإذعان لدعوته .

وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه .. وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح إلى الظهر فيما يروى . فاستطول سليمان هذه الفترة واستبطأها – فيما يبدو – فإذا الذى عنده علم من الكتاب « يعرض أن

يأتى به فى غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه ، ولا يذكر اسمه . ولا الكتاب الذى عنده علم منه . إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله ، موهوب سرا من الله يستمد به من القوة الكبرى التى لاتقف لها الحواجز والأبعاد . وهو أمر يشاهد أحيانا على أيدى بعض المتصلين . ولم يكشف سره ولا تعليله ، لأنه خارج عن مألوف البشر فى حياتهم العادية . وهذا أقصى ما يقال فى الدائرة المأمونة التى لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات ! .

ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله : ﴿ عنده علم من الكتاب ﴾ فقال بعضهم : إنه التوراة . وقال بعضهم : إنه كان يعرف اسم الله الأعظم . وقال بعضهم غير هذا وذاك . وليس فيما قيل تفسير ولا تعليل مستيقن . والأمر أيسر من هذا كله حين ننظر إليه بمنظار الواقع ، فكم فى هذا الكون من أسرار لا نعلمها ، وكم فيه من قوى لا نستخدمها وكم فى النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نهتدى إليها . فحيثما أراد الله هدى من يريد إلى أحد هذه الأسرار وإلى واحدة من هذه القوى فجاءت الخارقة التى لا تقع فى مألوف الحياة ، وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره ، حيث لا يملك من لم يرد الله أن يجريها على يديه أن يجريها .

وهذا الذى عنده علم من الكتاب ، كانت نفسه مهيأة بسبب ما عنده من العلم ، أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التى تتم بها تلك الخارقة التى تمت على يده لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقى ، ولاستخدام ما وهبه الله من قوى وأسرار .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه — عليه السلام — ونحن نرجح أنه غيره . فلو كان هو لأظهره السياق باسمه ، ولما أخفاه . والقصة عنه ، ولا داعى لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر . وبعضهم قال : ﴿ فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربى ، ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ .

ولقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان — عليه السلام — وراعه أن يحقق الله له مطلبه على هذا النحو المعجز واستشعر أن النعمة — على هذا

النحو – ابتلاء ضخم مخيف ، يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه ، ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه ، ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم ، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه ، والله غنى عن شكر الشاكرين ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، فينال من الله زيادة النعمة ، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء . ومن كفر فإن الله « غنى » عن الشكر « كريم » يعطى عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء .

وبعد هذه الانتفاضة أمام النعمة والشعور بما وراءها من الابتلاء يمضى سليمان – عليه السلام – فى تهيئة المفاجآت للملكة القادمة عما قليل .

﴿ قال : نكروا لها عرشها . ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ غيروا معالمه المميزة له ، لنعرف أن كانت فراستها وفطنتها تهتدى إليه بعد هذا التنكير . أم يلبس عليها الأمر فلا تنفذ إلى معرفته من وراء هذا التغيير .

ولعل هذا كان اختبارا من سليمان لذكائها وتصرفها ، فى أثناء مفاجأتها بعرشها . ثم إذا مشهد الملكة ساعة الحضور :

﴿ فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ﴾ . . .

إنها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال . فأين عرشها فى مملكتها ، وعليها أقفالها وحراسها .. أين هو من بيت المقدس مقر ملك سليمان ؟ وكيف جيء به ؟ ومن ذا الذى جاء به ؟ .

ولكن العرش عرشها من وراء هذا التغيير والتنكير ! .

ترى تنفى أنه هو بناء على تلك الملابسات ؟ أم تراها تقول : إنه هو بناء على ما تراه فيه من أمارات وقد انتهت إلى جواب ذكى أريب : ﴿ قالت : **كأنه هو** ﴾ لا تنفى ولا تثبت ، وتدل على فراسة وبديهة فى مواجهة المفاجأة العجيبة

وهنا فجوة فى السياق . فكأنما أخبرت بسر المفاجأة . فقالت : إنها استعدت للتسليم والإسلام من قبل . أى منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد رد الهدية .

﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ .. .

ثم يتدخل السياق القرآنى لبيان ما كان قد منعها قبل ذلك من الإيمان بالله وصدها عن الإسلام عندما جاءها كتاب سليمان ، فقد نشأت فى قوم كافرين ، فصدها عن عبادة الله عبادتها من دونه من خلقه ، وهى الشمس كما جاء فى أول القصة :

﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله . إنها كانت من قوم كافرين ﴾ .. .

وكان سليمان - عليه السلام - قد أعد للملكة مفاجأة أخرى ، لم يكشف السياق عنها بعد ، كما كشف عن المفاجأة الأولى قبل ذكر حضورها - وهذه طريقة أخرى فى الأداء القرآنى فى القصة غير الطريقة الأولى :

﴿ قيل لها : ادخلى الصرح . فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ! قال : إنه صرح ممرد من قوارير ! قالت : رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .. .

لقد كانت المفاجأة قصرا من البلور ، أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لجة . فلما قيل لها . ادخلى الصرح ، حسبت أنها ستخوض فى تلك اللجة ، فكشفت عن ساقيها ؟ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها : ﴿ قال : إنه صرح ممرد من قوارير ﴾ ! .

ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التى تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر . فرجعت إلى الله ، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره . معلنة إسلامها ومع سليمان « لا لسليمان .. ولكن لله رب العالمين » .

لقد اهتدى قلبها واستنار . فعرفت أن الإسلام لله ليس استسلاما لأحد من خلقه ، ولو كان هو سليمان النبى الملك صاحب هذه المعجزات . إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين . ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة .. ﴿ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

وسجل السياق القرآنى هذه اللفتة وأبرزها ، للكشف عن طبيعة الإيمان بالله ، والإسلام له . فهى العزة التى ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين . بل التى يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين فى الله . لا غالب منهما ولا مغلوب وهما أخوان فى الله .. رب العالمين .. على قدم المساواة .

ثانيا الدروس المستفادة :

- التمكين فى الأرض لمن يعبدون الله ولا يشركون به شيئا ، سنة من سنن الله الثابتة فى حياة الأمم :

يقول الله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾[1] .

فشرط الله لإمضاء وعده بالتمكين للأمم ، هو (أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا) . ووفاءً بالوعد ، فقد مكن الله لداود ، العبد ، الأواب ، المجاهد ، الذى كان على رأس الفئة القليلة المجاهدة التى صمدت فى وجه الفتن داخل الصف المسلم ، وصمدت فى وجه الهجمة الطاغوتية :

﴿ قالوا : ربنا أفرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ﴾[2]

كانت النتيجة :

﴿ فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ﴾ والتمكين لداود :

﴿ وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ﴾[3] .

---

(١) النور : ٥٥ .
(٢) البقرة : ٢٥٠ .
(٣) البقرة : ٢٥٠ - ٢٥١ .

واستمر التمكين للمؤمنين الموحدين على عهد سليمان عليه السلام ، وقامت دولة إسلامية عاصمتها بيت المقدس ، امتدت لتشمل بلاد الشام والجزيرة العربية كلها .

- **إن العلم منحة من الله عز وجل : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ :**

والعلم السليم هو الذى يصل الإنسان بربه ، ويكون وسيلة ، لتحقيق العبودية الكاملة ، لواهب ذلك العلم .

وشكر المنعم بهذا العلم على هذه النعمة له أساليب عديدة ، منها بذل ذلك العلم ابتغاء مرضات الله ، وتسخيره فى خدمة دين الله ، والدعوة إلى الله ، وابتغاء ثواب الآخرة . وعدم استعماله فى طلب الدنيا لذاتها ، ولذلك فإن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجال ، منهم : رجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه « الله سبحانه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : عـالم وقـرأت القرآن ليقال : قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار »[1] .

فذاك رجل وهبه الله علما ، ولكنه جعله مطية للدنيا ، فكان وبالا عليه بدلا من أن يكون خيرا له .

ولفضل العلم الذى يصل الإنسان بربه ، فقد جعل الله سبحانه وتعالى طلبه مما يسهل الله به الطريق إلى الجنة : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة »[2] .

ولذلك فإن العلم الصحيح يثمر ثمرة طيبة فى القلب ، تجعل الإنسان خاشعا ذليلا متبتلا بين يدى الله عز وجل : ﴿ إنَّما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[3] .

وداود وسليمان - عليهما السلام - وهبهما الله علما ، فوظفاه فى طاعة الله

---

(١) فقرة من حديث رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ ، رواه مسلم (انظر : مختصر صحيح مسلم ص ٢٨٩، حديث ١٠٨٩) ، رياض الصالحين ، ص ٥٧٦ ، حديث رقم ١٦٢٣ .

(٢) رواه مسلم (رياض الصالحين ، ص ٤٨٦) .

(٣) فاطر : ٢٨

عز وجل ، وهكذا يجب أن يكون المسلمون فى كل زمان ومكان .

إن العلم إذا وظفه الإنسان فى معصية الله عز وجل ، فهو علم فاسد ، وصاحبه مأزور . والعلم الذى لايثمر عملا فهو علم فاسد أيضا ، حجة على صاحبه وليس حجة له ، والدليل : ﴿ مثل الذين حُمِّلُوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾(*) فالحمار لو حملناه مليون كتاب فى الهندسة لظل حمارا ولو حملناه مليون كتاب فى الطب لظل حمارا .

ولذلك فقد قال الصحابى الجليل معاذ بن جبل : « اعلموا ما شئتم أن تعملوا فلن تؤجروا بعلمكم حتى تعملوا » .

كما أن رسول الله ﷺ قال : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة(١) ، يعنى ريحها » .

وخرج الترمذى من حديث كعب بن مالك عن النبى ﷺ : « من طلب العلم ليمارى به السفهاء أو يجارى به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » .

ومن هنا نرى إدراك نبى الله سليمان لهذا الفضل العظيم ، فيعلن على الملأ : أن الفضل لله ، وأن ما يشاهدونه من النعم هى هبة من رب العالمين :

﴿ **الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾(٢) . **إنه لم يتطاول بعلمه ، لم يستعل ، لم يتكبر ، لأن هذا العلم الصحيح قد زاده حسنا ، قد زاده تواضعا لله عز وجل ، وهذا هو المعيار الصحيح للعلم السليم ، وبهذا يكون العلم**

(*) الجمعة : ٥ .

(١) خرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) ورد في حديث رواه سعيد بن داود عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبي ﷺ قال : قالت أم سليمان بن داود : « يابني لاتكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرا يوم القيامة » . رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه . (البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٠) وهذا يدل على أن أم سليمان كانت صالحة عابدة كما كان أبوه عليه السلام .

الشرعى هو ذلك الذى يصلك بالله ، ويجعلك عبدا حقيقيا لرب العالمين . ولهذا كان علم التوحيد أشرف العلوم الإسلامية على الإطلاق .

- الله يهب سليمان ملكا لا ينبغى لأحد من بعده :

إن التمكين الربانى لسليمان - عليه السلام - النبى المسلم ، بالصورة التى كان عليها ملك سليمان ، لم ولن يتكرر على مدار الزمان ، من ملامح هذا التمكين تعلم لغة الطير ، فقد علم الله سبحانه وتعالى سليمان لغة الطير ، كما وهبه من كل شىء : ﴿ وأوتينا من كل شىء ﴾ ولذلك كان لابد من الشكر : ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ .

- ومن ملامح هذا التمكين تأييد سليمان - عليه السلام - بمقومات القوة المادية ، طير يجوز أجواء الفضاء ، وشياطين يغوصون فى أعماق المحيطات ، وجن يرون الناس والناس لا يرونهم ، أى قوات فى البر والبحر والجو ، وهذا ما لم يتحقق ولن يتحقق لأحد من البشر إلا أن يشاء الله - أى إن التمكين للإسلام فى الأرض وتأييده بالقوة المادية سمت للدولة الإسلامية فى كل زمان ، كما كان عليه الأمر على عهد سليمان عليه السلام . فلا بد للحق من قوة تحميه وتؤيده .

- ومن ملامح هذا التمكين الربانى لسليمان (وهذا وعد من الله وسنة من سنن الله الكائنة فى حياة الأمم وهى التمكين للمؤمنين) إدراك لغة النمل ، فها هو جيش سليمان يتحرك فى طريقه ، ورغم الحركة العارمة ، أقمع سليمان عليه السلام ، نملة تطلب من مملكة النمل ، أن يدخلوا جحورهم حتى لا يسحقنَّهم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون . وهنا نقف أمام خوارق عديدة :

الأولى :

(أ) نملة تدرك أن الخطر ماثل أمامها ، وقد يتحقق هذا الإدراك لغير النمل من المخلوقات على اعتبار أن الله قد أودع فى المخلوقات ما تتمكن به من إدراك الخطر الذى يمكن أن تتعرض له ، فتجتنبه ، ولكن كون أن النملة تدرك أن الخطر يمكن أن يحدث من سليمان وجنوده الذين يجوزون بالقرب

منهم ، فهذا هو مكمن الإعجاز ، كون أن نملة تدرك أن الذى يمر هو سليمان وجنوده فهذه خارقة .

(ب) من الذى أعلم النملة أن المارين هم سليمان وجنوده ، إنه الله رب العالمين ، ولا عجب فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ، ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[1] .

وفى الحديث قال ﷺ : « إن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه : أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ، وفى رواية : أحرقت أمة من الأمم تسبح الله »[2] .

أى أنها كانت أمة مسلمة طائعة منقادة لله رب العالمين .

وفى هذا التصرف من قبل نملة قد تبدو أمام الناظر من أضعف مخلوقات الله ، يظهر حرص الراعى على الرعية ، وحرص الجندى فى موقعه أن لا يؤتى أحد من قبله . فالنملة تبدو بتصرفها يقظة مدركة لمسئولياتها فقد أدركت أن هنالك خطر على بنى جنسها فانطلقت تنبه وتحذر : ﴿ ادخلوا مساكنكم ﴾[3] .

الثانية :

سماع سليمان – عليه السلام – لحديث يدور بين نملة وأخرى ، وفهمه لهذا الحديث ، فلو افترضنا أن إنسانا قد استطاع أن يسجل الأصوات أو الإشارات المتبادلة بين كائن وآخر ، فهل بإمكانه أن يدرك ماذا يريد أن يقول الكائن للكائن مستحيل ، هذا المستحيل هو الذى تحقق لسليمان – عليه السلام – لأن الله الذى مكن له : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ . هذا الذى تحقق لسليمان لم يتحقق ولن يتحقق للبشرية إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى – فأجهزة التصنت لا تستطيع أن تسجل حركة النمل أو أصوات

---

(١) الأنعام : ٣٨ .

(٢) رواه مسلم والبخارى وأبو داود وابن ماجه وأحمد (المعجم ، جـ ٢ ، ص ٣٩١) ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٥٩ .

(٣) فهل يتفكر بنو الإنسان الذين ضيعوا رعيتهم وتركوا بلادهم معرضة لخطر الأعداء .

النمل أو إشارات النمل ، ولو فرض ونجحت ، فلن تستطيع أن تقول لنا ، ماذا تريد نملة أن تقول للأخرى ؟ .

ماذا فعل سليمان حينما أدرك فضل الله عليه ، بتعليمه لغة النمل : كدأبه دائما ، متواضعا لرب العالمين ، لم يتعال ، لم يدع الناس ويقول لهم : انظروا من مثلي فى العالميـــن ... العكس هو الصحيح ، التوجه إلى الله : ﴿ رب أوزعني - أى وفقنى - أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلىٰ والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾[1] . وشكر النعمة يستلزم أن يقوم المُنْعَمُ عليه بالعمل الصالح ، وهو يطلب فى ذلك الإعانة من الله عز وجل : يارب وفقنى لشكر نعمتك ، وأن أعمل صالحا ، - فالتوفيق من الله عز وجل . ولذلك كان محمد ﷺ يقول : « اللهم أعنِّى على ذكرك وشكرك ، وحسن عبادتك » .

وأن يدْخِلَهُ الله فى عباده الصالحين ، لم يقل فى الأغنياء ، لم يقل فى أصحاب الجاه والسلطان ولكن فى العباد الصالحين .

وهكذا يجب أن يكون المسلم شاكرا لله سبحانه وتعالى فى كل أحواله ، يطلب النصر والمعونة والتوفيق حتى يتمكن من شكر نعمته ، وأن يحرص دائما على أن يكون بين العباد الصالحين فى الدنيا ، ويطلب من الله أن يحشره معهم فى الآخرة .

---

(١) قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى : أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي فقال لأصحابه : ارجعوا فقد سقيتم ، إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها . قال ابن عساكر : وقد روى مرفوعا ، ولم يذكر فيه سليمان . ثم ساقه عن طريق محمد بن عزيز عن سلامة بن روح بن خالد ، عن عقيل عن ابن شهاب حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون الله فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء فقال النبي : ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة » . قال السرى : أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملة قائمة على رجلها باسطة يديها وهي تقول : (اللهم إنَّا خلق من خلقك ولاغناء بنا عن فضلك) . قال : فصب الله عليهم المطر . (البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٠) تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٥٩ .

ـ الصفات التى يجب أن يتصف بها القائد : الحكمة ، العدل ، عدم الاندفاع . واجبات الراعى حيال الرعية :

يقول محمد ﷺ : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، والإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهل بيته ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته وكلكم راع ومسئول عن رعيته »[١] .

وهكذا كان سليمان ، كان راعيا لأمته ، من الإنس والجن والطير ، وغيرها من مخلوقات الله عز وجل ، فهل ضيعها ؟ على العكس ، لقد كان حريصا على تفقد رعيته، لأنه يعلم أنه سيسأل يوم القيامة عنها : « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة »[٢] .

– ﴿ وتفقد الطير ، فقال : ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ .
وهذا دليل على يقظة الراعى والقائد ، ومن هو ؟ إنه الملك ... فرغم المشاغل العديدة ، ورغم المسئوليات الكبيرة فقد فطن سليمان عليه السلام إلى غياب أحد جنوده عن موقعه .

وغياب جندى من جنود سليمان عن موقعه ، وقد يكون فى وقت حرب مع غيره ، أمر خطير ، وتركه دون تنبيه أو محاكمة أو عقاب يمكن أن يؤدى إلى حالة من التسيب داخل الجيش ، فلا بد من الضبط والربط ، وعلى الجانب الآخر ، لانرى اندفاعا ، لانرى عجلة من القائد ، فى إصدار الحكم ، لم يقل دم الهدهد هدر ، وحجته أنه فى الميدان ، وترك الثغرة يعتبر خيانة عظمى ، ولكن نرى الحكمة ، نرى التريث ، نرى العدل فى تصرف سليمان عليه السلام حيال هذا الأمر : ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ . أى يقدم لى عذرا مقبولا يبين فيه سبب غيابه عن موقعه فى الجيش ، وإلا تعرض للعقاب .

---

(١) متفق عليه .
(٢) وفى رواية فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة . وفى رواية لمسلم : « ما من أمير على أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة » .

- **العبودية الحقيقية لله عز وجل :**

وطار الخبر ، وتهامس الجنود ، ولابد أن الخبر قد وصل إلى آذان الهدهد الذى كان غائبا ، لأننا نرى أنفسنا أمام الهدهد يقول لسليمان عليه السلام : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ . من الذى يتكلم ؟؟ .. إنَّه جندى من جنود سليمان ، يقول لسليمان عليه السلام ، الملك النبى الرسول الذى أيده الله وآتاه من كل شيء : عندى معلومة ليست عندك .. لم يخف ، لم يرتعش ، لم يقلها من بعيد ولكن من قريب ، ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ يعني : غير خائف ، وممن يخاف وهو يعلم أن الأجل بيد الله ، والرزق بيد الله ، فلم يخاف ؟ وممن يخاف ؟؟ .. وهو يعلم أن الجميع فى قبضة الله عز وجل المحيط بهم ، إنه الإسلام الذى تربى عليه هذا الجندى ، فأدرك أن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى ، وأن العبد لايملك للعبد نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله ، حتى لو كان الملك سليمان نفسه (عليه السلام) .

وهذا درس لبنى الإسلام ولبنى البشر فى معنى الاستسلام الكامل لله ، واليقين أن الحياة والموت بيده وحده ، وأن الرزق بيده ، فَلِمَ يخنعون ؟ وِلِمَ يُسْتَذَلونْ ؟؟ .. موقف شجاع ، ولكن موقف سليمان عليه السلام كان أشجع ، وأقوى ، وأعظم ، وأنبل لم يقل سليمان عليه السلام له : كيف تجرؤ على مخاطبة مليكك بهذه الصورة ، ولم تقلها الحاشية وكان يمكن أن تقلها ، لم يقل سليمان اقبضوا عليه لأنه لم يركع ولم يسجد فى حضرة مليكه ، إن الهدهد وهو خلق من خلق الله كان يحدثه حديث الند للند ، حديثاً يتجلى فيه قوة المسلم ، واستعلاء المسلم ، وأدب المسلم . ﴿ أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة[1] تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون

---

(١) وقد ثبت في صحيح البخارى من حديث عوف عن الحسن عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ لمّا بلغه أن أهل فارس مَلّكُوا عليهم ابنَة كسرى قال : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » . رواه الترمذى والنسائي من حديث حميد عن الحسن عن أبي بكرة عن النبى ﷺ ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح (البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٢) .

للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألّا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلّا هو رب العرش الكريم ﴾ ما هى المعلومات التى وضعها الجندى بين يدى قائده ؟؟ . . .

هناك مملكة معاصرة للدولة سليمان هى مملكة سبأ (جنوب الجزيرة العربية) ، تحكمها ملكة آتاها الله من كل شيء ، بما فى ذلك العرش العظيم ، ولكن مع ذلك التمكين الرباني ، والتقدم فى الجانب المادىٰ ، كان هنالك ارتكاسة فى الجانب الروحى العقدى ، كان هنالك شرك بالله عز وجل ، إنهم يتعبدون للشمس من دون الله ، لقد نسوا المنعم ، وما كان يجب عليهم مِنْ شُكر للمنعم عز وجل على نعمته . .

شتان بين نبى أوتى كل شيء فيقول : إن هذا لهو الفضل المبين ، فيعرف الفضل لصاحبه ، وشتان بين من أوتيت كل شيء ، وتكفر بالمنعم والنعمة .. .

– واجب الإمام المسلم أن يربى رعيته على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

– إن موقف أحد جنود سليمان عليه السلام وهو الهدهد ، من إنكار هذا المنكر الأكبر الذى يباشره أهل سبأ وهو الشرك بالله ، يعطينا السمت الذى يجب أن يتصف به كل فرد من أفراد المجتمع المسلم ، وهو إنكار المنكر ، والأمر بالمعروف ... .

ولا شك فى أن تصرف الهدهد حيال هذا الأمر ، يعنى أنه قد تربى على ذلك ، بحيث أنه كان يدرك جيدا أن الأمة المسلمة ما استحقت الخيرية إلا بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ . ولهذا كان هو صورة لما يؤمن به .... لقد نقل إلى قائده ومليكه استنكاره لما يفعل أهل سبأ : ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ .

والهدهد وهو ينقل الخبر كان أمينا ، لم يكن متحايلا على دولة سبأ ، لقد بين أن سبب الشرك الذى وقعت فيه ملكة سبأ وقومها ، هو الشيطان الذى زين لهم أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون . وذلك يعنى أنهم محتاجون لمن يبين لهم السبيل الصحيح ، يعرض لهم الحق ويحاول أن يستنقذهم من الشيطان ، لأنه إذا خلت الساحة من جند الحق ، أصحاب الدعوات ، أو أنهم كانوا مَكْتُوفِى الأيدى حيال الباطل ، فذلك تقصير شديد ، ولاشك أن ذلك يعطى الفرصة لحزب الشيطان فى اجتيال الناس عن دين الله عز وجل .

ولعل فى هذا إشارة من طرف خفى : (أن هنالك واجب ينتظرك يا سليمان ، فلا يعقل أن تكون هنالك أمة مشركة فى عهد سليمان الذى طويت له الأرض ، ومكن له فيها ، وأوتى من كل شيء) .

وهنا نلمح قمة التوحيد لله رب العالمين . وقمة التعنيف للعقول الآدمية التى ارتكست ولم تستطع أن ترقى إلى ما رقى إليه جندى من جنود الرحمن ، جندى صغير يمكن أن يكون فى قبضة أصحاب الأجسام الضخمة ، والعقول المرتكسة التى لم تعد تعترف بأن لهذا الكون إلها خالقا ، متصفا بكل صفات الجلال ، يستحق العبادة وحده .

وهكذا فإن الإنسان المشرك بالله ، الذى لايعرف ربه ، ولا يعبده حق العبادة يمكن أن يكون فى مرتبة أقل من هؤلاء الذين لم يصلوا إلى ما وصل إليه طائر ضعيف من خلق الله عز وجل ، منّ الله عليه بنعمة الإيمان .

– قمة التوحيد فى إدراك الهدهد أن لهذا الكون إلها خالقا ، على كل شيء قدير : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ ، ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[1] .

وبالإضافة إلى ما سبق ، لقد كان موقف سليمان جيدا ، لقد كان يعى قول الله سبحانه وتعالى لأبيه داود : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ . قال سليمان : ﴿ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ .

---

(١) الأنعام : ٥٩ .

اهتمامات القلب المسلم : أن يُعبَدَ الله وحده دون شريك :

ما هى اهتمامات القلب المسلم ؟ سواء كان قلب طير ، أوقلب إنسان : إنها قضية العبادة بمفهومها الشامل ، أن يكون الكون بما فيه طائعا مستسلما لله عز وجل ، وهذا هو واجب الإنسان المسلم بالدرجة الأولى ومن أجله يعمل ، ومن أجله يقف حياته كلها . فالهدهد له جناحان يستطيع أن يحلق بهما فى أجواز الفضاء ، يطوف الدنيا كلها ، متفكرا فى خلق الله ، وما أجمل الكون ، وما أجمل الخلق ، وفى كل هذا يُرى جميل صنع الله عز وجل ، وفى ذلك نوع من العبادة ولكنّها بهذا الشكل تكون عبادة سلبية ، ليست العبادة التى تنشىء الإيجابية فى نفس المسلم ، ولهذا فإن الهدهد لم يشغله الكون بما فيه عن الهدف الأصلى ، أن تكون العبادة فى الأرض كلها لله ، لايجوز أن يكون هنالك شرك بالله يتمثل فى واقع حى ، فى أمة ؛ فى وجود الحقّ ، وجند للحق ، لا يبدون حراكا .

إيجابية القائد المسلم غير المُتَأَنِّيةِ فى مواجهة الشرك وأهله :

– وانتدب سليمان عليه السلام الهدهد نفسه ليحمل رسالة إلى ملكة سبأ وقومها يدعوها ويدعوهم إلى الإسلام : ﴿ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون ﴾ . . .

الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنه

– ﴿ إنه من سليمان ﴾ ، سليمان مجرد من كل لقب .

قمة الأدب ، والتواضع لله عز وجل ، لم يقل من الملك سليمان ، الممكن له فى البر والبحر والجو ، الذى آتاه ملكا لم ينبغ لأحد من بعده ، ولو قالها لصدق ... لم يقل من صاحب الجلالة سليمان ، لكن من سليمان ... .

﴿ وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فأى عمل لايبدأ بسم الله فهو أبتر ، لم يقل باسم الله الجبار القهار المتكبر ، ولكن اختار من أسمائه ما يوحى بالمرحمة

ويشعر بها : ﴿ ألّا تعلوا علىّ ، وأتونى مسلمين ﴾ ... مسلمين لله ، مستسلمين له ، لم يقل : « لى » (أى لسليمان) ، فالإسلام هو لله عز وجل .

– وجمعت الملكة مجلس شوراها ، وعرضت عليهم الأمر ، وقالت : ﴿ إنّى أُلقِى إلىّ كتاب كريم ﴾ لقد استشعرت من مظهره أنه كتاب كريم ، ليس أى كتاب ، إنه موصوف بأنه كريم .. وهذا يبين للدعاة ضرورة أن تكون دعوتهم إلى الله متصفة بهذه الصفة ، إن الدعوة ليست كلمة تلقى حيثما اتفق ، ولكنه تجهيز وإعداد ، مع اختيار الأسلوب الأمثل . فالإنسان تأسره الدعوة الكريمة : ﴿ قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك ، فانظرى ماذا تأمرين . قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون ﴾ .

– إذن لابد من حيلة أخرى لصرف الداعى عن دعوته .

استخدام الهدية لصرف الدعاة عن دعوتهم :

حينما يعجز حزب الشيطان عن صرف الداعى عن دعوته باليد واللسان ، وحينما يعجز الطغاة عن صرف الدعاة عن دعوتهم بالإرهاب الفكرى والمادى ، يلجئون إلى حيلة أخرى وهى التلويح بالمناصب ، التلويح بالدنيا ، الإغراء بالهدايا وهذا من باب الابتلاء الأشد قسوة ، فقد يصمد الداعى تحت سياط التعذيب والإرهاب ، ولكنه يسقط على أعتاب الدنيا ومن هنا حذرنا رسول الله ﷺ : « إنَّ مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها »[1] .

﴿ وإنّى مرسلة إليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ .

ولكن أنّى للقلب المسلم الصادق أن ينصرف عن دعوته ، ولو وضعت الدنيا كلها تحت قدمه . فلما جاء سليمان قال : ﴿ أتمدونن بمال ، فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ .

---

(١) متفق عليه ، رياض الصالحين ، ص ٢١٣ .

وحينما لم تجد الكلمة اللينة فى إعادة الناس إلى ربهم ودينهم ، ويظلوا على عصيانهم وتمردهم ، هنا لابد من استعمال القوة ، لابد من الجهاد لإزالة سلطان الطاغوت حتى يختار الناس الدين الذى يريدون بملء إرادتهم .. ﴿ ارجع إليهم ، فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ، ولَنُخْرِجَنَّهُم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ .

إنه إعلان الجهاد فى سبيل الله ، ولمثل هذا اليوم كان إعداد الجيوش ، إنه إعلان النفير العام ، ولمثل هذا اليوم كان إعداد هذه القوة الضاربة فى الأرض وفى أعماق المحيطات وأجواز الفضاء .

إن هذه القوة لم يستخدمها سليمان عليه السلام لترويع الآمنين ، أو لتثبيت السلطان ، أو لتحقيق الزعامة ، أو استغلال خيرات الآخرين ، لأنه يعلم أن التمكين له بهذه القوة نعمة ، وشكر النعمة يستلزم تصريفها فى الوجوه التى شرعها الله عز وجل .

وهكذا نرى النبى المسلم يوظف النعمة ، نعمة القوة التى أنعم الله عليه بها فى التمكين لدين الله فى الأرض ، ولم يستخدمها للاستعلاء فى الأرض بغير الحق ، أو فى البطش بالآخرين .

- سليمان عليه السلام يوظف العلم فى خدمة دين الله عز وجل :

- أسلوب الداعى إلى الله لابد وأن يتواءم مع شخصية المدعو .

ملكة سبأ ملكة كانت ممكنة فى الأرض ، أوتيت من كل شيء ، لديها تمكين سياسي ، وتمكين مادى اقتصادى ، كلمتها مسموعة ، جيش عظيم : ﴿ نحن أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، والأمر إليك ، فانظرى ماذا تأمرين ؟؟ ﴾ .

فكان لابد لسليمان أن يعرف الطريق إلى قلبها إلى فطرتها ، وفتح الله على سليمان ، لقد طلب من جنده إحضار عرشها قبل مجيئها وقومها إلى سليمان عليه السلام مسلمين : ﴿ أيكُمْ يأتيني بعرشها قبل أن يَأْتُونِى مسلمين ﴾ . وهنا أمر يحتاج إلى الوقوف والتفكر ، سليمان فى بيت المقدس ، وملكة سبأ فى جنوب

الجزيرة العربية ، فكون سليمان يلاحظ ما يجرى هناك ويعلم – وهذا من عند الله – بأن ملكة سبأ قد قررت الدخول فى الإسلام فهذا فى حد ذاته إعجاز ، ما بعده إعجاز ، قد نقول : إنه يمكن لرسول أن يحمل الخبر بسرعة ، ويأتى به إلى سليمان ، ولكن كون أنه يطلع على ما دار بين الملكة فى مجلسها الخاص وبين مستشاريها فهذا إعجاز آخر ، لايمكن تفسيره إلا بكونه تأييد من الله عز وجل لسليمان عليه السلام .

﴿ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإنّى عليه لقوى أمين ﴾ .

وهنا شيء يؤكد أن الله سبحانه على كل شيء قدير . عرش ملكة سبأ فى غرفة عليها حراسة والقصر عليه حراسة ، وحمله من جنوب الجزيرة العربية إلى بيت المقدس – آماد وأبعاد – قبل أن ينفض مجلس سليمان ، شيء التفكير فيه يدير العقول ، وإنما هى قدرة الله التى لاتحدها حدود . ورغم هذا فإن سليمان عليه السلام – اعتبر مجيء العرش قبل انفضاض المجلس ، وقت طويل ، فكان مجيء العرش فى وقت أقل :

﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فلما رآه مستقراً عنده ، قال : هذا من فضل ربى ، ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ .

ولهذا النص موحيات :

(أ) إن سليمان أقر الوسيلة العلمية في إحضار العرش .

(ب) إن التمكين على هذه الصورة لم يتكرر فى حياة البشرية حتى الآن .

(جـ) إن التمكين فى الأرض ابتلاء من الله عز وجل .

(د) إن الإنسان الذى يشكر الله عز وجل ، على نعمه فإنما هو يعمل لمصلحته ، والذى يكفر بنعمة الله إنما يعود ذلك عليه : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم على

أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى إنما أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه »[1] .

(هـ) تواضع سليمان عليه السلام لله عز وجل ، إن هذا الإعجاز الذى وقع لم ينسبه إلى نفسه ، إنما هو من الله ﴿ هذا من فضل ربى ﴾ ، ثم أردف ذلك بقوله : ﴿ إن ربى غنى كريم ﴾ .

تمكين الله للكفر وأهله فى الأرض ، ليس كتمكين الله للإسلام وأهله :

إن الله سبحانه وتعالى قد مكن لسليمان عليه السلام إمضاء لوعد الله فى التمكين للمؤمنين الموحدين ، بصورة لم تتكرر بعده أبدا ، وآتاه الله من كل شيء .

كما إنه مكن لملكة سبأ ، وأوتيت من كل شيء ، ولكن ليس كما كان الأمر لسليمان عليه السلام ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه التمكين للكفر وأهله هو من باب الاستدراج ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ .

وملكة سبأ قد أعدت نفسها للذهاب إلى بيت المقدس لإعلان إسلامها بين يدى سليمان لله رب العالمين ، ولا شك أنها ستسلك فى ذلك أقصر طريق بأسرع وسيلة ، فكون أنها تصل وتجد عرشها قد سبقها إلى هناك ، إلى بيت المقدس ، فذلك يعني أن لسليمان إمكانيات ومؤيدات ربانية ليست لملكة سبأ وهذا في حد ذاته إعجاز ودليل على صدق سليمان .

﴿ قال : نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها ، وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾ .

---

(١) حديث قدسي ، رواه مسلم ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٣٦٤ .

وهذا الفضل من الله ، فالمسلم بفضل الله أعلم ، وبفضل الله أقدر .

وكان سليمان قد أعد للملكة مفاجأة أخرى ، لم يكن لها به عهد من قبل :

﴿ قيل لها : ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها . قال : إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت : رب إنّي ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

لقد أدركت الملكة أنها أمام عجائب تُعْجِزُ البشر ، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر ، فرجعت إلى الله ، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره ، معلنةً إسلامها مع سليمان ، لا لسليمان .. ولكن لله رب العالمين .

وهكذا يتبين لنا أن سليمان عليه السلام ، نبى مسلم ، وإلى الإسلام كان يدعو ، وإلى الإسلام دعا ملكة سبأ التى أسلمت مع سليمان لله رب العالمين[1] .

سور أخرى من القرآن وأحاديث نبوية يرد فيها ذكر سليمان عليه السلام ، مع بعض الشروح :

سورة (ص)[2] :

﴿ ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد ، إنه أواب ، إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ، فقال : إنّى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق . ولقد فتنا سليمان وألقينا

---

(١) وفى هذا ردّ على هؤلاء الذين زعموا فى كتاباتهم أن سليمان كان يهوديا ، وأنه كان يدعو إلى اليهودية ، وأنه هو ملك اليهود الذى بنى هيكلا ليتعبد اليهود فيه ألى يهوه ؛ وأن مكان هذا الهيكل أسفل المسجد الأقصى . وهكذا نرى كيف شوه التاريخ وزيف منذ سنوات طويلة ليخدم مخطط اليهود الذى ينفذ بقيته الآن . وللأسف فإن هذا التاريخ المزيف المشوه لازال يدرس فى دور العلم فى بلاد المسلمين اعتمادا على مراجع ومصادر ثبت تحريفها .

(٢) ٣٠ - ٤٠ .

على كرسيه جسدا ثم أناب . قال : رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾[1] .

قال الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن فيروز الديلمى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالا ثلاثا ، فأعطاه اثنتين ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة ، سأله حكما ، يصادف حكمه ، فأعطاه إياه ، وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته ، لايريد إلا الصلاة فى هذا المسجد ، خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه . فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إيَّاها . فأما الحكم الذى يوافق حكم الله تعالى ، فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه فى قوله : ﴿ وداود وسليمان ، إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ﴾[2] . وقد ذكر شريح القاضى وغير واحد من السلف : أن هؤلاء القوم ، كان لهم كرم ، فنفشت فيه غنم قوم آخرين . أى رعته بالليل ، فأكلت شجره بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام ، فحكم لأصحاب الكرم بقيمته ، فلما خرجوا على سليمان قال : بما حكم لكم نبي الله ، فقالوا : بكذا وكذا ، فقال : أما لو كنت أنا ، لما حكمت ، إلا بتسليم الغنم ، إلى أصحاب الكرم ، فيستغلونها ، نتاجا ، ودرا ، حتى يصلح أصحاب الغنم ، كرم أولئك ويردوه إلى ماكان عليه ، ثم يتسلموا غنمهم . فبلغ داود عليه السلام ذلك ، فحكم به » . وقريب من هذا ما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ، قال ، قال رسول

---

(١) الآيات ٣٠ - ٤٠ ؛ البداية والنهاية ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٤ ، ص ٣٣ - ٣٩ .

(٢) الأنبياء ٧٨ - ٧٩ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٥ - ١٨٨ ، البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٦

الله ﷺ : « بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما ، فتنازعتا في الآخر ، فقالت الكبرى : إنما ذهب بابنك . وقالت الصغرى : بل إنما ذهب بابنك . فتحاكمتا إلى داود فحكم به للكبرى ، فخرجتا على سليمان فقال : ائتوني بالسكين أشقه نصفين ، لكل واحدة منكما نصفه ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنها . فقضى به لها » ولعل كلا من الحكمين كان سائغا في شريعتهم . ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ، ومدح بعد ذلك أباه فقال : ﴿ وكلا آتينا حكما وعلما ، وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ، وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم ، لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ﴾[1] . ثم قال : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾ ، أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿ تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك ، وكنا لهم حافظين ﴾[2] وقال في سورة ص ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾[3] . لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التي هي أسرع سيرا وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها ، تجري بأمره عنها رخاء ﴿ حيث أصاب ﴾ ، أي حيث أراد من البلاد .

﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب . وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادي الشكور ﴾[4] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ٢ ، ص ٢٦ – ٢٧ ، الأنبياء ٧٩ – ٨٠ .
(٢) النحاس ؛ الأنبياء ٨١ – ٨٢ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١٨٧ – ١٨٨ .
(٣) ص ٣٦ – ٤٠ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ، ص ٣٤ – ٣٩ .
(٤) سبأ ١٢ – ١٣ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ٣ ، ص ٥٢٨ – ٥٢٩ .

تعليق :

وهذا دليل على أن التمكين الذى تحقق لسليمان ، ولم ولن يتحقق لأحد من بنى البشر ، وكذلك أيضا ما رواه مسلم والنسائى من حديث شعبة ، وقال مسلم حدثنا محمد بن سلمة المرادى حدثنا عبد الله بن وهب عن معاوية بن صالح حدثنى ربيعة بن يزيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ فصلى فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك ، ألعنك بلعنة الله ثلاثا ، وبسط يده كأنه يتناول شيئا ، فلما فرغ من الصلاة قلنا يارسول الله سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك . قال : إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة ، فلم يستأخر ثلاث مرات . ثم أردت أخذه ، **والله لولا دعوة أخينا سليمان** لأصبح موثقا ، يلعب به ولدان المدينة » . وكذا رواه النسائى عن محمد بن سلمة به . وقال أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا مرة بن معبد ثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثى قائما يصلى فذهبت أمر بين يديه فردنى ، ثم قال : حدثنى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قام فصلى صلاة الصبح وهو خلفه ، فقرأ فالتبست عليه القراءة . فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتمونى وإبليس ، فأهويت بيدى ، فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعى هاتين الإبهام والتى تليها ، ولولا دعوة أخى سليمان[1] لأصبح مربوطا بسارية من سوارى المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم أن لايحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » . روى أبو داود منه « فمن استطاع .. إلى آخره » عن أحمد ابن سريج عن أحمد الزبيرى به .

وروى البخارى حدثنا خالد بن مخلد حدثنا مغيرة بن عبدالرحمن عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تحمل كل امرأة فارسا يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل إن شاء الله ، فلم يقل ، فلم تحمل شيئا إلا واحدا

---

(١) البداية ، والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٧ - ٢٩ .

ساقطا أحد شقيه . فقال النبى ﷺ : لو قالها ، لجاهدوا فى سبيل الله » . وقال شعيب وابن أبى الزناد : تسعين . وهو أصح ، تفرد به البخارى من هذا الوجه . وقال أبو يعلى : حدثنا زهير حدثنا يزيد أنبأنا هشام بن حسان عن محمد عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة ، كل امرأة منهن تلد غلاما يضرب بالسيف فى سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن امرأة إلا امرأة ولدت نصف إنسان . فقال رسول الله ﷺ لو قال : **إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلاما يضرب بالسيف فى سبيل الله عز وجل** . إسناده على شرط الصحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه . وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم ثنا هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاما يقاتل فى سبيل الله ، ولم يستثن . فما ولدت إلا واحدة منهن بشق إنسان . » قال ، قال رسول الله ﷺ : « لو استثنى لولد له مائة غلام ، كلهم يقاتل فى سبيل الله عز وجل ، تفرد به أحمد أيضاً[1] .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل فى سبيل الله . قال ونسى أن يقول : إن شاء الله ، فأطاف بهن . قال : فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان ، فقال رسول الله ﷺ لو قال : إن شاء الله لم يحنث ، وكان دركا لحاجته . وهكذا أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق به مثله »[2] .

تعليق :

أولا : وهنا من خلال استعراضنا لأخبار هذا النبى الكريم أهمية الاستثناء « قول إن شاء الله » كما ورد بذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تقولن لشىء إنى

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ٢٩ .
(٢) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٢٩ .

فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾(1) ، لأنه لا شيء يتحقق فى ذلك الكون وفى حياة الإنسان إلا بإذن الله .

ثانيا : إن التمكين الذى تحقق لدولة الإسلام على عهد سليمان عليه السلام ، لم ولن يتحقق لأية أمة من الأمم الكافرةالقديمة أو المعاصرة .

ثالثا : أهمية الدعاء أيضا : إن الله يجيب الدعاء ، ولا يخيب رجاء الداعى ، لأنه المجيب السميع البصير .

رابعا : أهمية الجهاد فى سبيل الله ، ومن هنا يمكن أن نفهم رغبة سليمان أن تلد كل امرأة من أزواجه غلاما يضرب بالسيف فى سبيل الله عز وجل .

وفاة سليمان عليه السلام :

يقول الله تعالى : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته . فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ﴾(2) .

---

(1) الكهف ٢٣ .
(2) سبأ : ١٤ .

الفصل السابع

الجزء الأول

تاريخ بنى إسرائيل

الفترة من وفاة سليمان عليه السلام
إلى زكريا ويحيى عليهما السلام

وردت أخبار كثيرة عن هذه الفترة تذكر أحداثا وأنبياء وملوكا لبنى إسرائيل فى كتب التفسير . ولكن لايوجد دليل على صحة هذه الأخبار ، لأن أكثرها مأخوذ عن أهل الكتاب ، ولذلك آثرنا طبقا للمنهج الذى لامناص أمامنا من اتباعه أن نسقط هذه الأخبار ، ونكتفى بالصحيح . فيه يتحقق الهدف ولله الحمد والمنة .

الجزء الثانى

أخبار
زكريا ويحيى عليهما السلام

قال الله تعالى فى كتابه العزيز : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيا . قال : رب إنِّى وهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيباً ، ولم أكن بدعائك رب شقيا . وإنى خفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا . يازكريا إنَّا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا . قال : رب أنَّى يكون لى غلام ، وكانت امرأتى عاقرا ، وقد بلغت من الكبر عتيا . قال : كذلك قال ربك هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال رب اجعل لى آية ، قال : آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا . فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا . يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبيا . وحنانا من لدنا ، وزكاة وكان تقيا . وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ وكفلها[2] زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . قال : يامريم أنَّى لك هذا ، قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريا ربه قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة ، إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب : أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين . قال : رب أنَّى يكون لى غلام ، وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر .

---

(١) مريم : ١ : ١٥ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١١٠ – ١١٤ .

(٢) آل عمران ٣٧ – ٤١ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٦٠ – ٣٦٢ .

وقال تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه ، رب لاتذرنى فردا ، وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين[١] ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ﴾[٢] .

« والمقصود أن الله أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام . وما كان من أمره ، حين وهبه الله ولدا على الكبر ، وكانت امرأته عاقرا ، فى حال شبيبتها ، وقد أسنت أيضا حتى لا ييأس أحد ، من فضل الله ورحمته ، ولا يقنط من فضله تعالى وتقدس ، فقال تعالى : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا ﴾ . قال قتادة عند تفسيرها إن الله يعلم القلب التقى ويسمع الصوت الخفى وقال بعض السلف : قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها ، عمن كان حاضراً عنده مخافته فقال : « يارب يارب ، يارب ، فقال الله : لبيك لبيك لبيك » ﴿ قال : رب إنى وهن العظم منى ﴾ أى ضعف وخار من الكبر ، ﴿ واشتعل الرأس شيبا ﴾ استعارة من اشتعال النار فى الحطب ، أى غلب على سواد الشعر شيبه كما قال ابن دريد فى مقصورته :

أَمَا تَرَى رأسِيَ حاكى لونُه
طرّة صُبحٍ تحتَ أذيالِ الدَّجا
واشتعـلَ المبيضُّ مُسْودِة
مثلَ اشتعال النار فى جَمر الغضا
وآضَ عودُ اللهو يُبْسا ذَاوياً
من بعد ما قد كان مجَّاجَ الثّرى

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٤٧ ، الأنبياء : ٨٨ - ٩٠ .
(٢) الأنعام ٨٥ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطنا وظاهرا وهكذا قال زكريا عليه السلام ﴿ إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ﴾ وقوله : ﴿ لم أكن بدعائك رب شقيا ﴾ أى ما عودتنى فيما أسألك إلا الإجابة . وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان ، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة فى غير أوانها ولا فى آوانها ، وهذه من كرامات الأولياء ، فعلم أن الرازق للشيء فى غير أوانه قادر على أن يرزقه ولدا ، وإن كان قد طعن فى سنه : ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة ، إنك سميع الدعاء ﴾ وقوله : ﴿ وإنى خفتُ الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا ﴾ قيل المراد بالموالى : العصبة وكأنه خاف من تصرفهم بعده فى بنى إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته ، فسأل وجود ولد من صلبه يكون برا تقيا مرضيا ، ولهذا قال : ﴿ فهب لى من لدنك ﴾ أى من عندك بحولك وقوتك ﴿ وليا يرثنى ﴾ أى فى النبوة والحكم فى بنى إسرائيل ﴿ ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ﴾ يعنى كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء ، فاجعله مثلهم فى الكرامة التى أكرمتهم بها من النبوة والوحى وليس المراد ههنا ، وراثة المال ، كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ، ووافقهم ابن جرير ههنا ، وحكاه عن أبى صالح من السلف لوجوه : أحدها ما قدمنا عند قوله تعالى : ﴿ وورث سليمان داود ﴾ ، أى فى النبوة والملك كما ذكرنا فى الحديث المتفق عليه بين العلماء المروى فى الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا فهو صدقة » فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لايورث . ولهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختص به فى حياته إلى أحد من وراثه الذين لولا هذا النص لصرف إليهم ، وهم ابنته فاطمة ، وأزواجه التسع وعمه العباس رضى الله عنهم ، واحتج عليهم الصديق فى منعه إياهم بهذا الحديث وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضى الله عنهم . الثانى : أن

---

(١) البداية والنهاية جـ١ ، ص ٤٨ وما بعدها ، الفقرة مأخوذة نصا عن ابن كثير .

الترمذى رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء : « نحن معاشر الأنبياء لانورث » ، وصححه . الثالث : أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها ، أو يهمهم أمرها ، حتى يسألوا الأولاد ليحوذوها بعدهم ، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم فى الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولدا يكون وارثا له فيها . الرابع : إن زكريا عليه السلام كان **نجارا يعمل بيده** ، ويأكل من كسبها كما كان **داود عليه السلام** يأكل **من كسب يده** ، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء ، أنه لا يجهد نفسه فى العمل إجهادا يستفضل منه ما لا يكون ذخيرة له يخلفه من بعده ، وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهم إن شاء الله .

قال الإمام أحمد حدثنا يزيد يعنى ابن هارون أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أبى رافع عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كان زكريا نجارا » . وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن حماد بن سلمة به . وقوله : ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ﴾ . وهذا مفسر بقوله : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ، أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين ﴾ فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد ، والحالة هذه له : ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ ، أى كيف يوجد ولد من شيخ كبير ، قيل كان عمره إذ ذاك سبعا وسبعين سنة ، والأشبه والله أعلم أنه كان أسن من ذلك ﴿ وكانت امرأتى عاقرا ﴾ يعنى وقد كانت امرأتى فى حال شبيبتها عاقرا ، لا تلد والله أعلم . كما قال الخليل : ﴿ أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ، فبم تبشرون ﴾(١) وقالت سارة : ﴿ يا ويلتى أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب . قالوا : أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾(٢) . وهكذا أجيب زكريا عليه السلام ، قال له الملك الذى يوحى إليه بأمر ربه :

---

(١) يقول الإمام الحافظ ابن كثير : إن زكريا كان نبيا عظيما من أنبياء بنى إسرائيل . وفى صحيح البخارى أنه كان نجاراً يأكل من عمل يدايه فى النجارة ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١١٠ .
(٢) « هود : ٧٢ ، ٧٣ » .

﴿ كذلك قال ربك هو على هين ﴾ أى هذا سهل يسير عليه ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾ أى قدرته أوجدتك بعد أن لم تكن شيئا مذكورا ، أفلا يوجد منك ولد وإن كنت شيخا وقال تعالى : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين ﴾ . ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت . ﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾ أى علامة على وقت تعلق منى المرأة بهذا الولد المبشر به . ﴿ قال آيتك أن لاتكلم الناس ثلاث ليال سويا ﴾ يقول علامة ذلك أن يعتريك سكت ، لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزا ، وأنت فى ذلك سوى الخلق ، صحيح المزاج ، معتدل البنية ، وأمر بكثرة الذكر فى هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشى والإبكار ، فلما بشر بهذه البشارة خرج مسرورا بها على قومه من محرابه ﴿ فأوحى إليهم أن سبحو بكرة وعشيا ﴾ . والوحى ههنا : هو الأمر الخفى ، وقوله : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ﴾ ، يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام ، وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير فى حال صباه ... وأما قوله : ﴿ وحنانا من لدنا ﴾ فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : لا أدرى ما الحنان . وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك ﴿ وحنانا من لدنا ﴾ أى رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد . وعن عكرمة « وحنانا » أى محبة عليه ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما . وأما الزكاة فهو طهارة الخلق ، وسلامته من النقائص والرذائل . والتقوى طاعه الله بامتثال أوامره وترك زواجره ، ثم ذكر بره بوالديه وطاعتهما أمرا ونهيا ، وترك عقوقهما قولا وفعلا فقال : ﴿ وبرا بوالديه ، ولم يكن جبارا عصيا ﴾ ثم قال : ﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴾ هذه الأوقات الثلاثة ، أشد ما تكون على الإنسان ، فإنه ينتقل فى كل منها ، من عالم إلى عالم آخر ، فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ، ولا يدرى ما بين يديه ، ولهذا يستهل صارخا إذا خرج من بين الأحشاء ، وفارق لينها وضمها ، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها ، وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل

إلى عالم البرزخ ، بينها وبين دار القرار ، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور ، وانتظر النفخة هناك فى الصور ليوم البعث والنشور ، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور ، وما بين جبير وكسير وفريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول :

وَلَدَتْكَ أُمُّكَ باكياً مستصرخاً
والناس حولك يضحكون سُروراً
فاحرص لنفسك أن تكون إذا بَكَوا
فى يوم مَوتِكَ ضاحكاً مسروراً

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى فى كل موطن منها فقال : ﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴾[1] .

ومن خلال هذا العرض الربانى لأخبار هذا النبى الكريم نلمح جملة من التوجيهات اللازمة للمسلم فى كل زمان ومكان :

(أ) اتصاف الله سبحانه وتعالى بالرحمة فهو رحمن رحيم ، وهو سميع بصير ، فهو يعلم السرَّ وأخفى : ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمُها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين[1] ﴾ ، هذا الإله العظيم المتصف بصفات الجلال والكمال هو الذى سمع النداء الخفى لعبده زكريا .

(ب) الانحراف الذى كان عليه بنو إسرائيل ، ولذلك فإن زكريا عليه السلام سأل الله وليا يقوم على تنفيذ شرع الله فى قومه خوفا من عدم العمل به بعد موته .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٤٧ - ٥٠ .

(جـ) إن الله سبحانه وتعالى لا يرد دعوة عبده المسلم : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾[1] .

(د) إن الله هو الذى ينشىء الأسباب والنتائج وليس بالضرورة أن تكون النتائج مسبوقة بأسباب معينة ، فها هو زكريا قد شاخ وزوجه عاقر ، ولكن رحمة الله اقتضت أن يرزق بغلام هو يحيى عليه السلام ، ﴿ إنما أمرُهُ إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾[2] مثال ذلك : أنه كان يرزق مريم بالثمار فى غير أوانها ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يامريم أنّى لك هذا ، قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ وذلك يوجه المسلم إلى عدم اليأس أبدا من رحمة الله عز وجل ، وإن بدت الأمور معقدة وليس لها من حل .

(هـ) ضرورة الرجوع إلى الله ، واللجوء إلى الله والاستعانة بالله ، والدعاء والرجاء والخشوع لله ، والمسارعة فى الخيرات .

(و) إن الله سبحانه وتعالى قد استجاب لزكريا فأصلح له زوجه ، ورزق الذرية الصالحة ، لأنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، وكانوا خاشعين لله عز وجل ، يخافون ناره ويرجون جنته .

(ز) الدنيا أحقر من أن يكنز لها الإنسان ، أو يلتفت إليها ، أو يهتم بأمرها ، حتى يسأل الإنسان الله أن يرزقه الذرية ليحوزوها بعده .

(ح) إن الإنسان المسلم ، حينما يدعو ربّه ليرزقه الذرية ، إنما يدعو بالذرية الصالحة التى تقوم على أمر هذا الدين من بعده . ولتكون مجاهدة فى سبيل الله .

---

(١) البقرة : ١٨٦ .

(٢) « يسن : ٨٢ » .

(ط) **أهمية الامتهان ، والأكل من عمل اليد ، على أن لايجهد الإنسان نفسه فى العمل إجهاداً يستفضل منه مالا يكون ذخيرة له يخلفه من بعده .**

لقد كان زكريا نجاراً ، وداود حداداً ، ومحمداً ﷺ راعيا للغنم وتاجراً وعلى مثل هذا يجب أن يحرص المسلم على أن يكون ممتهنا .

(ى) إن المسلم الذى جعله الله رحمة للعالمين ، يجب أن يتصف بصفات : الحنان والشفقة ، وطهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل ، وطاعة الله وامتثال أوامره وترك زواجره ، وبر الوالدين وطاعتهما ، وترك عقوقهما .

(ك) أهمية الدعاء ، واحتياج المسلم الدائم إلى رحمة الله فى حياته الدنيا ، وعند مماته ، وعند بعثه .

معلومات أخرى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام :

وقال النبى ﷺ : « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، وكاد أن يبطىء ، فقال له عيسى عليه السلام إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن . فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن فقال : يا أخى إنّى أخشى إن سبقتنى أن أعذب ، أو يخسف بى . قال : فجمع بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عز وجل أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن . وأولهن أن تعبدوا الله لاتشركوا به شيئا ، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ، وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا . وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا . وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة ، كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وأمركم

بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال : هل لكم أن أفتدى نفسى منكم ؟؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه . وآمركم بذكر الله عز وجل كثيرا ، فإن مثل ذلك ، كمثل رجل طلبه العدو ، سراعا فى أثره فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله عز وجل » .

« قال ، وقال رسول الله ﷺ : وأنا آمركم بخمس ، الله أمرنى بهن : بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله ، فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربق الإسلام من عنقه . إلا أن يرجع . ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثا جهنم ، قال : يارسول الله ، وإن صام وصلى . قال : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، ادعوا المسلمين بأسمائهم ، بما سماهم الله عز وجل : المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل »[1] .

وفى الحديث توجيهات نجملها على النحو التالى :

(أ) جميع الرسل دعوا إلى إفراد الله وحده بالعبادة .

(ب) إن الله هو الخالق ، وهو الرازق ، ومن يخلق ويرزق فهو مستحق للعبادة ، ومن هنا أوجب الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا .

(جـ) أهميـة الصلاة ، فهى الصلة بين العبد وربه ؛ وعند إقامتها لا يجب أن يلتفت العبد ولا يشغل باله بغير سيده ومولاه .

(د) أهمية أن يكون الإنسان ذَاكراً لله فى جميع أحواله ، لكى يكون فى حماية الله وحفظه من الشيطان ، شيطان الإنس والجن[2] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٥٢ .

(٢) وقد ورد فى الحديث عن خاتم المرسلين ﷺ : تجىء الأعمال يوم القيامة فتجىء الصلاة فتقول يارب أنا الصلاة فيقول : إنك على خير ، وتجىء الصدقة فتقول يارب : أنا الصدقة ، فيقول : إنك على خير ، ثم يجىء الصيام فيقول يارب : أنا الصيام . فيقول : إنك على خير ، ثم تجىء الأعمال كل ذلك يقول الله تعالى : إنك على خير ، ثم يجىء الإسلام فيقول يارب : إنك السلام وأنا الإسلام فيقول الله تعالى : إنك على خير .

وفى تعليق رسول الله ﷺ تبرز جملة معالم فى حياة الأمة المسلمة : ضرورة لزوم الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله ، فقد ورد فى الحديث عن رسول الله ﷺ « إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويسخط لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » رواه مسلم .

هل قتل زكريا عليه السلام ؟ هل قتل يحيى عليه السلام ؟

وردت أخبار عن زكريا عليه السلام ، ولكن لم تقع على خبر صحيح يعتد به ، هل قتل زكريا عليه السلام ؟ أم أنه مات ؟؟ ...

أما يحيى عليه السلام فقد ورد خبر عن سعيد بن المسيب ، يقول عنه ابن كثير أن إسناده صحيح وهو « قدم بختنصر دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي ، فسأل عنه ، فأخبروه فقتل على دمه سبعين ألفا فسكن » . ويقول ابن كثير وهو يقتضى أنه قتل بدمشق ، وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح [١] .

وذلك يعنى أن بنى إسرائيل قد قتلوا يحيى ، ولا عجب فى ذلك فهم قتلة الأنبياء .

وعلى كل فقد شاهد الرسول محمد ﷺ ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام فى السماء ليلة الإسراء والمعراج كما هو ثابت فى الصحيح فى حديث الإسراء [٢] .

---

(١) البداية والنهاية : ج ٢ ، ص ٥٥ .

(٢) البداية والنهاية : ج ٢ ، ص ٥٤ .

الفصل الثامن

الجزء الأول

سـيرة
عيسى بن مريم عليه السلام
آخر أنبياء بنى إسرائيل

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم . إذ قالت امرأة عمران : رب إنّى نذرتُ لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منّى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت : رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنى سميتها مريم ، وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال : يامريم أنّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

« يذكر تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام والخلص من ذريته ، المتبعين شرعه ، الملازمين طاعته ، ثم خصص فقال : وآل إبراهيم فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق . ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا : والد مريم عليها السلام[١] .

---

(١) آل عمران ٣٣ - ٣٧ ، البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٥٦ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ؛ وقد روى المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : « لما قدمت نجران سألونى ، فقالوا : إنكم تقرءون يا أخت هارون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال : إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم ، والصالحين قبلهم » رواه مسلم .

وهذه بعض تعليقات الإمام الحافظ ابن كثير على بعض من هذه الآيات :

« وقولها: ﴿ وإنّى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ قد استجيب لها فى هذا كما تقبل منها نذرها ، فقد روى عن رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد ، فيستهل صارخا من الشيطان إياه إلا مريم وابنها »[1] » .

زكريا عليه السلام يكفل مريم :

﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا ﴾ ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها فى خروقها ثم خرجت بها إلى المسجد (مسجد بيت المقدس) ، فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به ، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها . والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها فى صغرها . ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا فى أيهم يكفلها ، وكان زكريا نبيهم فى ذلك الزمان ، وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل أن زوجته أختهـــا أو خالتها على القولين ، فشاحنوه فى ذلك ، وطلبوا أن يقترع معهم فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم ، وذلك أن الخالة بمنزلة الأم . قال الله تعالى : ﴿ وكفلها زكريا ﴾ أى بسبب غلبه لهم فى القرعة . كما قال الله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾[2] .

وتكفل زكريا بها وكان أحق بها شرعا وقدرا (كما يقول ابن كثير لوجوه عديدة) .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٥٧ ، رواه أحمد ؛ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من بنى آدم مولود إلا نخسه الشيطان حين يولد ، فيستهل صارخا من نخسه إياه : إلا مريم وابنها » البخارى ومسلم .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ٥٧ – ٥٨ . آل عمران ٤٤ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٦٣ .

الله يرزق مريم :

قال الله تعالى : ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال : يامريم أنّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ . قال المفسرون : اتخذ لها زكريا مكانا شريفا من المسجد ، لا يدخله سواه ، فكانت تعبد الله فيه ، وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها ، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها ، حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها فى بنى إسرائيل ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة حتى أنه كان نبى الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقا غريبا فى غير أوانه فكان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف فيسألها : ﴿ أنّى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ﴾ . أى رزق رزقنيه الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . فعند ذلك ، وهنالك طمع زكريا فى وجود ولد من صلبه ، وإن كان قد أسن وكبر : ﴿ قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾(1) .

الله سبحانه وتعالى يبشر مريم بميلاد ورسالة عيسى عليه السلام :

﴿ وإذ قالت الملائكة : يامريم ، إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين . يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون . إذ قالت الملائكة : يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت : رب أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ، قال : كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، ورسولا إلى بنى إسرائيل : أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم

---

(1) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٥٨ . آل عمران ٣٨ .

بماتأكلون وماتدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقا لمابين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعد الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾

« يذكر الله تعالى أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمى زمانها ، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب ، وبشرت بأن يكون نبيا شريفا : ﴿ يكلم الناس فى المهد ﴾ أى فى صغره ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، وكذلك فى حال كهولته ، فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها ، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلا لهذه الكرامة ، ولتقوم بشكر هذه النعمة ، فيقال : إنها كانت تقوم فى الصلاة حتى تفطرت قدماها رضى الله عنها ، ورحمها ، ورحم أمها وأباها ، تقول الملائكة : ﴿ يا مريم إن الله اصطفاك ﴾ أى اختارك واجتباك ﴿ وطهرك ﴾ أى من الأخلاق الرذيلة ، وأعطاك الصفات الجميلة ، ﴿ واصطفاك على نساء العالمين ﴾ . يحتمل أن يكون المراد عالمى زمانها كقوله لموسى : ﴿ إنى اصطفيتك على الناس ﴾ . وكقوله عن بنى إسرائيل : ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ . ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وأن محمدا ﷺ أفضل منهما ، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها ، وأكثر عددا ، وأفضل علما ، وأزكى عملا من بنى إسرائيل وغيرهم . ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ واصطفاك على نساء العالمين ﴾ محفوظ للعموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها ووجد بعدها لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجا بكلام الملائكة والوحى إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله : ﴿ واصطفاك على نساء العالمين ﴾ إذ لم يعارضه غيره والله أعلم .

وأما قول الجمهور كما حكاه أبو الحسن الأشعرى وغيره من أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال ، وليس فى النساء نبية فيكون أعلى مقامات

(١) آل عمران ٤٥ – ٥١ ، تفسير القرآن العظيم جـ١ ، ص ٣٦٢ وبعدها.

مريم كما قال الله تعالى : ﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ﴾ ، فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها ، والله أعلم . وقد جاء ذكرها مقرونا مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رضى الله عنهن وأرضاهن(1) .

وهذا بيان من الله عز وجل لمقام مريم عنده على لسان رسول الله محمد ﷺ : « حسبك من نساء العالمين بأربع مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد »(2) .

وقوله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »(3) .

مريم زوج لرسول الله محمد ﷺ فى الجنة :

قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوجنى فى الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى »(4) .

« ميلاد العبد الرسول عيسى بن مريم البتول :

قال الله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت : إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت أنّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال : كذلك قال ربك : هو علىّ هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا

---

(1) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٥٨ - ٥٩ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .

(2) رواه البخارى ، البداية والنهاية ، جـ٢ ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(3) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٦١ ؛ رواه البخارى ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٦٢ .

(4) رواه الطبرانى ، البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٦٢ .

مقضيا . فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت : ياليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا ، فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى : إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا . فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يامريم لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ، فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال : إنى عبد الله ، آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا . ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ماكان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون ، وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾[1] .

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس ، وأنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبى ذلك الزمان زكريا عليه السلام وأنه اتخذ لها محرابا ، وهو المكان الشريف من المسجد ، لايدخله أحد عليها سواه ، وأنها لما بلغت اجتهدت فى العبادة فلم يكن فى ذلك الزمان نظيرها فى فنون العبادات ، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام ، وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها ، وبأنه سيهب لها ولدا زكيا ، يكون نبيا كريما طاهرا مكرما مؤيدا بالمعجزات ، فتعجبت من وجود ولد من غير والد ، لأنها لا زوج لها ، ولا هى ممن تتزوج . فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما

---

(١) مريم ١٦ – ٣٧ البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ٦٣ ، ومريم هى بنت عمران من سلالة داود عليه السلام وكانت من بيت طيب طاهر من بنى إسرائيل ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ١١٤ – ١٢١ . ومريم بنت عمران ليست أخت موسى عليه السلام وبالتالى فهى ليست أختا لهارون . وموسى قبل عيسى بكثير ، والحقيقة كما ذكر رسول الله أن الناس على عهد مريم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم (تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ١١٩) .

يقول له : « كن فيكون » . فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها ، فإن الناس يتكلمون فيها بسببه ، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر ، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل ، وكانت إنما تخرج من المسجد فى زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لابد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء . فبينما هى يوما قد خرجت لبعض شؤونها « وانتبذت » أى انفردت وحدها شرقى المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام : ﴿ فتمثل لها بشرا سويا ﴾ فلما رأته : ﴿ قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ﴾ . قال أبو العالية : علمت أن التقى ذو نهية ، وهذا يرد قول من زعم أنه كان فى بنى إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه تقى ، فإن هذا قول باطل بلا دليل ، وهو من أسخف الأقوال . ﴿ قال : إنما أنا رسول ربك ﴾ أى خاطبها الملك قائلا : إنما أنا رسول ربك ، لست ببشر ولكنى ملك بعثنى الله إليك ﴿ ليهب لك غلاما زكيا ﴾ أى ولدا زكيا ﴿ قالت : أنّى يكون لى غلام ﴾ أى كيف يكون لى غلام أو يوجد لى ولد ﴿ ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ﴾ أى ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة ﴿ قال : كذلك قال ربك هو علىّ هين ﴾ أى فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلا ﴿ كذلك قال ربك ﴾ أى وعد أنه سيخلق منك غلاما ولست بذات بعل ، ولا تكونين ممن تبغين ﴿ هو على هين ﴾ أى وهذا سهل عليه ويسير لديه ، فإنه على مايشاء قدير . وقوله : ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ أى ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلا على كمال قدرتنا على أنواع الخلق ، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى . وقوله : ﴿ ورحمة منا ﴾ أى نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله فى صغره وكبره فى طفوليته وكهوليته بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لاشريك له ، وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد . وقوله : ﴿ وكان أمرا مقضيا ﴾[1] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٦٤ .

﴿ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ﴾ . أى فألجأها واضطرها الطلق إلى جزع النخلة ، وهو بنص الحديث الذى رواه النسائى بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعا والبيهقى بإسناد وصححه عن شداد بن أوس مرفوعا أيضا ببيت لحم الذى بنى عليه بعض ملوك الروم فيما بعد ﴿ قالت : ياليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا ﴾ فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتن ، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ، ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات فى المسجد ، المنقطعات إليه ، المعتكفات فيه ، ومن بيت النبوة والديانة ، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال ، أو كانت « نسيا منسيا » أى لم تخلق بالكلية(١) .

﴿ فناداها من تحتها أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا . فإما ترين من البشر أحدا ، فقولى : إنى نذرت للرحمن صوما ، فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ وهذا من تمام كلام الذى ناداها من تحتها قال ﴿ كلى واشربى وقرى عينا ، فإما ترين من البشر أحدا ﴾ أى فإن رأيت أحدا من الناس « فقولى » له ، أى بلسان الحال والإشارة ﴿ إنى نذرت للرحمن صوما ﴾ أى صمتا ، وكان من صومهم فى شريعتهم ترك الطعام والكلام قاله قتادة والسدى وابن أسلم ويدل على ذلك قوله ﴿ فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ فأما فى شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل وقوله تعالى : ﴿ فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يامريم لقد جئت شيئا فريا ، ياأخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴾(٢) .

والمقصود أنها لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿ قالوا : يامريم لقد جئت شيئا فريا ﴾ . والفرية : هى الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال ، ثم قالوا لها

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٦٥ - ٦٦ .
(٢) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٦٧ .

﴿ ياأخت هارون ﴾ قيل شبهوها بعابد من عباد زمانهم كانت تساميه فى العبادة ، وكان اسمه هارون[1] .

والمقصود أنهم قالوا ﴿ يا أخت هارون ﴾ ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسبى اسمه هارون وكان مشهورا بالدين والصلاح والخير ، ولهذا قالوا : ﴿ ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ﴾ أى لست من بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم لا أخوك ولا أمك ولا أبوك فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء ، فذكر ابن جرير فى تأريخه أنهم اتهموا بها زكريا ، وأرادوا قتله ففر منهم فلحقوه ، وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه فنشروه فيها كما قدمنا ، ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار ، فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال عظم التوكل على ذى الجلال ، ولم يبق إلا الخلاص والاتكال ﴿ فأشارت إليه ﴾ أى خَاطِبُوه وكَلّموْه فإن جوابكم عليه ، وما تبغون من الكلام لديه فعندها ﴿ قالوا ﴾ من كان منهم جبارا شقيا ﴿ كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ﴾ أى كيف تحيلينا فى الجواب على صبى صغير لايعقل الخطاب وهو من ذلك رضيع فى مهده ، ولا يميز بين محض وزبده ، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والتنقص لنا والازدراء إذ لا تردين علينا قولا نطقيا ، بل تحيلين فى الجواب على من كان فى المهد صبيا ، فعندها ﴿ قال : إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ . هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم فكان أول ما تكلم به أن ﴿ قال : إنى عبد الله ﴾ اعترف لربه تعالى بالعبودية وأن الله ربه ، فنزه جناب الله من قول الظالمين فى زعمهم أنه ابن الله بل هو عبده ورسوله وابن أمته ، ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون ، وقذفوها به ، ورموها بسببه بقوله ﴿ آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ﴾ فإن الله لا يعطى النبوة من هو كما زعموا – لعنهم الله وقبحهم – كما قال تعالى

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٦٧ ، وهو ليس هارون أخو موسى ، لأن عيسى يفصله عن موسى زمن طويل (تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ١١٩) .

﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ﴾ وذلك أن طائفة من اليهود فى ذلك الزمان قالوا إنها حملت به من زنا فى زمن الحيض - لعنهم الله - فبرأها الله من ذلك ، وأخبر عنها أنها صديقة ، واتخذ ولدها نبيا مرسلا ، أحد أولى العزم الخمسة الكبار ، ولهذا قال ﴿ وجعلنى مباركا أينما كنت ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة - تعالى وتقدس - ﴿ وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ﴾ ، وهذه وظيفة العبيد فى القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة والإحسان إلى الخليقة بالزكاة ، وهى تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة ، وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف وقرى الأضياف ، والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات . ثم قال ﴿ وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ﴾ أى وجعلنى برا بوالدتى وذلك أنه تأكد حقها عليه ، لتمحض جهتها إذلا والد له سواها ، فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هداها . ﴿ ولم يجعلنى جبارا شقيا ﴾ أى لست بفظ ولا غليظ ولا يصدر منى قول ولا فعل ينافى أمر الله وطاعته .

﴿ والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ﴾ . وهذه الأماكن الثلاثة التى تقدم الكلام عليها فى قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام . ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبين أمره ووضحه وشرحه قال : ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾[1] .

والمقصود أن الله تعالى بين أمر المسيح قال لرسوله : ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾ يعنى من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله ، ولهذا قال : ﴿ ماكان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أى لا يعجزه شيء ولا يكترثه ، ولا يؤوده بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿ إنَّما امره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ . وقوله : ﴿ إنّ الله

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٦٨ - ٦٩ .

ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم ﴾ هو من تمام كلام عيسى لهم فى المهد ، أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلهه وإلههم ، وأن هذا هو الصراط المستقيم . قال الله تعالى : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ . أى فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه ، فمن قائل من اليهود أنه ولد زنية واستمروا على كفرهم وعنادهم ، وقابلهم آخرون فى الكفر فقالوا هو الله ، وقال آخرون هو ابن الله ، وقال المؤمنون هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه . وهؤلاء هم الناجون المثابون المؤيدون المنصورون ومن خالفهم فى شىء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون ، وقد توعدهم العلى العظيم الحكيم العليم بقوله ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ .

قال البخارى حدثنا صدقة بن الفضل أنبأنا الوليد حدثنا الأوزاعى حدثنى عمير بن هانى حدثنى جنادة بن أبى أمية عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ماكان من عمل »(١) .

آيات قرآنية أخرى تذكر خبر عيسى عليه السلام ، مع تعليقات الإمام الحافظ ابن كثير :

« ﴿ إذ قال الله : ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك ، إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم : إن هذا إلا سحر مبين . وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا : آمنا واشهد بأننا

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٦٩ - ٧٠ .

مسلمون ﴾[1] . يذكره الله تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه فى خلقه إياهُ من غير أب ، بل من أم بلا ذكر ، وجعله آية للناس ، ودلالة على كمال قدرته تعالى ، ثم إرساله بعد هذا كله ﴿ وعلى والدتك ﴾ فى اصطفائها واختيارها ، لهذه النعمة العظيمة وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ، ولهذا قال : ﴿ **إذ أيدتك بروح القدس** ﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أمه ، وقَرَنَهُ معه فى حال رسالته ، ومدافعته عنه ، لمن كفر به : ﴿ **تكلم الناس فى المهد وكهلا** ﴾ أى تدعو الناس إلى الله فى حال صغرك فى مهدك وفى كهولتك . ﴿ **وإذ علمتك الكتاب والحكمة** ﴾ ، أى الخط والفهم ، نص عليه بعض السلف ﴿ **والتوراة والإنجيل** ﴾ . وقوله : ﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى** ﴾ أى تصوره وتشكله من الطين على هيئته عن أمر الله له بذلك ﴿ **فتنفخ فيه فتكون طيراً بإذنى** ﴾ أى بأمرى . يؤكد تعالى بذكر الإذن له فى ذلك لرفع التوهم . وقوله ﴿ **وتبرىء الأكمه** ﴾ قال بعض السلف : وهو الذى يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته . ﴿ **والأبرص** ﴾ هو الذى لا طب فيه بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالا . ﴿ وإذ تخرج الموتى ﴾ ، أى من قبورهم أحياء بإذنى .. وقوله ﴿ وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ . وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى وسلامة له من الردى ، وقوله ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ ، قيل المراد بهذا الوحى وحى إلهام ، أى أرشدهم الله إليه ، ودلهم عليه كما قال ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ﴾ ، وقيل المراد وحى بواسطة الرسول وتوفيق فى قلوبهم لقبول الحق ولهذا استجابوا قائلين ﴿ آمنا ، واشهد بأننا مسلمون ﴾ .

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى بن مريم أن جعل له أنصارا

---

(١) المائدة ١١٠ – ١١١ ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ١١٥ ، البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ٨٢ –٨٦ .

وأعوانا ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لاشريك له ، كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ ﴿ هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم ﴾[1] . وقال تعالى ﴿ **ويعلمه الكتاب والحكمة** والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل أنّى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون ، وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم ، إن كنتم مؤمنين . ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ [2]

كانت معجزة كل نبى فى زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان ، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه ، وكان سحرة أذكياء فبعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهى إليه ، وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر ، الهائل ، الذى لايمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخارق على يديه ، تصديقا له ، أسلموا سريعا ولم يتلعثموا ، وهكذا عيسى بن مريم بعث فى زمن الطبائعية الحكماء ، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذى هو أسوأ حالا من الأعمى والأبرص والمجذوم ، ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق أن يقيم الميت من قبره ، هذا مما يعلم كل أحد معجزة دالة على صدق من قامت به ، وعلى قدرة من أرسله ، وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بعث فى زمن الفصحاء البلغاء فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذى لا يأتيه

---

(١) الأنفال : ٦٣ .

(٢) آل عمران : ٤٨ - ٥٤ ؛ تفسير القرآن العظيم ، ج ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، فلفظه معجز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة ، وقطع عليهم بأنهم لايقدرون لا فى الحال ولا فى الاستقبال ، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا ، وما ذاك إلا لأنه كلام الله الخالق عز وجل ، والله تعالى لا يشبهه شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم ، وعنادهم وطغيانهم ، فانتدب له من بينهم طائفة صالحة ، فكانوا له أنصارا وأعوانا قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته ، وذلك حين هم به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان ، فعزموا على قتله وصلبه ، فأنقذه الله منهم ، ورفعه إليه من بين أظهرهم ، وألقى شبهه على أحد أصحابه ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى وهم فى ذلك غالطون ، وللحق مكابرون ، وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه ، وكلا الفريقين فى ذلك مخطئون ، قال تعالى ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾[1] وقال تعالى ﴿ **وإذ قال عيسى بن مريم : يابنى إسرائيل ، إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات ، قالوا : هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب ، وهو يدعى إلى الإسلام والله لايهدى القوم الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره**الكافرين ﴾[2] إلى أن قال بعد ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا : كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون ؟ نحن أنصار الله ، فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾(٣) . فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد قام فيهم خطيبا ، فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتى بعده

---

(١) آل عمران : ٥٤ .
(٢) الصف : ٦ - ٨ ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
(٣) الصف : ١٤ ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٤ ، ص ٣٦٢ .

ونوه باسمه ، وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه إقامة للحجة عليهم ، وإحسانا من الله إليهم ، كما قال تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون ﴾(١) .

قال محمد بن إسحاق حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يارسول الله أخبرنا عن نفسك ، قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور كسرى من أرض الشـــام » وقد روى عن العرباض بن سارية وأبى أمامة عن النبى ﷺ نحو هذا ، وفيه « دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى » وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم .... الآية ﴾ ولما انتهت النبوة فى بنى إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيبا فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم ، وأنها بعده فى النبى الأمى العربى خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذى هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام قال الله تعالى ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾(٢) يحتمل عود الضمير إلى عيسى عليه السلام ، ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ ، ثم حرض تعالى عباده المؤمنين على نصرة الإسلام وأهله ، ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟ ﴾ أى من يساعدنى فى الدعوة إلى الله ﴿ قال الحواريون : نحن أنصار الله ﴾ ، وكان ذلك فى قرية يقال لها الناصرة فسموا بذلك النصارى ، قال الله تعالى ﴿ فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ﴾ ، يعنى لما دعا عيسى بنى إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى منهم من آمن ومنهم من كفر .. وهم جمهور

---

(١) الأعراف : ١٥٧ .
(٢) الصف : ٦ .

اليهود ، فأيد الله من آمن به على من كفر فيما بعد وأصبحوا ظاهرين عليهم ، قاهرين لهم كما قال تعالى ﴿ إذ قال الله ياعيسى إنِّى متوفيك ورافعك إلىَّ ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة[1] ... الآية ﴾ فكل من كان إليه أقرب كان عاليا فمن دونه ، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذى لا شك فيه من أنه عبد الله ورسوله كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به ، ولما كان النصارى أقرب فى الجملة مما ذهب إليه اليهود - عليهم لعائن الله - كان النصارى قاهرين لليهود فى أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله .

قال الله تعالى ﴿ **إذ قال الحواريون : يا عيسى بن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله : إنِّى منزلها عليكم فمن يكفُر بعد منكم فإنِّى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين** ﴾[2] قد ذكرنا فى التفسير الآثار الواردة فى نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسى وعمار بن ياسر وغيرهم من السلف ومضمون ذلك أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوما فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل منهم صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم ، وتكون لهم عيدا يفطرون عليها يوم فطرهم ، وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم ، فوعظهم عيسى فى ذلك ، وخاف عليهم أن لايقوموا بشكرها ، ولايؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ... وأطرق رأسه ، وأسبل عينيه بالبكاء ، وتضرع إلى الله فى الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا

---

(١) آل عمران : ٥٥ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٦٦ .

(٢) المائدة : ١١٢ - ١١٥ ، تفسير القرآن العظيم ، جـ ٢ ، ص ١١٥ - ١١٩ .

فأنزل الله المائدة من السماء ، والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين ، وجعلت تدنو قليلا قليلا وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة ، وأن يجعلها بركة وسلامة فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدى عيسى عليه السلام .. ثم أمرهم بالأكل منها فقالوا : لا نأكل حتى تأكل فقال : إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء ، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى ... فأكلوا منها ، فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن ، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك .... .

وقد روى ابن حاتم وابن جرير جميعا حدثنا الحسن بن قزعة الباهلى ، حدثنا سفيان بن حبيب حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن خلاس عن عمار ابن ياسر عن النبى ﷺ قال : « نزلت المائدة من السماء خبز ولحم ، وأمروا أن لايخونوا ، ولايدخروا ، ولايرفعوا لغد . فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير » . ثم رواه ابن جرير عن بندار عن ابن أبى عدى عن سعيد عن قتادة عن خلاص عن عمار موقوفا ، وهذا أصح . وكذا رواه من طريق سماك عن رجل من بنى عجل عن عمار موقوفا ، وهو الصواب ، والله أعلم . وخلاس عن عمار منقطع فلو صح هذا الحديث مرفوعا لكان فيصلا فى هذه القصة ، فإن العلماء اختلفوا فى المائدة هل نزلت أم لا ؟؟ فالجمهور أنها نزلت كما دلت عليه هذه الآثار ، كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ، ولا سيما قوله ﴿ إنى منزلها عليكم ﴾ كما قرره ابن جرير والله اعلم . وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحسن بن أبى الحسن البصرى أنهما قالا : (لم تنزل ، وأنهم أبوا نزولها حين قال : ﴿ فمن يكفر بعد منكم ، فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ﴾ . ولهذا قيل : إن النصارى لا يعرفون خبر المائدة ، وليس مذكورا فى كتابهم ، مع أن خبرها مما يتوفر الدواعى على نقله ، والله أعلم[1] .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٨٢ – ٨٧ .

الجزء الثانى

صفة عيسى عليه السلام
وشمائله وفضائله

قال الله تعالى ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمة صديقة ﴾[1] قيل سمى المسيح لمسحه الأرض وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن فى ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له ، وافترائهم عليه وعلى أمه عليهما السلام . وقيل لأنه كان ممسوح القدمين وقال تعالى ﴿ وقفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ﴾ وقال تعالى ﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ والآيات فى ذلك كثيرة جدا وقد تقدم ما ثبت فى الصحيحين « مامن مولود إلا والشيطان يطعن فى خاصرته حين يولد فيستهل صارخا إلا مريم وابنها ذهب يطعن فطعن فى الحجاب » وتقدم حديث عمير بن هانىء عن جنادة عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبد الله ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ماكان من العمل » رواه البخارى (وهذا لفظه ومسلم) .

وروى البخارى ومسلم من حديث الشعبى عن أبى بردة بن أبى موسى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران ، وإذا آمن بعيسى بن مريم ثم آمن بى فله أجران ، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران » . هذا لفظ :

(١) المائدة : ٧٥ .

البخارى . وقال البخارى حدثنا إبراهيم بن موسى أنبأنا هشام عن معمر (ح) وحدثنى محمود حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى أخبرنى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال ، قال النبى ﷺ « ليلة أسرى بى لقيت موسى ، قال : فنعته ، فإذا رجل حسبته مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءه ، قال : ولقيت عيسى ، فنعته النبى ﷺ فقال ربعة أحمر ، كأنما خرج من ديماس – يعنى الحمام – ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به .. الحديث » وقد تقدم فى قصتى إبراهيم وموسى . ثم قال حدثنا محمد بن كثير أنبأنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن مجاهد عن ابن عمر قال ، قال النبى ﷺ « رأيت عيسى وموسى وإبراهيم . فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط » تفرد به البخارى .

وحدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا أبو ضمرة حدثنا موسى بن عقبة عن نافع قال ، قال عبد الله بن عمر ذكر النبى ﷺ يوما بين ظهرانى الناس المسيح الدجال فقال : « إن الله ليس بأعور إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية. وأرانى الليلة عند الكعبة فى المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى منى آدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه ، رجل الشعر ، يقطر رأسه ماء ، واضعا يديه على منكبى رجلين وهو يطوف بالبيت ، فقلت من هذا ؟ فقالوا : المسيح بن مريم . ثم رأيت رجلا وراءه جعد قطط أعور عين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قطن ، واضعا يده على منكبى رجل يطوف بالبيت فقلت : من هذا ؟ فقالوا : المسيح الدجال . ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة . ثم قال البخارى تابعه عبد الله بن نافع ، ثم ساقه من طريق الزهرى عن سالم بن عمر ، قال الزهرى : وابن قطن رجل من خزاعة هلك فى الجاهلية . فبين صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحين : مسيح المهدى ومسيح الضلالة ، ليعرف هذا من هذا إذا نزل ، فيؤمن به المؤمنون ، ويعرف الآخر فيحذره الموحدون . وقال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « رأى عيسى بن مريم رجل يسرق فقال له : أسرقت ؟ قال : كلا ، والذى لا إله إلا هو . فقال عيسى : آمنت بالله وكذبت عينى » . وكذا رواه محمد بن رافع عن عبد الرزاق ، وقال أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد

ابن سلمة عن حميد الطويل عن الحسن وغيره عن أبى هريرة قال : ولا أعلمه إلا عن النبى ﷺ قال : « رأى عيسى رجلا يسرق فقال : يافلان أسرقت ؟ فقال : لا والله ما سرقت . فقال : آمنت بالله وكذبت بصرى » . هذا يدل على سجية طاهرة حيث قدم حلف ذلك الرجل فظن أن أحدا لايحلف بعظمة الله كاذبا على ما شاهده عيانا ، فقبل عذره ورجع على نفسه فقال : آمنت بالله ، أى صدقتك وكذبت بصرى لأجل حلفك . وقال البخارى حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « تحشرون حفاة عراة غرلا . ثم قرأ ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا ، إنَّا كنا فاعلين ﴾[1] ، فأول الخلق يكسى إبراهيم ، ثم يؤخذ برجال من أصحابى ذات اليمين وذات الشمال فأقول أصحابى . فيقول : إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح عيسى بن مريم ﴿ وكنت عليهم شهيدا مادمتُ فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك . وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[2] . تفرد به دون مسلم من هذا الوجه . وقال أيضا : حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدى ، حدثنا سفيان سمعت الزهرى يقول : أخبرنى عبد الله ابن عبد الله عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنَّما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

وقال البخارى : حدثنا إبراهيم ، حدثنا جرير بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى ، وكان فى بنى إسرائيل رجل يقال له جريج يصلى إذ جاءته أمه فدعته ، فقال : أُجيبُها أو أُصلّى . فقالت اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات ، وكان جريج فى صومعة فعرضت له امرأة وكلمته فأبى ، فأتت راعيا فأمكنته من نفسها فولدت غلاما ، فقيل لها : ممن ؟ قالت : من جريج ، فأتوه وكسروا صومعته فأنزلوه وسبوه ،

---

(١) الأنبياء : ١٠٤ .

(٢) المائدة : ١١٨ .

فتوضأ فصلى ثم أتى الغلام فقال : من أبوك ياغلام ؟ قال : فلان الراعى . قالوا : أنبنى صومعتك من ذهب ؟ قال : لا إلا من طين . وكانت إمرأة ترضع ابنا لها ، فى بنى إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة ، فقالت : اللهم اجعل ابنى مثله فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لاتجعلنى مثله . ثم أقبل على ثديها يمصه . - قال أبو هريرة : كأنى انظر إلى النبى ﷺ يمص أصبعه - ثم مر بأمة فقالت : اللهم لاتجعل ابنى مثل هذه ، فترك ثديها فقال : اللهم اجعلنى مثلها . فقالت : لم ذلك ؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون سرقت وزنت ، ولم تفعل » . وقال البخارى : حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى أخبرنى أبو سلمة أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد علات ليس بينى وبينه نبى » تفرد به البخارى من هذا الوجه . ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى داود الحفرى[1] عن الثورى ، عن أبى الزناد عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، وقال أحمد : حدثنا وكيع حدثنا سفيان هو الثورى عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى - عليه السلام - والأنبياء إخوة ، أولاد علات ، وليس بينى وبين عيسى نبى » . وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه . وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه . وقال أحمد حدثنا يحيى عن ابن أبى عروبة حدثنا قتادة ، عن عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « الأنبياء إخوة لعلات . ودينهم واحد[1] ، وأمهاتهم شتى . وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبى ، وأنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، سبط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل بين ممصرتين . فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويبطل الملل حتى يهلك فى زمانه كلها غير الإسلام[1] ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال الكذاب ، وتقع الأمنة فى الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد

---

(١) وهذا بيان كاف أن عيسى عليه السلام كان نبيا مسلماً ، يدعو إلى الإسلام وهو الدين الذى بعث به جميع النبيين .

جميعا ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لايضر بعضهم بعضا . فيمكث ماشاء الله أن يمكث ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون[1] ويدفنونه » .

ثم رواه أحمد عن عفان عن همام عن قتادة عن عبد الرحمن عن أبى هريرة فذكر نحوه ، وقال : « فيمكث أربعين سنة . ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون » . ورواه أبو داود عن هدبة بن خالد عن همام بن يحيى به نحوه . وروى هشام بن عروة عن صالح مولى أبى هريرة عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « فيمكث فى الأرض أربعين سنة . » وسيأتى بيان نزوله عليه السلام فى آخر الزمان فى كتاب الملاحم ، كما بسطنا ذلك أيضا فى التفسير عند قوله تعالى فى سورة النساء ﴿ وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾ وقوله ﴿ وإنه لعلم للساعة .. الآية ﴾ وإنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين : تقدم ياروح الله فصل ، فيقول : لا ، بعضكم على بعض أمراء ، مكرمة الله هذه الأمة . وفى رواية فيقول له عيسى : إنما أقيمت الصلاة لك ، فيصلى خلفه . ثم يركب ومعه المسلمون فى طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لد ، فيقتله بيده الكريمة[1] .

انتهى عرض الإمام الحافظ ابن كثير .

وفى الحديث عن رسول الله محمد ﷺ : « ليس بينى وبين عيسى نبى وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع ، إلى الحمرة والبياض ، ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال فيمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون »* .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٩٦ - ٩٩ .

* حديث صحيح ٢٢١٢/٢٥٦٥ صحيح الجامع الصغير ، رواه أبو داود .

الجزء الثالث

معالم وتوجيهات
ترسيها سيرة عيسى عليه السلام فى حياة الأمة المسلمة

الحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات ، الحمد لله الذى أنعم علينا بنعمة الإيمان ، الحمد لله الذى أرسل رسلا مبشرين ومنذرين ، وحفظ لنا أخبارهم ، ولولا حفظ الله لأخبارهم لكانت الأمة المسلمة الآن تعيش فى حالة من التيه والاضطراب وخاصة فى هذا الزمان الذى شوه فيه اليهود والنصارى تاريخ الأنبياء والرسل عليهم السلام ، والدين الذى دعوا إليه كما يشاءون .

والذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام الآن ، ويتسمون بالنصارى أو المسيحيين ، فإن عيسى عليه السلام يبرأ منهم فى الدنيا والآخرة ، فعيسى لم يكن مسيحيا ، ولم يكن نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما :

﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله ، قال الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون ﴾[1] .

ومن خلال دراسة سيرة هذا النبى الكريم ،ورسالته فى بنى إسرائيل فى بلاد الشام (بيت المقدس) وهى تحت حكم الاستعمار الرومى ، تبرز معالم رئيسية ، وتتضح توجيهات ربانية، تشكل منارات مزهرة تضىء للبشرية – وخاصة الأمة المسلمة – طريقها على ممر الأزمان والعصور :

إن رسالة عيسى عليه السلام كانت تدعو إلى الإسلام ، أى الاستسلام لله سبحانه وتعالى بالكلية .

---

(١) آل عمران : ٥٢ .

إن رسالة عيسى عليه السلام كانت تدعو إلى : « لا إله إلا الله ، عيسى رسول الله » أى إلى الكفر بالطاغوت ، والإيمان بالله الواحد القهار :

﴿ ما قلت لهم إلّا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم ﴾ .

إن القول بأديان سماوية ومنها المسيحية جاء الإسلام فى ختامها قول فاسد ، باطل شرعا وإنَّما هى رسالات سماوية تدعو جميعا إلى دين واحد هو الإسلام ، وإن كان ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ .

﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾ والميزان الإلهى الذى يقوم عليه هذا الاصطفاء هو التقوى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ .

إن النذر لايكون إلا لله ، فلا يجوز النذر لغيره ، لأنه عمل من أعمال الشرك الذى يؤدى بصاحبه إلى النار : ﴿ ربِّ إنى نَذَرْتُ لك ما فى بطنى محررا ﴾ .

إن الغاية التى يسعى المسلم إلى تحقيقها من وراء القيام بأى عمل ، أن يتقبله الله عز وجل : ﴿ فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ﴾ .

إن المسلم يجب أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، ويعيذ ذريته بالله من الشيطان الرجيم لأنه مُسلط على بنى آدم ، وهو يراهم هو وقبيله من حيث لايرونهم ، فهم يأتون الإنسان عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ومن أمامه . ولكى يتقى الإنسان شر الشيطان : شيطان الإنس وشيطان الجن ، ليس أمامه إلا الإستعانة والتحصن بالله عز وجل ، والذكر الدائم المستمر ﴿ وإنِّى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ .

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى ينبت الأبناء نباتا حسنا ، ومن هنا فإن واجب المسلم أن يربى أبناءه على دين الإسلام ، ولكنه فى نفس الوقت يتضرع إلى الله أن ينبت أبناءه نباتا حسنا : ﴿ وأنبتها نباتا حسنا ﴾ .

إن الذى يكفل أبناء المسلمين هو أتقاهم لله ، ولما كان زكريا عليه السلام

نبيا تقيا فقد جعل الله من واجبه كفالة مريم : ﴿ وكفلها زكريا ﴾ . كما لأنه لابد للمرء المسلم أن يحرص على كفالة الصالحين : ﴿ إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ .

إن الرزق بيد الله : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ . أى أن الرزق ليس بيد بنى البشر ، وفى هذا يقول النبى الكريم ، ما معناه : « لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتعود بطانا » .

وهذا الذى نراه مؤكد فى حق مريم :

﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال : يامريم أنّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

إن واجب المسلم أن يكون قانتا لله ، ساجدا راكعا مع الراكعين : ﴿ يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ . ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ .

إن أخبار مريم الصحيحة أنزلها الله سبحانه وتعالى من علمه المكنون على رسولنا محمد ﷺ وحيا ، وأنها كانت قبل ذلك من أخبار الغيب ، ولهذا فإن الأخبار الصحيحة الوحيدة عن مريم وابنها عليهما السلام لاتطلب إلا من كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ . وأما ما ورد فى كتابات المستشرقين ومن سار على نهجهم فهى لا تمت إل الحقيقة بصلة ، جل ما فيها افتراء واضح على رسول الله ﷺ ودينه ورسالته ، بل وفيها تعد على عرضه وعرض والدته .

إن الله سبحانه وتعالى ، وجلت قدرته ، هو عالم الغيب والشهادة ، وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ، بإذن منه وحده ، يطلع أشخاصا بعيونهم على جانب من هذا الغيب ، نلمح هذا حينما أخبرت الملائكة مريم بأن الله يبشرها بكلمة منه ﴿ اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين ﴾ . ولعل ذلك من باب الربط على قلبها ، حتى لاتذهلها المفاجأة وهى تتلقى أمر الله سبحانه وتعالى ، فمريم بشر ،

ولها إمكانيات ولها طاقات ، وهى مقبلة على حمل أمر ضخم قد يعرضها للقيل والقال ، ومن هنا كانت رحمة الله لتربط على قلب مريم عليها السلام ؛ إن الابتلاء ضخم ، ولكن على قدر الابتلاء يكون الأجر .

وإلى جانب هذا الابتلاء يهون أى ابتلاء آخر ولكن للنفس البشرية طاقة واحتمال ، فها هى مريم تقول : ﴿ رب أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ، قال : كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون ﴾ .

ولما كان هذا أمر ضخم فقد أمرها الله أن تستعين على ذلك بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع لتكون أهلا لهذه الكرامة ، ولتقوم بشكر هذه النعمة .

ضرورة الأخذ بالأسباب ، فها هى مريم البتول تؤمر بهز جزع النخلة ، كى تساقط عليها رطبا جنيا ، وكان يمكن أن يأتيها رزقها كما كانت وهى بالمحراب ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا كيف نأخذ بالأسباب رغم أن الرزق مقدر لنا .

إن المعجزات التى أوتيها عيسى عليه السلام كثيرة ومنها :

(أ) أنه يكلم الناس فى المهد .

(ب) أن الله قد علمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .

(ج) أنه كان يخلق لهم من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ويبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله .

(د) وينبىء الناس بما يأكلون ويدخرون فى بيوتهم ... إلى غير ذلك .

ولكن ذلك كله يتحقق لعيسى عليه السلام ، عبد الله ورسوله ، بإذن الله ، وليس لكونه إلها ، أو لأن له قدرة على الإحياء والإماتة ، فعيسى لم يكن يملك لنفسه كونا عن أن يملكه لغيره ، حياتا أو موتا أو نشورا .

أهمية الصلاة والزكاة فى الإسلام ، ولهذا فقد أوصى الله سبحانه وتعالى عيسى بذلك : ﴿ وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ﴾ .

أهمية البر بالوالدين : ﴿ وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ﴾ .

إن تأييد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين الموحدين هو نعمة منه – سبحانه وتعالى– . وتَعلّمُ المؤمنين للكتاب والحكمة هو فضل من الله – عز وجل– وتعلم الكتاب والحكمة يترتب عليه ضرورة الالتزام بأوامر الله والانتهاء عما نهى الله عنه .

كف أيدى الناس عن الدعوة وأصحابها هو نعمة من الله عز وجل .

إن حوارى عيسى عليه السلام كانوا مسلمين لأن عيسى عليه السلام قد دعا إلى الإسلام .

إن المسلم مطالب بإفراد الله وحده بالعبادة ، وتقوى الله وطاعته فى السر والعلانيـــة .

إن على الداعية إلى الله أن يراعى حال المخاطبين وهو يدعوهم إلى الله تعالى .

إن الانحرافات بين بنى إسرائيل على عهد عيسى عليه السلام كانت قد بلغت الذروة ، نرى ذلك فى قيامهم يالوشاية إلى ملوك الروم لقتل عيسى عليه السلام رغم أنه نبى منهم .

إن الله سبحانه وتعالى يحفظ نبيه وعبده عيسى عليه السلام من كيد الكائدين ، وممن حاولوا قتله .

إن الدعوة إلى الله قد تكلف الإنسان المسلم حياته : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ .

إن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله ، والله غالب على أمره ، فالذى وشى بعيسى عليه السلام هو الذى أخذ مكانه ، وقتل بدلا منه .

إن الله لايهدى القوم الظالمين ، الذى ظلموا أنفسهم وغيرهم بالشرك بالله عز وجل .

إن الظلمة فى كل زمان حريصون على إطفاء نور الإسلام ، وإخماد أصوات جنده .

تعهد الله – سبحانه وتعالى – بحفظ دينه وإظهاره على أيدى المؤمنين الموحدين ، رغم كل محاولات الكافرين : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ .

يجب أن يحرص المسلم على نصرة دين الله عز وجل ، وتكثير جنده وأعوانه وأنصاره .

إن التوراة والإنجيل الصحيحة قد بشرت برسالة محمد ﷺ .

سمت أصحاب الدعوات : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

إن المفلح هو الذى يؤمن بالله ، ويكثر أتباع الإسلام وينصرهم .

إن آخر أنبياء بنى إسرائيل هو عيسى عليه السلام ، وبعدها انتقلت القيادة والشهادة إلى أمة محمد ﷺ .

إن الإنجيل قد أنزل على عيسى عليه السلام ، وكان يشتمل على هداية ونور .

إن عيسى عليه السلام عبد رسول وقد شاهد محمد ﷺ عيسى عليه السلام فى السماء ليلة الإسراء ، كما شاهده يطوف بالبيت العتيق .

من صفات الدجال أنه أعور العين اليمنى لكى يحذره المسلمون إذا ابتلوا به .

التواضع لله عز وجل هو سمت العبد المسلم .

إن الأنبياء قد دعوا إلى دين واحد هو الإسلام « والأنبياء أخوة لعلات ، دينهم واحد » وكذلك عيسى عليه السلام .

إن عيسى عليه السلام لم يقتل ، ولكنه رفع إلى السماء ، وسينزل إلى الأرض مرة أخرى يكسر الصليب ويقتل الدجال ويبطل الملل كلها حتى لا يبقى

غير الإسلام ، ثم يموت ويصلى عليه المسلمون . وهذا دليل على أنه نبى مسلم قد دعا إلى الإسلام .

الجزء الرابع

أصحاب عيسى عليه السلام بعد وفاته فرق وشيع يبدلون دين الله عز وجل

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف كما أوردناه عند قوله : ﴿ **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾ قال ابن عباس وغيره : قال قائلون منهم : كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء ، وقال آخرون : هو الله . وقال آخرون : هو ابن الله . فالأول هو الحق ، والقولان الآخران كفر عظيم كما قال ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم** ﴾ . وقد اختلفوا فى نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ، ما بين زيادة ونقصان ، وتحريف وتبديل ، ثم بعد المسيح بثلاثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمى والبلية الكبرى . اختلف البتاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين فى المسيح على أقوال متعددة لاتنحصر ولا تنضبط ، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين بانى القسطنطينية وهم المجمع الأول ، فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات فسموا الملائكة ودحض من عداهم وأبعدهم . وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن أديوس الذى ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله ورسول من رسله فسكنوا البرارى والقفار والبوادى وبنوا الصوامع والديارات والقلايات ، وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل وبنت الملائكة الكنائس الهائلة ، عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان فحولوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجدى .

الجزء الخامس

بيان بناء بيت لحم والقيامة

«وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح ، وبنت أمه هيلانة القيامة – يعنى على قبر المصلوب – وهم يسلمون لليهود أنه المسيح وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام ومنها مخالف للعتيقة التى هى التوراة ، وأحلوا أشياء هى حرام بنص التوراة ومن ذلك الخنزير وصلوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى . ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ثم حول إلى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل . وصوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك ، ووضعوا العقيدة التى يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التى يسمونها بالأمانة ، وهى فى الحقيقة أكبر الكفر والخيانة وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أصحاب المجمع الثانى واليعقوبية أصحاب يعقوب البرادعى ، أصحاب المجمع الثالث يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون فى تفسيرها ، وها أنا أحكيها وحاكى الكفر ليس بكافر لأبث على ما فيها من ركة الألفاظ وكثرة الكفر والخيال المفضى بصاحبه إلى النار ذات الشواظ فيقولون : نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض كل مايرى وكل ما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الأب قبل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر الذى كان به كل شيء من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب على عهد ملاطس النبطى وتألم وقبر وقام فى اليوم الثالث كما فى الكتب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب وأيضا فسيأتى بجسده ليدبر

الأحياء والأموات الذى لا فناء لملكه ، وروح القدس الرب المحيى لمنبثق من الأب مع الأب والابن مسجود له ، وبمجد الناطق فى الأنبياء كنسبة واحدة . جامعة مقدسة يهولية ، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وأنه حى قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه . آمين[1] » .

– انتهى كلام الإمام الحافظ إسماعيل بن كثير –



---

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ١٠١ – ١٠٢ .

الفصل التاسع

الجزء الأول

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

« حفظ الرب وبيان كذب اليهود والنصارى فى دعوى الصلب »

« قال الله تعالى ﴿ **ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين . إذ قال الله : ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ، ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما . وقولهم إنَّا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزا حكيما . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا** ﴾ فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به ، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة فى ذلك الزمان .

قال الحسن البصرى ومحمد بن إسحاق : كان اسمه داود بن نورا ، فأمر بقتله وصلبه فحصروه فى دار ببيت المقدس ، وذلك عشية الجمعة ، ليلة السبت . فلما حان وقت دخولهم ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ، ورفع عيسى من روزنة ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشرطة

فوجدوا ذلك الشاب الذى ألقى عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له ، وسلّم لليهود عامة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى ، أنه صلب ؛ وضلوا بسبب ذلك ضلالا مبينا كثيرا فاحشا بعيدا ، وأخبر الله تعالى بقوله : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته** ﴾ أى بعد نزوله إلى الأرض فى آخر الزمان قبل قيام الساعة ، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام[١] .

.. قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا منهم من الحواريين – يعنى فخرج عليهم من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء – فقال : إن منكم من يكفر بى اثنى عشرة مرة بعد أن آمن بى ، ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى فيكون معى فى درجتى ، فقام شاب من أحدثهم سنا فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : اجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا . فقال : أنت هو ذاك ، فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثنى عشرة مرة بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق : فقالت طائفة : كان الله فينا ماشاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ماشاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ماشاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا ﷺ . قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾[٢] » .

---

(١) وهذا دليل آخر على أن عيسى كبقية الرسل – قد دعا إلى الإسلام وهو الدين الذى لايقبل الله من الأولين أو الآخرين ما عداه .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٩١ – ٩٢ .

الجزء الثانى

بيـــان
أن الله تعالى منزه عن الولد

«قال تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا ﴾ أى شيئا عظيما ومنكرا من القول وزورا ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾ فبين أنه تعالى لا ينبغى له الولد لأنه خالق كل شىء ومالكه ، وكل شىء فقير إليه ، خاضع ذليل لديه ، وجميع سكان الأرض والسموات عبيده ، وهو ربهم لا إله إلا هو ولا رب سواه كما قال تعالى ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ فبين أنه خالق كل شىء ، فكيف يكون له ولد ، والولد لايكون إلا بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا نظير له ولا شبيه ولا عديل له فلا صاحبة له فلا يكون له ولد كما قال تعالى ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ تقرر أنه الأحد الذى لا نظير له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله « الصمد » وهو السيد الذى كمل فى علمه وحكمته ورحمته وجميع صفاته ، « لم يلد » أى لم يوجد منه ولد « ولم يولد » أى ولم يتولد عن شىء قبله « ولم يكن له كفوا أحد » أى وليس له عدل ولا مكافىء ولا مساو فقطع النظير المدانى الأعلى والمساوى فانتفى أن يكون له ولد إذ لايكون الولد إلا متولدا بين شيئين متعادلين أو متقاربين تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وقال تبارك

(١) البداية والنهاية ، جـ ٢ ، ص ٧٠ - ٧٤ .

وتعالى وتقدس : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم، إنَّما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما . ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ .

ينهى الله أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلو والإطراء فى الدين ، وهو مجاوزة الحد ، فالنصارى – لعنهم الله – غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد ، فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التى أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام ، والذى اتصل بها من الملك هى الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم وهى مخلوقة من مخلوقات الله تعالى كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفا لها وتكريما . وسمى عيسى بها لأنه كان بها من غير أب ، وهى الكلمة أيضا التى عنها خلق وبسببها وجد كما قال تعالى :

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون ، بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئونَ قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ . فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى عليهم لعائن الله ، كل من الفريقين ادعوا على الله شططا ، وزعموا أن له ولدا ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ولا فيما ائتفكوه ، إلا مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة ، تشابهت قلوبهم ،

وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود الذى يعبرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول ، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثان ونفس وفلك ، ثم صدر عن الثانى كذلك حتى تناهت العقول إلى عشرة والنفوس إلى تسعة ، والأفلاك إلى تسعة باعتبارات فاسدة ذكروها واختيارات باردة أوردوها ، ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم ، وقلة عقلهم موضع آخر .

وهكذا طوائف من مشركى العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله ، وأنه صاهر سروات الجن فتولد منهما الملائكة – تعالى الله عما يقولون ، وتنزه عما يشركون – كما قال تعالى ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ وقال تعالى ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ، وإنهم لكاذبون ، اصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين ﴾ . وقال تعالى ﴿ وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين ﴾ . وقال تعالى فى أول سورة الكهف وهى مكية ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنَّ لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ، مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ . وقال تعالى ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى ، له مافى السموات وما فى الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ؟ أتقولون على الله ما لاتعلمون ، قل إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون ، متاع فى الدنيا ، ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ . فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركى العرب واليهود

والنصارى الذين ادعوا وزعموا بلا علم أن لله ولدا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا » .

«ولما كانت النصارى – عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة – من أشهر من قال بهذه المقالة ، ذُكِروُا فى القرآن كثيرا للرد عليهم وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم ، وقد تنوعت أقوالهم فى كفرهم ، وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض ، وأما الحق فلا يختلف ولا يضطرب قال تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ . فدل على أن الحق يتحد ويتفق ، والباطل يختلف ويضطرب . فطائفة من ضلالهم وجهالهم زعموا أن المسيح هو الله تعالى ، وطائفة قالوا هو ابن الله – عز الله – وطائفة قالوا هو ثالث ثلاثة – جل الله – . قال الله تعالى فى سورة المائدة ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء ، والله على كل شيء قدير ﴾ فأخبر تعالى عن كفرهم وجهلهم وبين أنه الخالق القادر على كل شيء ، المتصرف فى كل شيء ، وأنه رب كل شيء ومليكه إلهه . وقال فى أواخرها ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم . ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ . حكم تعالى بكفرهم شرعا وقدرا فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم هو عيسى بن مريم قد بين لهم أنه عبد مربوب مخلوق مصور فى الرحم ، داع إلى عبادة الله وحده لاشريك له وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار وعدم الفوز بدار القرار ، والخزى فى الدار الآخرة والهوان والعار ، ولهذا قال ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ﴾ . ثم قال ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ﴾ قال ابن جرير وغيره المراد بذلك قولهم

بالأقانيم الثلاثة . أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن على اختلافهم فى ذلك ، ومجامعهم الثلاثة فى زمن قسطنطين بن قسطس ، وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة ، وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة ولهذا قال تعالى ﴿ وما من إله إلا إله واحد ﴾ أى وما من إله إلا الله وحده لاشريك له ولانظير له ولا كفء له ولا صاحبة له ولا ولد ، ثم توعدهم وتهددهم فقال ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار والعظائم التى توجب النار فقال ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ ثم بين حال المسيح وأمه وأنه عبد رسول وأمه صديقة أى ليست بفاجرة كما يقوله اليهود – لعنهم الله – وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا وقوله : ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما ، أى ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلها – تعالى الله عن قولهم وجهلهم علوا كبيرا – وقال السدى وغيره المراد بقوله : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ زعمهم فى عيسى وأمه أنهما الإلهان مع الله – يعنى كما بين الله تعالى كفرهم فى ذلك بقوله فى آخر هذه السورة الكريمة :

﴿ وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله . قال : سبحانك مايكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . يخبر تعالى بأنه يسأل عيسى بن مريم يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله أو أنه الله أو أنه شريكه ، تعالى الله عما يقولون ، فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ، ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟؟ قال : سبحانك !! ﴾ أى تعاليت أن يكون معك شريك ﴿ ما يكون لى أن أقول ما

ليس لى بحق ﴾ أى ليس هذا يستحقه أحد سواك ﴿ إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ﴾ . وهذا تأدب عظيم فى الخطاب والجواب ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به ﴾ حين أرسلتنى إليهم ، وأنزلت على الكتاب الذى كان يتلى عليهم ، ثم فسر ما قال لهم بقوله : ﴿ أن اعبدوا الله ربى وربكم ﴾ أى خالقى وخالقكم ورازقى ورازقكم ﴿ وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى ﴾ أى رفعتنى إليك حين أرادوا قتلى وصلبى فرحمتنى وخلصتنى منهم وألقيت شبهى على أحدهم حتى انتقموا منه ، فلما كان ذلك ﴿ كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شى شهيد ﴾ . ثم قال على وجه التفويض إلى الرب عز وجل والتبرى من أهل النصرانية ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ ، أى وهم يستحقون ذلك ﴿ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لايقتضى وقوع ذلك ، ولهذا قال : ﴿ فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . ولم يقل الغفور الرحيم . وقد ذكرنا فى التفسير ما رواه الإمام أحمد عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ، وقال : « إنى سألت ربى عز وجل الشفاعة لأمتى فأعطانيها وهى نائلة إن شاء الله تعالى لمن لايشرك بالله شيئا » . وقال : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهوا ، لاتخذناه من لدنا ، إن كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون . وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ، خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل ، وكبره تكبيرا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا

أحد ﴾ وفى الصحيح أيضا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم » ولكن ثبت فى الصحيح أيضا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ . وهكذا قوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ، ثم أخذتها وإلىّ المصير ﴾ . وقال تعالى : ﴿ نمتعهم قليلا ، ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون . متاع فى الدنيا ، ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ .

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ٧٠ — ٧٥ .



الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المجاهدين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيآت أعمالنا ، من يهده الله فما له من مضل ، ومن يضل فلا هادى له .

(أما بعد) ... .

إن سير الأنبياء – عليهم السلام – ومنهم إبراهيم وزوجه وبنوه ، مليئة بالعظات والعبر والدروس المستفادة ، إنها مدرسة ضخمة ، دراستها ومدارستها ، لتربية الأمة المسلمة عليها ضرورى وهام وواجب ، لأنها دار علم ضخمة ، فيها تربى محمد وصحبه ، على عين الله – سبحانه وتعالى – وبتوجيه من الوحى عليه السلام ، إنه لا غنى عن دراستها وتملى ما فيها ، والوقوف عندها ، إذا أرادت الأمة المسلمة أن تعرف موقعها فى الماضى ، ودورها فى المستقبل .

وحسبنا بعض اللمحات الخاطفة من هذه الدروس ، والتوجيهات اللازمة والضرورية لحياة الأمة المسلمة :

* **وجوب الدعوة إلى الله** – سبحانه وتعالى – وما يقتضيه ذلك من حشد لطاقات الأمة المسلمة وإمكانياتها ، وتوجيهها لعمل كل ما يؤدى إلى إقامة حكم الله فى الأرض كلها ، حتى يكون الدين كله لله سبحانه وتعالى ، وحتى يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

* **الدور الذى يمكن أن يؤديه الإسلام فى حياة الأفراد والأمم :**

إن دراستنا لتاريخ الأنبياء (**إبراهيم عليه السلام وذريته**) أظهرت لنا حقيقة الدور الذى أداه ويمكن أن يؤديه الإسلام فى حياة الأمم والشعوب .

يتضح لنا ذلك من سيرة إبراهيم عليه السلام ، الذى جعل منه الله سبحانه وتعالى بهذا الإسلام داعية إلى الله على بصيرة ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، لا يخشى فى الله لومة لائم ، لقد جعل الله منه بالإسلام فتى شجاعا ، يقف مجردا من كل سلاح سوى سلاح الإيمان فى وجه أمة بأكملها ، تملك كل مقومات القوة الظاهرة لم يخف ، لم يتردد ، لم يلتمس لنفسه عذرا ، لم يأخذ بالرخصة ، ولكنه أخذ بالعزيمة ، ولعل هذا من قدر الله سبحانه وتعالى ، لأنه لو لم يأخذ بالعزيمة ، فمن كان يمكن أن يقيم الحجة على المجتمع بأكمله حكاما ومحكومين .

لقد جعل الله بالإسلام من إبراهيم عليه السلام فتى شجاعا ، يقبل على الموت بصدر رحب فى سبيل الله ، فحينما أعدت النيران ، لم يتردد ، ولم يتقاعس ، لأنه يدرك جيدا أن الموت والحياة بيد الله ، وأنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها وأجلها .

لقد جعل الله من إبراهيم بالإسلام داعية يخرج من بيته مهاجرا فى سبيل الله ، يترك أهله وقومه وعشيرته ؛ وإن كان الله قد أبدله دارا خيرا من داره ، وقوما وعشيرة خيرا من قومه وعشيرته ، ووطنا خيرا من وطنه ، وذرية مسلمة طيبة .

لقد أصبح إبراهيم بالإسلام نبيا مستسلما لله سبحانه وتعالى بالكلية ، هو وأهله وزوجه وعشيرته ، وبفضل الله ، ثم بفضل هذا الدين استطاع إبراهيم عليه السلام أن ينشىء أمة مسلمة بجوار بيت الله الحرام ، كان من ذريتها خاتم المرسلين محمد ﷺ .

إن دراسة الدور الذى أداه الإسلام فى حياة إبراهيم عليه السلام وذريته يبين لنا حقيقة الدور الذى يمكن أن يؤديه الإسلام فى حياة البشرية فى حاضرها

ومستقبلها ، كيف أنشأ الله بهذا الدين أمة تحت إمامة إبراهيم ومن بعده إسماعيل فى حرم الله الآمن ، لكى يكون من أبنائها خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ .

* **إن دراسة سيرة إسماعيل عليه السلام وسيرة أمة السيدة هاجر :**

تبين لنا حقيقة الدور العظيم الذى يمكن أن يؤديه الإسلام فى حياة الأفراد والأمم ، حتى يكون الأفراد والأمم إسلاما يتحرك على الأرض .

* **إن دراسة سيرة لوط – عليه السلام –** :

تبين لنا كيف تحول بحياته من الجاهلية فى المجتمع الجاهلى إلى الإسلام ، إلى رسول يدعو إلى عبادة الله وحده ، وترفض الشرك والانحراف الذى كان عليه المجتمع الذى هاجر إليه ، إن دراسة مثل هذه السيرة تؤكد لنا أن الإصلاح للمجتمعات المعاصرة بما فيها من أوبئة وأمراض فتاكة يمكن أن تعصف بكيانها ، لا يمكن أن يتحقق إلا بالإسلام .

* **ولقد لاحظنا كيف أصبح أبناء يعقوب (بنو إسرائيل)** المسلمين مفضلين على العالمين بفضل الإسلام : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأنّى فضلتكم على العالمين ﴾ ، وكيف أنهم بتخلى ذريتهم عن هذا الإسلام قد أصبحوا ملعونين أينما ثقفوا إلّا بحبل من الله وحبل من الناس ، لعل أبناء الإسلام يدركونأنه لاعزة لهم بغير الإسلام ولا قيمة لهم بغير الإسلام ، وليتبينوا أن ما هم فيه الآن من وضع يحزن له قلب الحر ، هو بسبب بعدهم عن كتاب ربهم وسنة نبيهم محمد ﷺ .

يتضح من دراسة سيرة نبى الله يعقوب – عليه السلام – كيف جعل الله منه مسلما مطمئنا إلى وعد الله وقدره ، همه بالدرجة الأولى أن يكون هو وأبناؤه مسلمين يعيشون على الإسلام ويموتون عليه :

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ،

ونحن له مسلمون ﴾ .

هذه هى القضية الكبرى التى كانت تشغل بال هذا النبى العظيم ، عند الموت ، إنها قضية الإسلام ، والإسلام فقط ، لا يشغله ساعة الموت الميراث أو الثروة أو الأرض أو الدنيا بأكملها ، لأنه يدرك أن ذلك متاع زائل ، لا قيمة له ، ولا يجب أن يأبه لها المسلم الصادق ، الإيمان ، إنما الذى يشغله فى اللحظة التى أوشك على مفارقة الأهل إلى الرفيق الأعلى هو الإسلام ، فيجب أن يدرك المسلمون أن الإسلام هو مسئوليتهم التى يعيشون لها ويموتون فى سبيلها وعليها ، إن راموا لأنفسهم عزا فى الدنيا ، وخلاصا فى الآخرة .

* **إن الله قد ربى يوسف – عليه السلام – على الإسلام :**

ولذلك نرى يوسف – عليه السلام – منذ أصبح شابا ، عفيف النفس ، طاهر الذيل ، لا يتوقف لحظة واحدة ، وفى جميع الأحوال – حتى لو كان سجينا – عن الدعوة إلى الإسلام ؛ ويعرض قضية التوحيد بصورة واضحة كل الوضوح : ﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ماتعبدون من دونه إلّا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلّا لله أمر ألا تعبدوا إلّا إياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

والشيء الجدير بالذكر أن انضباط يوسف مع أوامر الإسلام العظيم ، وكونه إسلاما يتحرك على الأرض ، جعل قيادة الدولة المصرية تثق فيه ، وتطلب منه أن يقود القافلة إلى بر الأمان خروجا من المأزق الذى كانت تعانيه ، نتيجة الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى تعرضت لها البلاد .

كما أن المجتمع المصرى برمته قد انتقل نقلة ضخمة ، من مجتمع يسرى فيه الانحلال والانهيار والشرك والظلم ، وإن ظلت فيه آثار العقيدة الإسلامية باهتة ، قبل رسالة يوسف – عليه السلام – إلى مجتمع مسلم نظيف ، يتعفف فيه المسئولون عن المظلمة : ﴿ معاذ الله أن نأخذ إلّا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ ، فى ظل قيادة يوسف – عليه السلام – لقد حوله الإسلام إلى مجتمع مسلم ، فتح

ذراعيه لأخوة الإسلام من البلاد المجاورة ، من بلاد الشام وغيرها ، لم يقل أحد ، مالنا وغيرنا ، أو إنهم ليسوا مواطنين ، ولكنه الإسلام كان قد فعل فعله ، فها هم مسلمو مصر يفتحون أذرعتهم لمسلمى الشام فى ظروف المجاعة التى اجتاحت بلاد الشرق فى ذلك الزمان البعيد . وما أحرى المسلمون اليوم أن يتعلموا ذلك الدرس فى زمننا المعاصر . وما أحرى دعاة الوطنية والقومية من أبناء المسلمين أن يتربوا فى مدرسة الإسلام على هذه النماذج الطيبة مثلما فعل محمد ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم .

* **إن دراسة سيرة موسى – عليه السلام –** :

تظهر لنا كيف ربى الله سبحانه وتعالى نبيه ورسوله الكريم بالإسلام ، ليكلفه بعد مضى سنوات طويلة بأضخم رسالة بعد رسالة محمد إلى أعتى ملوك الأرض فى زمانه .

إن تربية موسى على الإسلام ، جعلت منه إسلاما يتحرك على الأرض يصدع بأمر الله ، ويذهب إلى مصر وأخوه هارون لإبلاغ فرعون مصر دعوة الله عز وجل : ﴿ اذهبا إلى فرعون ، إنَّه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ .

ذهب إليه وهو مجرد من كل وسائل القوة المادية ، يحمل إليهم دعوة الأخوة يحمل إليهم دعوة فيها خيرى الدنيا والآخرة .

إن الدعاة إلى الله مطالبون أكثر من أى وقت مضى بالوقوف طويلا ، وقفة المتعلم المسلم ، وقفة يدرسون فيها بإمعان سيرة موسى – عليه السلام – وسيرة والدته وأخته وسيرة مؤمن آل فرعون ، وسيرة امرأة فرعون « آسية بنت مزاحم » ، وسيرة السحرة ، كى يتعرفوا على حقيقة الدور الذى يمكن أن يؤديه الإسلام فى حياة بنى آدم ... الواقع إنها نقلة ضخمة لا يستطيعها سوى الإسلام ، يعجز القلم عن تصويرها ، إنها نقلة أصبح موسى على أثرها نبيا من أولى العزم ، نقلة أصبح السحرة بها من مأجورين إلى شهداء بررة ، نقلة أدت إلى أن تركل زوجة فرعون تاج أكبر دولة بقدمها ، فى سبيل جنة عرضها السموات والأرض ،

نقلة علمت مؤمن آل فرعون كيف يدعو إلى الله على بصيرة .. .

* إن دراستنا لحقيقة الدور الذى يمكن أن يؤديه الإسلام فى حياة الأفراد والأمم والدول ، تتضح لنا جليا عند دراسة قصة بنى إسرائيل مع طالوت وداود عليه السلام ، وكيف أن الإسلام قد جعل من داود - عليه السلام - عابدا متبتلا ، يسبح معه الطير والجبال ، خاشعا ذليلا بين يدى الخالق العظيم ، ولكنه فى نفس الوقت إذا دعاه داعى الجهاد يتقدم صفوف المجاهدين .. .

يتضح لنا ذلك جليا عند دراسة سيرة سليمان - عليه السلام - ذلك الذى ضرب الله لنا به نموذجا لدولة إسلامية ، حاكمها مسلم ، والرعية مستسلمة لله عز وجل ، ومُمَكن لها فى الأرض والبحر والجو ، علّ أبناء المسلمين ، مثلما فعل محمد ﷺ - وصحبه رضوان الله عليهم ، يدركون الدور العظيم ، الذى يمكن أن يكون لهم فى قيادة البشرية إلى الخير ، إن هم تمسكوا بهذا الإسلام العظيم .

إن دراسة سير هؤلاء الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام ، يتبين لنا وللدعاة فى كل مكان ، لماذا فَضَّل الله إبراهيم وذريته على العالمين ... لماذا اجتباهم الله وهداهم إلى صراط مستقيم لماذا أعطاهم الكتاب والحكم والنبوة ؟ لماذا هداهم الله وجعلهم قدوة يقتدى بهم ؟ ... إن السبب هو الإسلام ... والإسلام فقط ، لم يُفَضَّلُوا لمال أو جاه أو سلطان وإنَّما فضلوا بسبب إسلامهم ، وإيمانهم بالله عز وجل ، وتوحيدهم له حق التوحيد ، وعدم الشرك به .

إن القرآن الكريم قد حفظ لنا الكثير من أخبار السابقين ، ومنها **سيرة داود عليه السلام** ، فها هو كتاب الله - عز وجل - يقدم لنا فى سيرة داود عليه السلام نموذجا لرسول كريم يعرف ربه وإلهه ، ويوحده حق التوحيد ، نموذجا لداعية إلى الله - عز وجل - على بصيرة ، نموذجا لعابد متبتل فى محرابه بين يدى خالقه وسيده ، نموذجا لمجاهد باع نفسه وماله لله - عز وجل - نموذجا لحاكم مسلم يحكم بشريعة الله ، ويتعفف عن أن يأخذ شيئا من بيت مال المسلمين ليقتات منه هو وأسرته بل يصر على أن يأكل من عمل يديه .

يقول رسولنا محمد - ﷺ - « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، ولا يفر إذا لاقى » أى إنه كان يؤدى الفرائض ويتطوع ، ولكن التطوع سواء فى الصلاة أو الصيام لم يجعله يغفل وينكص عن واجب الجهاد فى سبيل الله : « كان لا يفر إذا لاقى » .

لابد من التوازن فى حياة الإنسان لا يُعَطِّلُ فَرِيضَةً على حساب نافلة ، لا ينقطع إلى أداء جزء من العبادات والفرائض ويغفل البقية الباقية كما هو واقع فى زماننا أناس ينقطعون تماما للصلاة والصيام والذكر وينسون تماما بل قد لا يعترفون بالعبادات الأخرى ؛ وكما كان الأمر إلى عهد قريب مسلمون قابعون فى المساجد يصلون ويصومون ويذكرون ، ويحصلون العلم ، تاركين العدو ينتهك مقدساتهم وأعراضهم ، ويتحكم فى رقابهم ، ونسوا أن مجاهدة العدو عبادة من عبادات الإسلام ، وأنه لو كان علمهم صحيحا ، لعلموا أن جهاد العدو فرض عين . أناس يدَّعون الإسلام ، فينقطعون إلى الصلاة وغيرها ، ولا يتكسبون ولا يعملون ، بل يعيشون عالة على غيرهم ، ونسوا أن رسل الله - وهم خير الخلق - كانوا ممتهنين ، فكان منهم راعى الغنم ، وكان منهم النجار ، وكان منهم الحداد ، ونسوا أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وأن نبى الله داود كان يأكل من كسب يده .

إن حال المسلمين يدعو إلى العجب ،وخاصة هؤلاء الذين يفهمون الإسلام فهما جزئيا ، فيتصورون أن الإسلام صلاة وصيام وذكر وانقطاع عن الدنيا ، ويتركون الحياة الدنيا للكفار والمشركين ويصبحون عالة عليهم . إن الإسلام هو الدنيا والآخرة : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ .

لقد كان دواد - عليه السلام - عابدا يسبح الله ويحمده ويوحده لدرجة أن الجبال كانت تردد معه ، والطير : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب ﴾ ، ورغم ذلك كان يصنع الدروع بيده : ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ﴾ .

لقد كان داود – عليه السلام – ذاكرا لله فى جميع أحواله ، ولم يدفعه ذلك إلى الانقطاع عن الدنيا ، بل كان مجاهدا مع المجاهدين : ﴿ فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ﴾ .

وهكذا يجب أن يكون المسلمون ، يبنون أساس الإيمان الصحيح فى قلوبهم ، و يربون عليه أبناءهم ، وأهلهم وعشيرتهم ومجتمعهم وفى نفس الوقت يعلمونهم كيف يرتقون بحياتهم ، كيف ينمونها ، كيف يضربون بسهم وافر فى مجالات الحياة المدنية التى ترضى الله عز وجل ، كيف يمسكون بزمام القوة المادية ، ويعلمونهم كذلك كيف يكونون مجاهدين لتكون كلمة الله هى العليا فى الأرض كلها ، مجاهدين لنشر كلمة التوحيد فى الأرض كلها ، ويعلمونهم كذلك كيف يكونون مجاهدين لدفع العدو ، عدو الله ، عدو الإسلام الذى يجسم على صدور المسلمين .

ويعلمونهم كذلك كيف يكونون مجاهدين لتخليص المسلمين من قبضة المغتصب الغربى والشرقى ، انتصارا لإخوانهم فى الإسلام .

إن القرآن الكريم يقدم لنا فى سيرة داود – عليه السلام – نموذجا لحاكم مسلم مأمور من الله – عز وجل – أن يحكم بين الناس بالحق المنزل من عند الله عز وجل ، ففيها وصية من الله – عز وجل – لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عند الله عز وجل ، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد الله تبارك وتعالى من ضل عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد : ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ .

إن هذا النموذج يؤكد لنا حقيقة هامة ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ ، وهو الحق المنزل من عنده سبحانه وتعالى ، ولا يجوز لأحد أن يعدل عن حكم الله إلى غيره ، أو يرضى بحكم غير حكم الله عز وجل .

فداود – عليه السلام – كان رسولا نبيا ، صاحب دعوة إلى الإسلام ، فى دولة دينها الإسلام ، كانت عاصمتها بيت المقدس ، وفى نفس الوقت كان حاكما

لهذه الدولة ، وهذا نموذج لمن يتصورون أن الدعوة إلى الله يمكن أن تسير بمعزل عن الدولة ، أو العكس هو الصحيح ، فالحاكم فى الدولة الإسلامية هو داعية إلى الله ، إلى دين الإسلام ، وما عرفت البشرية ذلك الفصام النكد بين الدعوة إلى دين الله ، والحكم إلا فى عصرنا الحاضر وإلا فقد كان رسول الله – ﷺ – نبيا ورسولا وحاكما للدولة الإسلامية لأن الإسلام نظام حياة شامل ، ولابد أن يكون عمل الحاكم مؤديا فى النهاية إلى نصرة دين الله ، وتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

إن الحاكم المسلم يجب أن يتحرك لهذه الغاية ، ولها يعمل – كما سنرى – عند استعراضنا لتاريخ الرسول الكريم الملك سليمان عليه السلام .

إن قراءة آيات الله عن سيرة داود – عليه السلام – تؤكد للناس أنهم يعيشون فى كون حى مأنوس ، كل شىء فيه يعرف ربه وسيده وإلهه ، وتتجاوب جنباته بالتسبيح لله الواحد القهار ، كون منقاد طائع لله عز وجل ، فها هى الجبال تسبح الله – سبحانه وتعالى – مع داود – عليه السلام – منذ إشراق الشمس وآخر النهار كما قال عز وجل : ﴿ إنَّا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾ ، وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه إذا مر به الطير وهو سابح فى الهواء بسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب بل يقف فى الهواء ويسبح معه ، وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعا له ، كما قال الله عز وجل : ﴿ يا جبال أوبى معه والطير ﴾[1] .

تملى هذا الأمر كفيل برد الناس إلى ربهم وخالقهم ، يعبدونه ولا يشركون به شيئا إن التفكر فى هذا الأمر يجعل الإنسان حييا من أن يعصى الله فى هذا الكون الحى المأنوس ، الذى يعرف خالقه – عز وجل – إن التفكر فى هذه الحقيقة يسعد المؤمن ، لأن عمله الصالح يشهد عليه كل من سمعه ، أو من يراه من هذا الكون الحى المأنوس .

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٤ ، ص ٢٩ .

إن الكون كله - إذا تجاوزنا الجن والإنس - مؤمن موحد مسلم ، محب ، طائع منقاد . كل شيء يعرف ربه الذى خلقه وصوره ، ويعبده ليس فى الكون إلا الإسلام ، ولا يقبل من شيء غير الإسلام ، رب واحد عظيم تعبده الكائنات . إليه تتوجه ، ومنه تتلقى وله تخضع ، تتنوع فى صورها وأشكالها وألوانها وخصائصها ووظائفها ومنازلها وقوانينها كما أراد لها بالضبط ، ولكنها جميعا تسبحه وتعظمه وتلهج بالثناء عليه .

فالكون مؤمن مسلم ، كما يبين لنا ذلك : (القرآن الكريم) :

﴿ تسبح له السموات السبع ، والأرض ، ومن فيهن ، وإن من شيء إلّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنَّه كان حليماً غفورا ﴾[1] .

﴿ ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض ، والطيرُ صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون ﴾[2] .

﴿ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ﴾[3] .

﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾[4] .

﴿ وإنَّ من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإنَّ منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإنَّ منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون ﴾[5] .

﴿ إنَّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾[6] .

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فما له من مكرم إنَّ الله يفعل مايشاء ﴾[7] .

---

(١) الإسراء : ٤٤ . (٢) النور : ٤١ . (٣) الرعد : ١٣ . (٤) الرحمن : ٦ .
(٥) البقرة : ٧٤ . (٦) الأحزاب : ٧٢ . (٧) الحج ١٨ .

﴿ ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الأرض من دَابَّة والملائكة ، وهم لا يستكبرون ﴾[1] .

﴿ وما من دَابّةٍ فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[2] .

﴿ وورث سليمان داود وقال : يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إنّ هذا لهو الفضل المبين ﴾[3] .

﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون ﴾[4] .

(ب) والحديث الشريف :

قال ﷺ : « أحد جبل يحبنا ونحبه »[5] ، « إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، إنى لأعرفه الآن »[6] .

وحنين الجذع الذى كان يقوم إليه الرسول ﷺ عند الخطابة معروف مشهور . فإن ذلك الجذع عندما نحى عن مكانه حن حنينا حزينا مسموعا حتى جاء ، الرسول ﷺ فسكنّه . وسجّل الثقات ذلك الحادث بعبارات مختلفة : « فحن الجذع فأتاه ، فمسح بيده عليه » وفى رواية : فصاحت النخلة صياح الصبى حتى نزل النبى ﷺ فضمّه (أى ضم الجذع) . وفى رواية : « فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار (أى النوق التى مضى على حملها عشرة أشهر) حتى جاء النبى ﷺ فوضع يده عليها (أى على قطعة النخل التى هى الجذع) فسكنت »[7] .

---

(١) النحل : ٤٩ (٢) الأنعام : ٣٨ . (٣) النمل : ١٦ . (٤) النمل : ١٨ ، ١٩ .

(٥) رواه البخارى وابن ماجه والموطأ وأحمد بن حنبل ، المعجم المفهرس ج ١ ، ص ٣١٨ .

(٦) رواه مسلم والترمذى وأبو داود وأحمد ، المعجم المفهرس ج ١ ، ص ٤٢٦ .

(٧) وهذه الروايات فى صحيح البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه ومسند أحمد ، المعجم المفهرس ج ١ ، ص ٥٢٠ .

ودخل الرسول محمد ﷺ حائطا (أى بستان نخل) لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل : « فلمّا رأى النبى ﷺ حنّ وذرفت عيناه . فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذفراه (ما خلف أذنيه) فسكت . فقال : من ربّ هذا الجمل ، لمن هذا الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصار فقال : لى يا رسول الله فقال : أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملّكك الله إيَّاها ؟ فإنه شكا إلى أنك تؤدبه »(١) .

وقال ﷺ : « إنَّ نَمْلَةً قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه : أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح »(٢) .

وقال : « إنَّه لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة »(٣) .

وقال ﷺ : « إن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء »(٤) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قرأ رسول الله ﷺ ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ ثم قال : « أتدرون ما أخبارها » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها . تقول : عملت كذا وكذا فى يوم كذا وكذا فهذه أخبارها »(٥) .

وهذه النصوص القرآنية، والحديث الشريف، عمتَّ وخَصّت كل شيء فى الكون بلا استثناء حتى أن ذرة واحدة لم تشذ . وخصت عددا من المخلوقات أمثلة ونماذج كالطير والرعد والنجوم والشجر والأحجار والجبال والدواب والظلال والنمل والهدهد وأحد وحجز بمكه والجذع والجمل والحيتان والطعام فضلا عن الملائكة ... .

---

(١) أخرجه أبو داود وأحمد بن حنبل وإسناده صحيح ، المعجم المفهرس ، جـ ١ ، ص ٥٢٠ .

(٢) رواه البخارى والنسائى وأبو داود وابن ماجه وأحمد ، المعجم المفهرس جـ ٢ ، ص ٣٩١ .

(٣) البخارى والموطأ والنسائى .

(٤) أبو داود والترمذى وأحمد وابن ماجه والدارمى وابن حبّان فى صحيحه .

(٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

إن الكون مسلم مؤمن وكأنه مسجد كبير تتجاوب جنباته بالتسبيح والتعظيم والتمجيد للأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . كل بالأسلوب الذى حدده الله له . شأن الكائنات عندنا شيء وشأنها مع ربنا وربها شيء آخر . هي عند الناس مواد غازية سائلة وصلبة . وجمادات ونباتات وحيوانات وشموس وأقمار ومجرات وسماء وأرض وطيور وأسماك وحشرات وبحار وأنهار وأشجار ومعادن لا تعقل ولكنها فيما بينها وبين الله مؤمنة موحدة مسبحة منقادة .

هذه هى الصورة الحقيقية للكون لا كما يزيف المزيفون . وذلك يعنى أن الإسلام فى الكون قبل الإنسان ، والإنسان مسبوق إلى الوجود غير سابق. قبله العرش العظيم والسماوات والأرض وخلائق لا يحصيها إلا الله ، جاء الإنسان وقد أعدّ له القصر والموطن والبيئة التى يقضى فيها حياته الدنيوية بما يناسب تكوينه المادى والمعنوى ويناسب دوره المرسوم له فى التخطيط الإلهى .

الإسلام قديم . أسلم الكون حيث لا إنسان . الإسلام قبل الإنسان . يولد الإنسان فيجد الإسلام ملء الكون خلفه وأمامه .

إذن

فالبداية الحقيقية لتاريخ الدين الإسلامى : بدأت مع خلق الكون منقادا خاضعا مستسلما لخالقه عز وجل، فالكون خلقه الله عز وجل مفطورا على الإسلام .

نموذج للدعوة المُطَارِدة :

موقف مشابه لموقف إبراهيم عليه السلام على أرض الرافدين ، نلمحه فى موقف موسى عليه السلام على أرض مصر ، وهو يواجه عداء فاجراً للدعوة وأصحابها ، وهو يواجه أعتى ملوك الأرض فى زمانه ، وهو مجرد من كل حول وطول ، إلا حول الله سبحانه وتعالى وقوته ، ماذا فعل موسى عليه السلام ، هل انشغل بحشد قوة مماثلة لقوة فرعون ، وأنَّى له ذلك ؟؟ .. لقد انشغل بربه ، لقد

كان حريصا على أن يبنى أسس الإيمان الصحيح فى قلبه وقلب أخيه وقلب زوجه ، لقد عرف أن الناس لا يغلبون بقوة مادية ، ولكن يغلبون بالإيمان ، وعرف أن الناس لا يُغْلبُون لضعف فى قوتهم المادية ، ولكن يُغْلبُونَ بذنوبهم . ومن هنا انطلق موسى يبنى نفسه وعشيرته بالإيمان الصحيح .

وجاءت اللحظة الحاسمة التى تصور معها الناس أن الباطل قد أحاط بالحق وجنده : ﴿ إنَّا لمدركون ﴾ ، وكان الرد : ﴿ كَلَّا إنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِين ﴾ . وكان الله على كل شيء قدير . لقد أهلك أصحاب القوة القاهرة الباطشة بكفرهم : ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى اليَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بَآيَاتِنَا ، وكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينْ ﴾ .

ونجي القلة المؤمنة بسبب إيمانها : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُسْتَضْعَفُونْ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبها التى بَارَكْنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون ﴾[1] .

نموذج للدعوة الممكن لها فى الأرض :

حينما تكون الدعوة إلى الله ممكن لها فى الأرض ، حينما تكون لها دولة ، حينما تملك كل مقومات القوة المادية الظاهرة :

هذا النموذج نلمحه فى سيرة سليمان عليه السلام ، لقد كان للإسلام على عهده دولة تملك قوة ضخمة ، قوات فى البر وقوات فى الجو وقوات فى البحر ، كان على رأس هذه الدولة نبى مسلم ، ويرعى أمما شتى من الإنس والطير والجن .

إن سليمان عليه السلام لم يوظف كل هذه النعم وهذا التمكين ، فى غير طاعة الله عز وجل ، لقد استعان بذلك كله فى الدعوة إلى الله ، لقد أدرك سليمان أن واجب الحاكم المسلم بالدرجة الأولى هو الدعوة إلى الله ، وأن يكون هو وقبل كل شيء صورة للإسلام الذى يدعو إليه ، ولابد أيضاً وقبل كل شيء أن يربى أمته على طاعة الله وطاعة رسوله .

---

(١) المائدة : ١٣٦ ، ١٣٧ .

لقد أدرك سليمان أن التمكين فى الأرض ابتلاء إن الملك الذى وهبه الله – سبحانه وتعالى – هو من أجل إقامة دين الله فى الأرض ، من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا فى الأرض كلها .

إن سليمان لم يوظف التمكين الذى مكن الله له فى الأرض ، فى ترويع الآمنين ، أو الاستعلاء فى الأرض ، أو قهر الشعوب الآمنة فى عقر دارها ، وإنما عرف كيف يوظف هذا كله فى التمكين لدين الله فى الأرض ، فلمثل هذه الظروف تجيش الجيوش وتحشد القوات :

إن سيرة هذا النبى الكريم ، ومن قبله سيرة أبيه المجاهد داود عليه السلام ، تستحق الدراسة المتأنية الواعية ، التى لا غنى عنها لكل راغب فى الدعوة إلى الله عز وجل على بصيرة .

نموذج للدعوة غير المحاربة فى ظل حكومة غير إسلامية :

نموذج إنسان مسلم ، عرف أن الدعوة إلى الله واجبة ، فانطلق يمارسها ، وذلك فى الوقت الذى فيه الدولة تسير بحياتها بداية بالراعى ونهاية بالرعية ، بعيدا عن نظام الله وشرعه ، ولكنها لا تعادى الدعوة إلى الله عز وجل ، إن همها بالدرجة الأولى أن تظل مخازيها وانحرافاتها ، بعيدا عن انتقادات الناس ، وأن تظل فى موقع يهيىء لها الاستمتاع بما تريد .

وفى اللحظة ، التى أحست فيه الدولة : أن الإسلام وحملة الإسلام أمناء على مصالح الأمة ويتسمون بالحفظ والأمانة ، وأنه يمسك بمفاتيح الحلول لأزماتها الاقتصادية وغيرها ، أسلمت نفسها لرجالات الإسلام يوجهونها الوجهة التى يريدون ، وهم لا يريدون بها ولها إلا الخير .

هذا النموذج يمكن أن نتعرف عليه من خلال دراسة متأنية واعية لسيرة يوسف عليه السلام فى مصر وبلاد الشام .

قدر المؤمن عند الله عز وجل :

إن قدر المؤمن عند الله عز وجل ، قدر عظيم ، قدر كبير عند فاطر

السموات والأرض ، وعلى الجانب الآخر ، فإن المشرك والكافر لا قدر له ، لا قيمة له عند خالق السموات والأرض ، حتى لو ملك كل مقومات القوة المادية ، وزينة الحياة الدنيا برمَّتها .

فمن أجل إبراهيم الفتى المؤمن المسلم ، أهلك الله أمة الكافرين – حكاما ومحكومين – الذين كانوا يعيشون على أرض الرافدين : ﴿وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين﴾ .

ومن أجل النبى المسلم موسى عليه السلام ومن معه ، أسقط الله سبحانه وتعالى أضخم العروش وأعظمها قوة ، ودمر عليهم تدميرا يتناسب والجرم الذى ارتكبوه ، وهو الشرك بالله عز وجل : ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ .

ومن أجل دخول المسلمين المؤمنين الموحدين أرض الإسراء والمعراج ، أمر الله سبحانه وتعالى الشمس أن تتأخر فى غروبها حتى يتمكن المسلمون بقيادة يوشع بن نون أن يدخلوا بيت المقدس .

* حقيقة الوشيجة التى يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم[1] :

« إن الوشيجة التى يتجمع عليها الناس فى هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين ، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الربانى الكريم » .

« إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة ، وليست وشيجة الجنس والعنصر ، وليست وشيجة الحرفة والطبقة ... إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ، ثم تنقطع ، العلاقة بين الفرد والفرد ، كما قال الله

---

(١) « انتسب رجلان على عهد موسى فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعة ، فمن أنت لا أُمَّ لك ؟ قال : أنا فلان بن فلان بن الإسلام فأوحى الله إلى موسى أن قل لهذين المنتسبين : أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة فى النار فأنت عاشرهم ، وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين فى الجنة فأنت ثالثهما فى الجنة » حديث صحيح رواه النسائى والبيهقى وأحمد فى مسنده والطبرانى فى الكبير .

سبحانه وتعالى لعبده نوح – عليه السلام – وهو يقول : ﴿ رب إن ابنى من أهلى ﴾ .... ﴿ يا نوح : إنَّه ليس من أهلك ﴾ ثم بين له لماذا يكون ابنه ... ليس من أهله ... ﴿ إنه عمل غير صالح ﴾ ... إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يانوح : ﴿ فلا تسألن ماليس لك به علم ﴾ فأنت تحسب أنه من أهلك ، ولكن هذا الحسبان خاطىء . أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك ، ولو كان هو ابنك من صلبك » .

« وهذا هو المعلم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط ، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة ... إن الجاهليات تجعل الرابطة آنا هى الدم والنسب وآنا هى الأرض والوطن ، وآنا هى القوم والعشيرة وآنا هى اللون واللغة ، وآنا هى الجنس والعنصر ، وآنا هى الحرفة والطبقة تجعلها آنا هى المصالح المشتركة ، أو التاريخ المشترك أو المصير المشترك ... وكلها تصورات جاهلية – على تفرقها أو تجمعها – تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامى .

والمنهج الربانى القويم – ممثلا فى هذا القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم وفى توجيهات الرسول – ﷺ – وهى من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه – قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير ... والمعلم الواضح البارز فى مفرق الطريق .. .

وهذا المثل الذى يضربه فى هذه السورة بين نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد ضرب أمثالا لشتى الوشائج والروابط الجاهلية الأخرى ، ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التى يعتبرها ... .

ضرب لها المثل فيما يكون بين الوالد والولد ، وذلك فيما كان بين إبراهيم – عليه السلام – وأبيه وقومه كذلك :

﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم ، إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ يا أبت إنى قد جاءنى

من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا . قال : أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا . قال : سلام عليك سأستغفر لك ربي ، إنه كان بي حفيا ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربي ، عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا ، فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾[1] .

وضرب لها المثل فيما كان بين إبراهيم وذريته كما علمه الله سبحانه ولقنه ، وهو يعطيه عهده وميثاقه ، ويبشره ببقاء ذكره وامتداد الرسالة فى عقبه :

﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال : إني جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين .. وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلدا آمنا ، وارزق أهله من الثمرات – من آمن منهم بالله واليوم الآخر . قال : ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾[2] .

وضرب لها المثل فيما يكون بين الزوج وزوجه ، وذلك فيما كان بين نوح وامرأته ، ولوط وامرأته . وفى الجانب الآخر ما كان بين امرأة فرعون وفرعون :

﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين ... وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين﴾[3]

وضرب لها المثل فيما يكون بين المؤمنين وأهلهم وقومهم ووطنهم وأرضهم وديارهم وأموالهم ومصالحهم وماضيهم وحاضرهم ومصيرهم . وذلك فيما كان بين إبراهيم والمؤمنين به مع قومهم . وما كان من الفتية أصحاب الكهف مع أهلهم وقومهم ودورهم وأرضهم :

---

(١) مريم : ٤١ – ٥٠ (٢) البقرة : ١٢٤ – ١٢٦ . (٣) التحريم : ١٠ – ١١ .

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده .... ﴾[1] .

﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ؟ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا . ثم بعثناهم لنعلم : أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا . نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهه لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، فمن أظلم ممن أفترى على الله كذبا ؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون – إلا الله – فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيىء لكم من أمركم مرفقا ﴾[2] .

وبهذه الأمثلة التى ضربها الله للأمة المسلمة من سيرة الرهط الكريم من الأنبياء والمؤمنين الذين سبقوها فى موكب الإيمان الضارب فى شعاب الزمان ، وضحت معالم الطريق لهذه الأمة ، وقام هذا المعلم البارز أمامها **عن حقيقة الوشيجة التى يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم ، ولا يقوم على سواها .** وطالبها ربها بالاستقامة على الطريق فى حسم ووضوح يتمثلان فى مواقف كثيرة ، وفى توجيهات من القرآن كثيرة ... هذه نماذج منها :

﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله – ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم – أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[3] . .

---

(١) الممتحنة : ٤ . (٢) الكهف : ٩ – ١٦ . (٣) المجادلة : ٢٢ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾(1) .. .

﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه .... الخ ﴾(2) .. .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾(3) .

﴿ ياأيها الذين أمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (4)

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصيلة الحاسمة فى علاقات المجتمع الإسلامى ، وفى طبيعة بنائه وتكوينه العضوى الذى يتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا إلى آخر الزمان . ولم يعد هناك مجال للجمع بين الإسلام وبين إقامة المجتمع على أى قاعدة أخرى غير القاعدة التى اختارها الله للأمة المختارة . والذين يدعون صفة الإسلام ، ثم يقيمون مجتمعاتهم على قاعدة أو أكثر من تلك العلاقات الجاهلية التى أحل الإسلام محلها قاعدة العقيدة ، إما أنهم لا يعرفون الإسلام ، وإما أنهم يرفضونه ، والإسلام فى كلتا الحالتين لا يعترف لهم بتلك الصفة ، التى يدعونها لأنفسهم وهم لا يطبقونها بل يختارون غيرها من مقومات الجاهلية فعلا .

وندع هذه القاعدة — وقد صارت واضحة تماما لننظر فى جوانب من حكمة الله فى إقامة المجتمع الإسلامى على هذه القاعدة .. .

---

(1) الممتحنة : ١ . (2) الممتحنة : ٣ — ٤ . (3) التوبة : ٢٣ . (4) المائدة : ٥١ .

إن العقيدة تمثل أعلى خصائص « الإنسان » التى تفرقه عن عالم البهيمة ، لأنها تتعلق بالعنصر الزائد فى تركيبه وكينونته عن تركيب البهيمة وكينونتها – وهو العنصر الروحى الذى به صار هذا المخلوق إنسانا فى هذه الصورة – وحتى أشد الملحدين إلحادا وأكثر الماديين مادية ، قد انتهوا أخيرا إلى أن العقيدة خاصة من خواص الإنسان تفرقه فرقا أساسيا عن الحيوان(١) .

ومن ثم ينبغى أن تكون العقيدة – فى المجتمع الإنسانى الذى بلغ ذروة الحضارة الإنسانية هى آصرة التجمع . لأنها العنصر الذى يتعلق بأخص خصائص الإنسان المميزة له عن البهائم . ولا تكون آصرة التجمع عنصرا يتعلق بشيء يشترك فيه الإنسان والبهائم ، من مثل الأرض والمرعى والمصالح والحدود التى تمثل خواص الحظيرة ، وسياج الحظيرة ، ولا تكون كذلك هى الدم والنسب والعشيرة والقوم والجنس والعنصر واللون واللغة . فكلها مما يشترك فيه الإنسان مع البهيمة . وليس هناك إلا شئون العقل والقلب التى يختص بها الإنسان دون البهيمة .

كذلك تتعلق العقيدة بعنصر آخر يتميز به الإنسان عن البهائم .. وهو عنصر الاختيار والإرادة فكل فرد على حدة يملك أن يختار عقيدته بمجرد أن يبلغ سن الرشد ، وبذلك يقرر نوع المجتمع الذى يريد أن يعيش فيه مختارا ، ونوع المنهج الاعتقادى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى والخلقى الذى يريد – بكامل حريته – أن يتمذهب به ويعيش .. .

ولكن هذا الفرد لا يملك أن يقرر دمه ونسبه ولونه وقومه وجنسه ، كما لا يملك أن يقرر الأرض التى يجب أن يولد فيها ، ولغة الأم التى يريد أن ينشأ عليها ... إلى آخر تلك المقومات التى تقام عليها مجتمعات الجاهلية ... إن هذه الأمور كلها يقضى فيها قبل مجيئه إلى هذه الأرض ، ولا يؤخذ له فيها مشورة ولا رأى ، إنما هى تفرض عليه فرضا سواء أحب أم كره ، فإذا تعلق مصيره فى الدنيا والآخرة معا – أو حتى فى الدنيا وحدها – بمثل هذه المقومات التى تفرض عليه فرضا لم يكن مختارا ولا مريدا ، وبذلك تسلب إنسانيته مقوما من أخص

---

(١) من هؤلاء جوليان هاكسلى من علماء الداروينية الحديثة .

مقوماتها ، وتهدر قاعدة أساسية من قواعد تكريم الإنسان ، بل من قواعد تركيبه وتكوينه الإنسانى المميز له عن سائر الخلائق .

ومن أجل المحافظة على خصائص الإنسان الذاتية ، والمحافظة على الكرامة التى وهبها الله له متمشية مع تلك الخصائص ، يجعل الإسلام العقيدة – التى يملك كل فرد اختيارها بشخصه منذ أن يبلغ سن الرشد – هى الآصرة التى يقوم عليها التجمع الإنسانى فى المجتمع الإسلامى ، والتى يتقرر على أساسها مصير كل فرد بإرادته الذاتية . وينفى أن تكون تلك العوامل الاضطرارية التى لايد له فيها ، ولا يملك كذلك تغييرها باختياره ، هى آصرة التجمع التى تقرر مصيره طول حياته ... .

ومن شأن قيام المجتمع على آصرة العقيدة – وعدم قيامه على العوامل الاضطرارية الأخرى – أن ينشىء مجتمعا إنسانيا عالميا مفتوحا ، يجىء إليه الأفراد من شتى الأجناس والألوان واللغات والأقوام والدماء والأنساب والديار والأوطان بكامل حريتهم واختيارهم الذاتى ، لا يصدهم عنه صاد ، ولا يقوم فى وجوههم حاجز ولا تقف دونه حدود مصطنعة ، خارجة عن خصائص الإنسان العليا . وأن تصب فى هذا المجتمع كل الطاقات والخواص البشرية ، وتجتمع فى صعيد واحد ، لتنشىء « حضارة إنسانية » تنتفع بكل خصائص الأجناس البشرية ، ولا تغلق دون كفاية واحدة بسبب من اللون أو العنصر أو النسب أو الأرض ....

« ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامى فى هذه القضية ، ولإقامة التجمع الإسلامى ، على آصرة العقيدة وحدها ، دون آواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة ، والحدود الإقليمية السخيفة ، ولإبراز « خصائص الإنسان » فى هذا التجمع وتنميتها وإعلائها ، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان ... كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعا مفتوحا لجميع الأجناس والألوان واللغات ، بلا عائق من هذه العلائق الحيوانية السخيفة ، وإن صبت فى بوتقة المجتمع الإسلامى خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها ، وانصهرت فى هذه البوتقة وتمازجت ، وأنشأت

مركبا عضويا فائقا فى فترة تعد نسبيا قصيرة . وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة ، تحوى خلاصة الطاقة البشرية فى زمانها مجتمعة ، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال فى ذلك الزمان » .

« لقد اجتمع فى المجتمع الإسلامى المتفوق العربى والفارسى والشامى والمصرى والمغربى والتركى والصينى والهندى والرومانى والإغريقى والأندونيسى والإفريقى ... إلى آخر الأقوام والأجناس ... وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة فى بناء المجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية » .

ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما (عربية) إنما كانت دائما (إسلامية) ، ولم تكن يوما ما (قومية) إنما كانت دائما (عقيدية) .

« ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة وآصرة الحب . وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة فبذلوا جميعا أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم ، وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية فى بناء هذا المجتمع الواحد الذى ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد ، وتبرز فيها إنسانيتهم وحدها بلا عائق . وهذا مالم يجتمع قط لأى تجمع آخر على مدار التاريخ » .

« ولقد كان أشهر تجمع بشرى فى التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلا . فقد جمعت بالفعل أجناسا متعددة ، ولغات متعددة ، وألوانا متعددة ، وأمزجة متعددة ، ولكن هذا كله لم يقم على (آصرة إنسانية) ، ولم يتمثل فى قيمة عليا كالعقيدة ... لقد كان هناك تجمع طبقى على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد فى الإمبراطورية كلها من ناحية ، وتجمع عنصرى على أساس سيادة الجنس الرومانى - بصفة عامة - وعبودية سائر الأجناس الأخرى . ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامى ، ولم يؤت الثمار التى آتاها التجمع الإسلامى » .

« كذلك قامت فى التاريخ الحديث تجمعات أخرى ... تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلا ... ولكنه كان كالتجمع الرومانى ، الذى هو وريثه . تجمعا قوميا

استغلاليا ، يقوم على أساس سيادة القومية الإنجليزية ، واستغلال المستعمرات التى تضمها الإمبراطورية ... ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها ... الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية فى وقت ما ، والإمبراطورية الفرنسية ... كلها فى ذلك المستوى الهابط البشع المقيت ، وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعا من نوع آخر ، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون . ولكنها لم تقمه على قاعدة (إنسانية) عامة ، إنما أقامته على القاعدة « الطبقية » . فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الرومانى القديم ... هذا تجمع على قاعدة طبقة « الأشراف » ... وذلك تجمع على قاعدة طبقة « الصعاليك » (البروليتاريا) ، والعاطفة التى تسوده هى عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى ، وما كان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض أن يثمر إلا أسوأ ما فى الكائن الإنسانى ... فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها . باعتبار أن « المطالب الأساسية » للإنسان هى (الطعام والمسكن والجنس) - وهى مطالب الحيوان الأساسية الأولية - وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام » .

« لقد تفرد الإسلام بمنهجه الربانى فى إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها فى بناء المجتمع الإنسانى ... وما يزال متفردا ... والذين يعدلون عنه إلى أى منهج آخر ، يقوم على أية قاعدة أخرى ، من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة ... إلى آخر هذا النتن السخيف ، هم أعداء « الإنسان » حقا ، هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد فى هذا الكون بخصائصة العليا كما فطره الله ، ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها فى امتزاج وتناسق »(١) .

ويحسن أن نذكر أن أعداء هذا الدين ، الذين يعرفون مواضع القوة فى طبيعته وحركته ، وهم الذين يقول الله تعالى فيهم : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ .. **لم يفتهم أن يدركوا أن التجمع على أساس**

---

(١) معالم فى الطريق .

العقيدة سر من أسرار قوة هذا الدين ، وقوة المجتمع الإسلامى الذى يقوم على هذا الأساس ... ولما كانوا بصدد هدم ذلك المجتمع أو إضعافه إلى الحد الذى يسهل عليهم السيطرة عليه ، وشفاء ما فى صدروهم من هذا الدين وأهله ، ولاستغلالهم كذلك واستغلال مقدراتهم وديارهم وأموالهم ... لما كانوا بصدد تلك المعركة مع هذا المجتمع لم يفتهم أن يوهنوا من القاعدة التى يقوم عليها ، وأن يقيموا لأهله المجتمعين على إله واحد ، أصناما تعبد من دون الله ، اسمها تارة « الوطن » واسمها تارة « القوم » واسمها تارة « الجنس » . وظهرت هذه الأصنام على مراحل التاريخ تارة باسم « الشعوبية » وتارة باسم « الجنسية الطورانية » وتارة باسم « القومية العربية » وتارة بأسماء شتى ، تحملها جبهات شتى ، تتصارع فيما بينها فى داخل المجتمع الإسلامى الواحد القائم على أساس العقيدة المنظم بأحكام الشريعة ... إلى أن وهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية ، وتحت الإيحاءات الخبيثة المسمومة ، وإلى أن أصبحت تلك « الأصنام » مقدسات يعتبر المنكر لها خارجا على دين قومه ، أو خائنا لمصالح بلده .. .

وأخبث المعسكرات التى عملت ومازالت تعمل فى تخريب القاعدة الصلبة التى كان يقوم عليها التجمع الإسلامى الفريد فى التاريخ ... **كان هو المعسكر اليهودى[1] الخبيث، الذى جرب سلاح « القومية » فى تحطيم التجمع المسيحى** ، وتحويله إلى قوميات سياسية ذات كنائس قومية ... وبذلك حطموا الحصار المسيحى حول الجنس اليهودى ، ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامى حول ذلك الجنس الكنود .

وكذلك فعل الصليبيون مع المجتمع الإسلامى – بعد جهد قرون كثيرة فى إثارة النعرات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس الملتحمة فى المجتمع الإسلامى ... ومن ثم استطاعوا أن يرضوا أحقادهم الصليبية القديمة على هذا الدين وأهله . كما استطاعوا أن يمزقوهم ويروضوهم على الاستعمار الأوربى الصليبى . وما يزالون ... حتى يأذن الله بتحطيم تلك الأصنام الخبيثة الملعونة ، ليقوم التجمع الإسلامى من جديد ، على أساسه المتين الفريد ... .

---

(١) وفى الحديث « إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم السام عليك ، فقل : وعليك » رواه مالك فى الموطأ وأحمد فى مسنده ، والبيهقى ، رقم ٦١٩ /٢٧٣ صحيح الجامع الصغير .

وأخيرا فإن الناس ما كانوا ليخرجوا من الجاهلية الوثنية بكلياتهم حتى تكون العقيدة وحدها هى قاعدة تجمعهم . ذلك أن الدينونة لله وحده لاتتم تمامها إلا بقيام هذه القاعدة فى تصورهم وفى تجمعهم .

يجب أن تكون هناك قداسة واحدة لمقدس واحد وألا تتعدد المقدسات ، ويجب أن يكون هناك قبلة واحدة يتجه إليها الناس بكلياتهم وألا تتعدد القبلات والمتجهات .... .

إن الوثنية ليست صورة واحدة هى وثنية الأصنام الحجرية والآلهة الأسطورية ، إن الوثنية يمكن أن تتمثل مرة أخرى فى المقدسات والمعبودات من دون الله أيا كانت أسماؤها .. وأيا كانت مراسمها .. .

وما كان الإسلام ليخلص الناس من الأصنام الحجرية والأرباب الأسطورية ، ثم يرضى لهم بعد ذلك أصنام الجنسيات والقوميات والأوطان .. وما إليها ... يتقاتل الناس تحت راياتها وشعاراتها وهو يدعوهم إلى الله وحده ، وإلى الدينونة له دون شيء من خلقه .

لذلك قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشرى ... أمة المسلمين ، من أتباع الرسل - كل فى زمانه حتى يأتى الرسول الأخير إلى الناس كافة - وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام فى شتى الصور والأشكال على مدار القرون ... .

وعندما أراد الله أن يعرف المسلمين بأمتهم التى تجمعهم على مدار القرون ، عرفها لهم فى صورة أتباع الرسل - كل فى زمانه - وقال لهم فى نهاية استعراض أجيال هذه الأمة : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ ... ولم يقل للعرب : إن أمتكم هى الأمة العربية فى جاهليتها وإسلامها سواء ، ولا قال لليهود : إن أمتكم هى بنو إسرائيل أو العبرانيون فى جاهليتهم وإسلامهم سواء ، ولا قال لسلمان الفارسى : إن أمتك هى فارس ، ولا لصهيب الرومى : إن أمتك هى الرومان ، ولا لبلال الحبشى : إن أمتك هى الحبشة ، إنما قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحبش : إن أمتكم هى المسلمون الذين أسلموا حقا على أيام موسى وهارون ، وإبراهيم ولوط ، ونوح ، وداود وسليمان ، وأيوب ،

وإسماعيل ، وإدريس وذى الكفل وذى النون ، وزكريا ويحيى ومريم ... كما جاء فى سورة الأنبياء : (الآيات : ٤٨ - ٩١) .

هذه هى أمة المسلمين فى تعريف الله سبحانه ... فمن شاء له طريقا غير طريق الله فليسلكه . ولكن ليقل : إنه ليس من المسلمين ، أما نحن الذين أسلمنا لله ، فلا نعرف لنا أمة إلا الأمة التى عرفها الله لنا ، والله يقص الحق وهو خير الفاصلين ... .

آدم عليه السلام - هو الذى بنى المسجد الأقصى على أرجح الأقوال :

وردت تسمية المسجد الأقصى فى قوله تعالى :

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾[1] .

وهو الموضع الذى نجى الله إليه إبراهيم ولوطاً عليهما السلام : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾[2] .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع فى الأرض قال : « المسجد الحرام » . قلت : ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى » . قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون عاما ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل » .

كما خرج النسائى بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو . عن النبى ﷺ : « أن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالها ثلاثة ، حكما يصادف حكمه فأوتيه ، وسأل الله عز وجل ملكا لا ينبغى لأحدٍ من بعده فأوتيه ، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد ألا يأتيه أحد لاينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه فأوتيه . فجاء إشكال بين الحديثين ، لأن بين إبراهيم وسليمان آماداً طويلة . وقال أهل

---

(١) الإسراء : ١ ، قد سمى الأقصى لبعد المسافة بينه وبين الكعبة ، والمسجد الأقصى هو بيت المقدس ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ٣ ، ص ٢ - ٢٤ .

(٢) الجامع لإحكام القرآن ، جـ ٤ ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ٣٨٣ .

التواريخ : أكثر من ألف سنة . فقيل : إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جدّدوا ما كان أسسه غيرهما ، وقد روى أن أول من بنى البيت آدم عليه السلام . فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس[1] من بعده بأربعين عاما ، ويجوز أن تكون الملائكة أيضاً بنته بعد بنائها البيت بإذن الله ، وكل محتمل . والله أعلم »[2] .

وأورد الإمام ابن حجر قول ابن الجوزى : وجوابه أن الإشارة إلى أول البناء ووضع أساس المسجد وليس إبراهيم أول من بنى الكعبة ولا سليمان أول من بنى بيت المقدس ، فقد روينا أن أول من بنى الكعبة آدم ثم انتشر ولده فى الأرض ، فجائز أن يكون بعضهم قد وضع بيت المقدس ثم بنى إبراهيم الكعبة بنص القرآن ، وكذا قال القرطبى : إن الحديث لا يدل على أن إبراهيم وسليمان لما بنيا المسجدين ابتدأ وصفهما لهما ، بل ذلك تجديد لما كان أسسه غيرهما . ويضيف الإمام ابن حجر ، وقد وجدت ما يشهد له ويؤيد قول من قال : إن آدم هو الذى أسس كلا من المسجدين .

الأهمية العقيدية لأرض الشام وعلى الأخص بيت المقدس :

إن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأمة المسلمة أن تكون حية على سطح الأرض ، وهناك من يعيثون فسادا فى أرض الشام وخاصة أرض الإسراء والمعراج إن الله سبحانه وتعالى لا يقبل أن ترتفع راية للشرك على أرض الإسراء والمعراج . إن الله سبحانه وتعالى لا يغفر أن تحكم أرض الإسراء والمعراج بغير شرع الله .

فبيت المقدس ، كان مقرا لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء المسلمين على مدار التاريخ ، صحيح ، أنه فى بعض الفترات أُخْرِجَ منها المرتدون من ذرية إبراهيم عليه السلام ، ولكن سرعان ما يأخذ

---

(١) فتح البارى ، جـ ٦ ، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ؛ صحيح الجامع الصغير وزيادته للألبانى ، المجلد ٢ ، ص ٢١٠ حديث ٩٣٠/٢٠١٦ .

(٢) وهكذا يتأكد لنا أن المسجد الأقصى هو مسجد بناه المسلمون ومنهم النبى المسلم سليمان عليه السلام ، وفيه يصلّون لله رب العالمين ، قبل أن يولد اليهود وذلك يعنى أنه أرض إسلامية ، لا مكان فيه لليهود . وذلك يبطل الزعم القائل بأن سليمان يهودى وبنى هيكلا أسفل الأقصى ، ومن هنا يتضح التزييف الذى تعرض له تاريخ الأمة المسلمة .

المسلمون زمام المبادأة ، ويستعيدون الأرض المقدسة التى جعلها الله للمسلمين ، تماما كما حدث على عهد يوشع بن نوح ، وكما حدث على عهد داود بن سليمان : ﴿ فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ﴾[1] .

وقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية هذه الأرض المباركة فى قوله تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، إنَّه هو السميع البصير ﴾[2] .

وكذلك قول رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » .

فى هذا المسجد الأقصى صلى رسول الله محمد ﷺ إماما برسل الله الكرام فى ليلة الإسراء والمعراج[3] . وحينما كُلّفَ رسول الله بالرسالة ، كان المسجد أسيرا فى أيدى طواغيت الروم ، لذلك فقد حرص ﷺ على إعطاء إشارة البدء لتطهيره والأرض كلها من رجس الشرك ورجس الوثنية .

لذلك لم يكن مصادفة أن يوجه الرسول ﷺ جيشا بقيادة مولاه زيد بن حارثة لقتال الغساسنة وجيوش الروم التى تجمعت عند مؤتة عام ٨ هـ ، وفيها استشهد زيد وعبد الله بن أبى رواحه وجعفر بن أبى طالب رضى الله عنهم .

وفى عام ٩ هـ خرج رسول الله ﷺ بنفسه على رأس جيش من المسلمين إلى تبوك ، فصالحه أهلها وجاءت الوفود من آيلة وغيرها ، وصالحوه على دفع الجزية ..

وقد واصل الرسول ﷺ جهاده للقضاء على طواغيت الروم لتخلص أرض الإسراء والمعراج ومن عليها لله الواحد القهار ... فأرسل رسالة إلى قيصر يدعوه

---

(١) البقرة : ٢٥١ (٢) الإسراء : ١ .

(٣) يقول الإمام الحافظ ابن كثير : « ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء وصلى بهم فيه لمّا حانت الصلاة » تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ٢٣ .

إلى الإسلام : « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم ، السلام على من اتبع الهدى أما بعد ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين . وإن تتول فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

وبعد وفاة رسول الله ﷺ ، لم يتردد المسلمون لحظة واحدة فى تنفيذ ما أراده الله لهم وللأمة المسلمة .. لم ترهبهم عدة الروم ولا عتادهم . ولم يخشوا الموت ... لأن لقاء الله كان أفضل إليهم من العيش أذلاء يتبعون الشرق أو الغرب .. إن الشهادة فى سبيل الله أو تحقيق النصر ... كان شعارهم ... .

فسير أبو بكر رضى الله عنه – جيش أسامة وكان قائدا لجيش المسلمين – ولاه رسول الله وعنده من العمر ثمان عشرة سنة .. وكان النصر حليفه .. .

وأوفد أبو بكر رضى الله عنه جيشا آخر عقد اللواء لأربعة من الأمراء فيه هم : أبى عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين ويزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ، وشرحبيل بن حسنة وجهته وادى الأردن ، على أن تكون القيادة العامة لأبى عبيدة .

وخرج جند الرحمن يقاتلون طواغيت الروم على أرض الشام حتى تخلص الأرض لله ، ويكون الدين لله ، ثم انضم إليهم – بعد ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد – رضوان الله عليهم أجمعين .

وكانت معارك عديدة كتب فيها النصر للمسلمين على الكافرين من الروم وغيرهم . رغم قلة عدة المسلمين وعتادهم ، لأن معهم قوة الله تؤيدهم بعد أن آمنوا وأعدوا ما فى استطاعتهم .

وما يهمنا أن نسرده هنا هو فتح فلسطين .. بما فيها بيت المقدس على أيدى عمرو وأبى عبيدة بن الجراح – وذلك بعد هزيمة الروم وفرارهم وطلب أهلها التسليم على أن يكون ذلك فى حضور أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ... فرضى عمر بن الخطاب ، وغادر المدينة وحده ... ولم يأخذ معه من الزاد سوى قربة ماء وجراب شعير وأرز وتمر ، وأخذ عمر فى السير ليل نهار ليصل إلى القدس فى وقت

قصير ، فلما دخلها أبدى من التسامح العظيم نحو أهلها ما أمنوا به على دينهم وأموالهم وعاداتهم .. .

عمر بن الخطاب يتسلم القدس .. وهو على بغلة .. لا مواكب ... لا ضجة ... لا تعالى ، إنما هو إحساس بالفضل لله سبحانه وتعالى الذى وفقهم لتحرير أرضى الشام ومنها بيت المقدس .

إن تذكر القدس .. والأرض التى بارك الله فيها يعيد إلى الذاكرة سيرة المسلمين الأوائل مع أعداء الله ... لا ذلة ... لا خنوع ... لا خضوع إلا لله الواحد القهار ... إن تذكر القدس يعيد إلى النفس ذكرى يوشع بن نون وداود وسليمان وكتاب عمر إلى هرقل يطالبه فيه بإطلاق سراح قائد مسلم أسره الروم فى إحدى الوقائع .

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله ، من عبد الله عمر بن الخطاب إلى هرقل ملك الروم أطلقوا الأسير المسلم - عبد الله بن حذافة - حين وصول كتابى هذا إليكم ، فإن فعلتم ذلك رجوت من الله أن يهديكم الصراط المستقيم . وإن لم تفعلوا فإننى أبعث إليكم رجالا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الجهاد فى سبيل الله . والسلام على من اتبع الهدى » .

ولم يكن أمام قيصر هرقل من سبيل إلا إطلاق الأسير مصحوبا بهدية إلى الخليفة عمر بن الخطاب ... هؤلاء هم المسلمون ، الذين كانوا يوقنون أن الإمارة أمانة ، وأنها يوم القيامة خزى وندامة .

وحينما وصل عمر إلى القدس وكتب عمر لأهل القدس وثيقة الأمان التى عرفت « بالعهدة العمرية » ونصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها .

أن لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صلبهم ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ،

ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما تعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية . ومن أحب أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، فمن شاء منهم قعد ... وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية ، ومن شاء وسار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم ... وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .

كتب سنة ١٥ للهجرة ، وشهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان » .

إن هذه المشاعر تضطرم وتتزاحم فى الصدر والرأس عند الحديث عن القدس الأسيرة . أين القدس أين أرض الأنبياء إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وذريتهم من الأنبياء والصالحين ، أين مسرى رسولنا عليه السلام ؟ .. أين فلسطين الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ؟ ... أين أرض المسلمين كلها ؟ ... إنها فى أيدى عصابات الصهيونية والصليبية العالمية ... أين أبناء المسلمين ... أين الزمرة التى نذرت نفسها لله ؟ .. أين الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الجهاد فى سبيل الله ؟ .. أين رسول الله ؟ ... أين عمر ؟ .. أين خالد ؟ .. أين أبو عبيدة ؟ .. لقد لقوا الله بعد أن أدوا ما عليهم لله .

* **إن النبوة والرسالة اصطفاء من الله عز وجل ، لتبليغ أوامر الله سبحانه وتعالى إلى بنى البشر عن طريق الوحى .**

أى أن النبوة والرسالة ، لم تكن من اختراع العقل البشرى كما زعم فلاسفة اليونان ، وكتاب اليهود والنصارى .... وجاراهم فى ذلك كتاب التاريخ القديم ، من أبناء العرب والمسلمين .

إن توحيد الله – سبحانه وتعالى – مفطور عليه بنو البشر جميعا ، بل ومخلوقات الله جميعا ، بما فى ذلك السموات والأرضين .. وليس ما زعمه كتاب اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم من أن إخناتون هو أول الموحدين ،

فهذا غير صحيح ، فالكون كله مفطور على توحيد الله ، وكذلك الإنسان ، كما أن إخناتون لم يكن – من خلال ما عرض الكتاب تاريخه – موحدا بالمعنى الإسلامى ، إنما هو كان يعبد وثنا واحدا بدلا من الأوثان المتعددة التى كان يعبدها قومه . وبالتالى ينهار الزعم القائل بأن إبراهيم قد أخذ فكرة التوحيد من الزعيم المصرى إخناتون .

* **إن الدين الذى دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين** ، ومنهم إبراهيم – عليه السلام – وذريته هو الإسلام : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ . وإن كان لكل أمة شرعة ومنهاج ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ .

والإسلام هو الدين الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره ، ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا ، فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ .

وذلك يعنى أن تاريخ الأمة الإسلامية لا يبدأ فقط ببعثة محمد ﷺ ، وإنما يرجع إلى زمن خلق آدم مسلما موحداً ، ونزوله إلى الأرض ، ليتكون منه ومن نسله أول مجتمع مسلم على الأرض .

* إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أنبياء مسلمون وليسوا يهودا أو نصارى ، وإن تاريخهم هو جزء من التاريخ الحقيقى للأمة المسلمة ، وليس تاريخا أسطوريا .

* إن سليمان عليه السلام قد أرسل إلى ملكة سبأ رسالة ، هذه الرسالة لم تكن رسالة غرامية – كما زعم أعداء الإسلام – وإنّما كانت تحمل دعوة الدخول فى دين الله : ﴿ إنَّه من سليمان ، وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ .

وملكة سبأ سافرت إلى بيت المقدس ، لا لترى أبهة بلاط ابن داود ، وإنما لتعلن إسلامها : ﴿ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

* إن سليمان عليه السلام النبى المسلم ، قد أعطى ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وما تحقق له من التمكين ، كان واقعا ، ولم يكن خرافة أو خيالا كما زعم أعداء الرسل عليهم السلام .

* إن القدس دواما كانت عاصمة للدولة الإسلامية على عهد الأنبياء والرسل المسلمين ومنهم سليمان وداود عليه السلام .

* كما أن سليمان - عليه السلام - لم يوال أعداء الله - كفرعون مصر - خوفا من سطوته فهذا لم يثبته النقل أو العقل .

* وإن ما قام به فى بيت المقدس - ليس بناء لهيكل - وإنما هو تجديد للمسجد الأقصى الذى وضع أساسه آدم عليه السلام ، وجدده إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام .

* **إن موسى - عليه السلام - نبى مسلم** ، وقد أنزل الله عليه التوراة فيها هدى ونور ، وذلك يعنى بطلان المزاعم التى تزعم أن موسى عليه السلام قد استقى التوراة من شريعة حمورابى ، وأنه نبى يهودى .

* **ليست هنالك صلة أو رابطة بين إبراهيم النبى المسلم وبين اليهود أو النصارى** : ليست هنالك صلة أو رابطة بين إسحاق النبى المسلم وبين اليهود والنصارى ، ليست هنالك صلة أو رابطة بين يعقوب (إسرائيل) النبى المسلم وبين اليهود أو النصارى ، ليست هنالك صلة أو رابطة بين موسى النبى المسلم وبين اليهود والنصارى ، ليست هنالك صلة أو رابطة بين داود وسليمان النبيين المسلمين وبين اليهود والنصارى .

وبالتالى ليس من حق اليهود أو النصارى أن يدعوا حق وراثة هؤلاء الأنبياء ، لأن هؤلاء الأنبياء مسلمون ، واليهود والنصارى مشركون ، والكافر المشرك لا يرث مسلما حتى لو كان من صلبه ومن ذريته : ﴿ إنَّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتَّبعُوه وهذا النبى ، والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين ﴾ .

وبالتالى فلا يحق لمغتصبى الأرض المقدسة من اليهود فى فلسطين ، أن يدعوا حق وراثتهم لإبراهيم - عليه السلام - إنما الذين يرثون الأرض المقدسة ، ليقيموا عليها حكم الإسلام إنما هم المسلمون .

* **وهنا يبرز المفتاح الصحيح لاسترجاع الحق المغتصب فى أرض الإسراء والمعراج** ، إنه العقيدة إنه الإسلام ، وذلك فى مواجهة اليهود الذين اغتصبوا الأرض الإسلامية ، وانتهكوا العرض الإسلامي وسرقوا الثروة الإسلامية ، وزعموا أنهم يفعلون ذلك لأنهم أصحاب الحق ، لأنهم ذرية إبراهيم عليه السلام ، وذريته من لدن إسحاق إلى سليمان عليهم السلام ، وزيفوا التاريخ وشوهوه ليخدم فكرتهم الآثمة المجرمة .

هنا تبرز أهمية العقيدة ، التى تكشف زيف اليهود ، وتقول لهم إن إبراهيم وذريته ، وسليمان يبرأون إلى الله منكم فى الدنيا والآخرة .

وأن ما بيننا وبينكم ليس صراعا على الأرض أو الثروة ، وإنما هو صراع بين الحق والباطل بين الإسلام والعقائد الفاسدة ، وأنه لن يقر لنا قرار ، حتى تطهر أرض الإسراء والمعراج ، من اليهودية ومن كل مبدأ هدام ، حتى لو كانت القومية أو الوطنية ، لنقيم عليها فى النهاية حكم لا إله إلا الله .

* إنَّ أعداء الجماعة المسلمة وهم أطراف الكيد الشيطانى والتآمر العالمى من يهود وصليبيين يعاونهم جيش كبير من أبناء العرب والمسلمين . لا يحاربونها فى الميدان بالسيف والرمح فحسب ، ولم يكونوا يؤلبون عليها الاعداء ليحاربوها بالسيف والرمح فحسب ... إنما كانوا يحاربونها أولا فى عقيدتها ... يحاربونها بالدس والتشكيك ، ونثر الشبهات كما يفعل المستشرقون وتدبير المؤامرات والمناورات ، كانوا يعمدون أولا إلى عقيدتها الإيمانية التى انبثق منها كيانها ومنها قام وجودها فيعملون فيها معاول الهدم والتوهين .. ذلك أنهم كانوا يدركون كما يدركون اليوم تماما ... أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل ، ولا تهن إلا إذا وهنت عقيدتها ، ولا تهزم إلا إذا هزمت روحها ، ولا يبلغ أعداؤها منها شيئا وهى ممسكة بعروة الإيمان ، مرتكنة إلى ركنه ، سائرة على نهجه حاملة

لرايته ، ممثلة لحزبه ، منتسبة إليه معتزة بهذا النسب وحده . ومن هنا يبدو أن أعدى أعداء هذه الأمة المسلمة هو الذى يلهيها عن عقيدتها الإيمانية ، ويحيد بها عن منهج الله وطريقه ، يخدعها عن حقيقة أعدائها وحقيقة أهدافهم البعيدة . إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هى قبل كل شىء معركة هذه العقيدة ، وحتى حين يريد أعداؤها أن يغلبوا على الأرض والمحصولات والاقتصاد والخامات ، فإنهم يحاولون أولا أن يغلبوها على العقيدة ، لأنهم يعلمون بالتجارب الطويلة أنهم لا يبلغون مما يريدون شيئا والأمة المسلمة مستمسكة بعقيدتها ملتزمة بمنهجها ، مدركة لكيد أعدائها ... ومن ثم يبذل هؤلاء الأعداء وعملاؤهم جهد الجبارين فى خداع هذه الأمة عن حقيقة المعركة ، ليفوزوا منها بعد ذلك بكل ما يريدون من احتلال واستغلال وهم آمنون من عزمة العقيدة فى الصدور .

وكلما ارتقت وسائل الكيد لهذه العقيدة ، والتشكيك فيها ، والتوهين من عراها ، استخدم أعداؤها هذه الوسائل المترقية الجديدة ، ولكن لنفس الغاية القديمة : ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم !!! ﴾ فهذه هى الغاية الثابتة الدفينة .. .

لهذا كان القرآن الكريم يدفع هذا السلاح المسموم[1] أولا .. كان يأخذ الجماعة المسلمة بالتثبيت على الحق الذى عليه ، وينفى الشبهات والشكوك التى يلقيها أهل الكتاب ، ويجلو الحقيقة الكبيرة التى يتضمنها هذا الدين ، ويقنع الجماعة المسلمة بحقيقتها وقيمتها فى هذه الأرض ، ودورها ودور العقيدة التى تحملها فى تاريخ البشرية « وهذا هو واجب المؤرخ المسلم فى مواجهة الهجمة الاستشراقية ضد الإسلام كدين والإسلام كواقع عملى تطبيقى فى تاريخ البشرية » .

وكان يأخذها بالتحذير من كيد الكائدين ويكشف لها نواياهم المستترة ، ووسائلهم القذرة وأهدافهم الخطرة ... وأحقادهم على الإسلام والمسلمين لاختصاصهم بهذا الفضل العظيم .

---

(١) وعلى هذا النسق يجب أن يسير المؤرخ المسلم .

وكان يأخذ بتقرير حقيقة القوى وموازينها فى هذا الوجود ، فبين لها هزال أعدائها وهوانهم على الله ، وضلالهم وكفرهم بما أنزل الله إليهم من قبل ، وقتلهم الأنبياء كما بين لها أن الله معها ، وهو مالك الملك المعز المذل وحده بلا شريك ... وأنه سيأخذ الكفار بالعذاب والنكال كما أخذ المشركين .

ومن هنا فإن كتابات التاريخ الإسلامى تعكس لنا جانبا من جوانب الصراع بين العقيدة الإسلامية والعقائد المنحرفة .. وهو ليس صراعا نظريا إنما هو الجانب النظرى من المعركة الكبيرة الشاملة بين الجماعة المسلمة وكل أعدائها الذين يتربصون بها ، ويتحفزون من حولها ، ويستخدمون فى حربها كل الأسلحة وكل الوسائل وفى أولها زعزعة العقيدة ، وهى فى صميمها المعركة التى لاتزال ناشبة إلى هذه اللحظة بين الأمة المسلمة وأعدائها . إنهم هم هم الملحدون المنكرون ، والصهيونية العالمية ، والصليبية العالمية .

إن على المؤرخ المسلم أن يراجع القرآن ، لأن مراجعة القرآن سوف تبين له أن الوسائل هى الوسائل كذلك ، والأهداف هى الأهداف ، ويتجلى أن هذا القرآن هو قرآن هذه الدعوة ، ومرجع هذه الأمة – اليوم وغدا – كما كان قرآنها ومرجعها بالأمس فى نشأتها الأولى ... وأنه لا يعرض عن استنصاح هذا الناصح ، واستشارة هذا المرجع فى المعركة الناشبة اليوم إلا مدخول معرض عن سلاح النصر فى المعركة ، ويخدع نفسه أو يخدع الأمة ، لخدمة أعدائها القدامى والمحدثين فى غفلة بلهاء ، أو فى خبث لئيم .

﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ﴾ ... ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ .

﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟؟ ﴾ ... ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ .. .

﴿ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد

إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم ، وهو خير الناصرين . سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، ومأواهم النار ، ومالهم من ناصرين ﴾ .

* **فساد كل مصادر ومراجع ما يسمى بالتاريخ القديم التى تتجاهل بضعة آلاف عام من التاريخ الإسلامى** ، والتى زيفت وشوهت التاريخ الإسلامى (بما فى ذلك تاريخ الرسل والأنبياء) ، إذ زعمت أن هناك أديان سماوية اسمها : اليهودية والمسيحية دعا إليها رسل من عند الله عز وجل[1] ، وزعمت أن إبراهيم وذريته كانوا يهودا ونصارى ، والتى تعتمد أيضا فى مصادرها على ما ألفه كتاب اليهود قديما وأسموه بالتوراة ، « ويدخل فى ذلك ما يسمى بالعهد القديم والتلمود » وما يسمى بدائرة المعارف الإسلامية التى ألفها المستشرقون اليهود والنصارى ، وقصة الحضارة لديورانت ، والحضارات السامية لموسكاتى ، والشرق الخالد لعبد الحميد زيد ، وحضارة مصر والشرق القديم ، والموسوعة العربية الميسرة .

عدم جواز الاستشهاد بما ورد فى العهد القديم أو التلمود : خاصة فيما يتصل بتاريخ الأنبياء والمرسلين – عليهم السلام – لأسباب كثيرة :

أسباب شرعية :

دليلها ما ورد فى صحيح البخارى : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا إبراهيم ، أخبرنا ابن شهاب عن عبيد الله أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذى أنزل على رسول الله ﷺ

(١) وكتابات التاريخ القديم تتبنى منهج مقارنة الأديان ، وتنظر إلى الدين أنه من اختراع العقل البشرى .

أحدث ، تقرءونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم[١] .

أسباب منهجية :

وهى عدم صمودها أمام الجرح والتعديل ، وما قدمنا من دراسة موضوعية ، لبعض ما ورد فى العهد القديم والتلمود ، يعكس اعتداء على ذات الله ورسله وملائكته وكتبه[٢] .

أمّا فيما يتصل بتسليم الكاتب الدكتور حسن صبرى الخولى بما جاء فى التوراة (الحالية) على أساس أنه كتاب مقدس من عند الله[٣] ، وتسليمه بأن لليهود حقا فى فلسطين ، فهذا ما لا يقوم دليل عليه من كتاب أو سنة .

فمن الثابت أن التوراة الحالية ، ليست هى التوراة التى أنزلت على موسى ، بل إن كتاب التاريخ من المحدثين يذهبون إلى أن التوراة الأصلية قد أحرقت نسخها الأصلية على يد بنو ختنصر عام ٥٧٦ ق م ؛ وأنه لم يتم إعادة كتابتها إلا قبيل ميلاد المسيح بعدة قرون .

وفى هذا يقول ديورانت[٤] ، كيف كتبت هذه الأسفار ؟ ومتى كتبت ؟ وأين كتبت ؟ ذلك سؤال برىء لا ضير منه ، ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد ، ويجب أن نفرغ منه هنا فقرة واحدة نتركه بعدها من غير جواب .

---

(١) صحيح أبى عبد الله البخارى ، جـ ٩ ، ص ١٣٦ .

(٢) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، دين الله فى الأرض وفى السماء ، دار الوفاء ؛ أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، ذرية إبراهيم عليه السلام ، ص ٥ – ٤١ .

(٣) سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، ص ٣٣ .

(٤) (ترجمة محمد بدران) قصة الحضارة ، م ١ ، جـ ٢ ، ص ٣٦٧ .

بطاقة الحاكم الصالح من العلماء العاملين الصَالحين .

قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق ، إن نسى ذكّره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك ، جعل له وزير سوء ، إن نسى لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه » .

لقد من الله على سليمان ببطانة تأمره بالخير ، وتعينه على دعوة الله ، فها هو الهدهد يحمل إليه أخبار مملكة سبأ التى تشرك بالله ، وكأنما يقول له : لا يجوز أن يكون هنالك ملك مسلم ممكن له فى البر والبحر والجو ، وهنالك مشرك بالله يباشر على سطح الأرض ، فأخذ سليمان عليه السلام زمام المبادرة : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾ .

وحينما طلب سليمان من الملأ أن يأتوه بعرش الملكة كوسيلة من وسائل الدعوة إلى الله : ﴿ قال الذى عنده علم الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ ؛ وحينما طلب سليمان عليه السلام تحديد الصرح ، كانت الاستجابة ، وهنا يبرز أهمية السمع والطاعة عن الجنود المسلمين لقائدهم المسلم ، وذلك كله لخدمة دين الله عز وجل ،

وعلى الجانب المقابل ، فيرى بطانة السُوء ، الملأ الذين لايطيقون أن ترتفع للتوحيد راية ؛ حينما طلبت منهم ملكة سبأ : ﴿ ياأيّها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين . قالت ياأيّها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴾ .

جاء الرد ﴿ نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ﴾

هذا هو رد بطانة السوء التى ترى مواجهة الدعوة إلى الله ، بالقوة الغاشمة حتى لاترتفع راية التوحيد ، ولايقوم نظام الله وشرعه .

---

(١) حديث صحيح رقم ٢٩٩ صحيح الجامع الصغير وزيادته ، رواه أبو داود والبيهقى فى شعب الإيمان .

ومن هنا يظهر أهمية بطانة الخير التى تذكر أميرها إذا نسى وتعينه إن ذكر كما قال رسول الله ﷺ .

اغتصاب الأرض المباركة ومنها بيت المقدس ، مشكلة لا تخص أمة العرب وحدها ، وأنما هى مشكلة تخص المسلمين فى كل مكان ، فى الصين ، فى الهند ، فى باكستان ، إلى غير ذلك من بقاع الأرض ، فلا يجوز أن يكون هنالك عرق ينبض فى جسد المسلم ويسمح لأعداء الإسلام أن يغتصبوا أرض الإسلام ، فمن الواجب عليه أن يبذل النفس والمال حتى تعود أرض الإسلام فى بلاد الشام وغيرها إلى ظل راية التوحيد .

تعدد الرسالات ، ووحدة الدين ، فالرسالات التى حملها رسل الله عليهم السلام تبلغ ثلاثمائة وبضعة عشر ، حمل بعضها إبراهيم عليه السلام ، وذريته ومنهم إسحاق وإسماعيل ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان عليهم السلام ، وكلها دعت إلى دين واحد هو الإسلام ، وإن كان لكل أمة شرعة ومنهاجا .

الدعوة الإسلامية ، دعوة لا تقف أمامها الحدود أو السدود ، حدود الوطنية أو القومية ، والدليل أن الله سبحانه وتعالى قد انتدب إبراهيم عليه السلام من أرض الرافدين ليؤدى واجبا بأرض الإسراء والمعراج ، وواجبا بأرض مصر ، وواجبا بجزيرة العرب ، وانتدب من ذريته من قام بواجب الدعوة الإسلامية على أرض الشام وجزيرة العرب ومصر .

وفى هذا إهدار لحواجز الوطنية والقومية والعنصرية ، فالمسلم أرض الله كلها وطن له ، من الواجب أن يدعو عليها إلى الإسلام على بصيرة .

واجب الداعى حيال رعيته ، أن يربيها على الإسلام ...

نلمح ذلك فى أحد أفراد رعية سليمان عليه السلام الذين وجههم سليمان عليه السلام على الإسلام ، إنه الهدهد الذى أدرك أن الدعوة إلى الله واجبة ، وأن الأمر بالمعروف والنهى المنكر واجب ، وأن العبادة لايجب أن تكون إلا لله الواحد القهار ، وأن صرف العبادة للطاغوت هى نتيجة تسلط الشيطان على الإنسان :

﴿ إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ .

« أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضت من رمضان ، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان ، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » . حديث حسن رواه الطبرانى فى الكبير (انظر صحيح الجامع الصغير ، المجلد ٢ ، حديث ١٥٠٩) .



صفات اليهود (الكفار من بنى إسرائيل) وحقيقة المعركة بينهم وبين الأمة المسلمة :

حديث القرآن الكريم عن بنى إسرائيل ، ومواقفهم التى يتجلى فيها العصيان والالتواء والانحراف والنكول عن العهد والميثاق ، حديث طويل ، ندرك ذلك من قوله تعالى :

﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسنا . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون . وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم . وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلّا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾[1] .

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم ، وفريقا تقتلون ؟ ﴾[2] .

ولما كانوا يدعون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم وحدهم المهتدون ، وأنهم وحدهم الفائزون فى الآخرة :

﴿ قل : إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ؟ ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم . والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم

---

(١) البقرة : ٨٣ ؛ تفسير القرآن العظيم ، جـ ١ ، ص ١١٩ ، فى ظلال القرآن ، جـ ١ ، ص ٨٧ وما بعدها .

(٢) البقرة : ٨٨ .

لو يعمر ألف سنة . وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر . والله بصير بما يعملون ﴾[١] .

﴿ أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ؟ بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾[٢] .

ومن هذه الآية الأولى ندرك أن ميثاق الله مع بنى إسرائيل ، ذلك الميثاق الذى أخذ عليهم ، والذى أمروا أن يأخذوه بقوة وأن يذكروا ما فيه .. إن ذلك الميثاق قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله . هذه القواعد التى جاء بها الإسلام أيضاً فتنكروا لها . لقد تضمن ميثاقهم مع الله : ألا يعبدوا إلا الله ... الخ ما ورد فى الآية .

ومن ثم تتقرر حقيقتان : الأولى هى وحدة دين الله ، وتصديق هذا الدين لما قبله . والثانية هى مقدار التعنت فى موقف اليهود من هذا الدين (الإسلام) ، وهو يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه ، وأعطوا عليه الميثاق :

﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾[٣] أى أنهم جحدوه وتركوا العمل به وأنهم أبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم .

﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله — ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم . ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾[٤] .

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[٥] .

﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى . تلك أمانيهم .

---

(١) البقرة : ٩٤ — ٩٦ . (٢) البقرة : ١٠٠ . (٣) البقرة : ٨٩ .
(٤) البقرة : ١٠٢ (٥) البقرة : ١٠٥ .

قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى ! من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .[1]

﴿ وقالوا : اتخذ الله ولدا . سبحانه ؟ بل له ما فى السموات والأرض ، كل له قانتون . ﴾[2] .

﴿ إنَّا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ﴾[3]

إنها هى العقيدة ، هذه هى المعركة التى يشنها اليهود والنصارى فى كل أرض وفى كل وقت ضد الجماعة المسلمة.[4]

« **إنها معركة العقيدة هى المشبوبة بين المعسكر الإسلامى وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما ، وقد تتخاصم شيع الملة** الواحدة فيما بينهما ، ولكنها تلتقى فى المعركة ضد الإسلام والمسلمين .

إنها العقيدة فى صميمها وحقيقتها . ولكن المعسكرين العريقين فى العداوة للإسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى ، ويرفعان عليها أعلاما شتى فى خبث ومكر وتورية . إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة . ومن ثم استدار الأعداء **فغيروا أعلام المعركة** . لم يعلنوها حربا باسم العقيدة - على حقيقتها - خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها ، إنما أعلنوها باسم الأرض ، الاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية وما إليها . **وألقوا فى روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها . ولا يجوز رفع رايتها** ، وخوض المعركة باسمها . فهذه سمة المتخلفين

---

(١) البقرة : ١١١ . (٢) البقرة : ١١٦ . (٣) البقرة : ١١٩ .

(٤) ومن أجل هذا الهدف شوه اليهود والنصارى تاريخ الأمة المسلمة ومنه تاريخ إبراهيم عليه السلام وذريته ومنهم يعقوب وداود وسليمان عليهم السلام .

المتعصبين بينما هم وقرارة نفوسهم الصهيونية العالمية والصليبية العالمية – بإضافة الشيوعية العالمية – جميعا يخوضون – المعركة أولا وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العالية التى نطحوها طويلا فأدمتهم جميعا .

ما تزال الأمة المسلمة تعانى من دسائس اليهود ومكرهم ما عاناه أسلافها من هذا المكر ومن تلك الدسائس ، غير أن الأمة المسلمة لا تنتفع – مع الأسف – بتلك التوجيهات القرآنية ، وبهذا الهدى الإلهى ، الذى انتفع به أسلافها ، فغلبوا كيد اليهود ومكرهم فى المدينة ، والدين ناشىء والجماعة المسلمة وليدة .. وما يزال اليهود – بلؤمهم ومكرهم – يضللون هذه الأمة عن دينها ويصرفونها عن قرآنها ، كى لا تأخذ منه أسلحتها الماضية وعدتها الواقية ، وهم آمنون ما انصرفت هذه الأمة عن موارد قوتها الحقيقية وينابيع معرفتها الصافية .. وكل من يصرف هذه الأمة عن دينها وعن قرآنها فإنَّما هو من عملاء يهود . سواء عرف أم لم يعرف ، أراد أم لم يرد ، فسيظل اليهود فى مأمن من هذه الأمة مادامت مصروفة عن الحقيقة الواحدة المفردة التى تستمد منها وجودها وقوتها وغلبتها – حقيقة العقيدة الإيمانية والمنهج الإيمانى والشريعة الإيمانية – فهذا هو الطريق وهذه هى معالم الطريق »[1]

اليهود (الكُفّارُ من بنى إسرائيل) ملعونون بسبب عصيانهم واعتدائهم على شرع الله :

﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ! ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾[2] .

والذين كفروا من بنى إسرائيل هم الذين حرفوا كتبهم المنزلة ، وهم الذين

---

(١) فى ظلال القرآن .

(٢) المائدة : ٧٨ – ٨١ ؛ فى ظلال القران ، جـ ٢ ، ص ٩٤٧ وما بعدها .

لم يتحاكموا إلى شريعة الله – كما مر فى المواضع القرآنية المتعددة ، وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لينُصُرن كلّ رسولٍ ويُعَزِّرُونَهُ ويتبعونه :

﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ .. .

فهى المعصية والاعتداء ، يتمثلان فى كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء . وقد حفل تاريخ بنى إسرائيل بالمعصية والاعتداء .. كما فصل الله فى كتابه الكريم ، وكما بينا فى رسالتنا هذه .

ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالا فردية فى مجتمع بنى إسرائيل . ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها ، وأن يسكت عنها المجتمع . ولا يقابلها بالتناهى والنكير :

﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ .. .

إن العصيان والعدوان قد يقعان فى كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين . فالأرض لا تخلو من الشر ، والمجتمع لا يخلو من الشذوذ ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفا مصطلحا عليه وأن يصبحا سهلا يجترىء عليه كل من يهم به .. وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير فى مجتمع من المجتمعات ، ويصبح الجزاء على الشر رادعا وجماعيا تقف الجماعة كلها دونه ، وتوقع العقوبة الرادعة عليه .. عندئذ ينزوى الشر ، وتنحسر دوافعه . وعندئذ يتماسك المجتمع فلا تنحل عراه . وعندئذ ينحصر الفساد فى أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع ، ولا يسمح لها بالسيطرة ، وعندئذ لا تشيع الفاحشة . ولا تصبح هى الطابع العام ! .

والمنهج الإسلامى – بعرضه لهذه الظاهرة فى المجتمع الإسرائيلى – فى صورة الكراهية والتنديد . يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حى متجمع صلب ،يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية ، قبل أن تصبح ظاهرة عامة ، ويريد للمجتمع الإسلامى أن يكون صلبا فى الحق ، وحساسا تجاه الاعتداء عليه ، ويريد للقائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التى استحفظوا عليها ، فيقفوا فى وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء .. ولا يخافوا لومة لائم ، سواء جاء هذا الشر

من الحكام المتسلطين بالحكم ، أو الأغنياء المتسلطين بالمال ، أو الأشرار المتسلطين بالأذى ، أو الجماهير المتسلطة بالهوى . فمنهج الله هو منهج الله ، والخارجون عليه علوا أم سفلوا سواء .

والإسلام يشدد فى الوفاء بهذه الأمانة ، فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر إذا هى سكتت عليه ، ويجعل الأمانة فى عنق كل فرد ، بعد أن يضعها فى عنق الجماعة عامة .

روى الإمام أحمد - بإسناده - عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول ﷺ : « لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم . وواكلوهم وشاربوهم . فضرب الله بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ... ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ . وكان الرسول - ﷺ - متكئا فجلس ، فقال : « ولا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا » .

وروى أبو داود - بإسناده - عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنّه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » ، ثم قال : ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ﴾ - إلى قوله : ﴿ فاسقون ﴾ ثم قال : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا - أو تقصرنه على الحق قصرا » .

فليس هو مجرد الأمر والنهى ، ثم تنتهى المسألة ، إنما هو الإصرار والمقاطعة ، والكف بالقوة عن الشر والفساد والمعصية والاعتداء .

وروى مسلم - بإسناده - عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه .. وذلك أضعف الإيمان » .

«وروى الإمام أحمد – بإسناده – عن عدى بن عميرة قال – سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « إن الله لا يُعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم – وهم قادرون على أن ينكروه – فلا ينكرونه فإذا فعلوا عذب الله العامة والخاصة » .

وروى أبو داود والترمذى – بإسناده – عن أبى سعيد قال : قال رسول الله – ﷺ – : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » .. .

وتتوارد النصوص القرآنية والنبوية تترى فى هذا المعنى ، لأن هذا التماسك فى كيان الجماعة بحيث لا يقول أحد فيها – وهو يرى المنكر يقع من غيره – وأنا مالى ! وهذه الحمية ضد الفساد فى المجتمع ، بحيث لا يقول أحد – وهو يرى الفساد يسرى ويشيع – وماذا أصنع والتعرض للفساد يلحق بى الأذى ؟! وهذه الغيرة على حرمات الله ، والشعور بالتكليف المباشر بصيانتها والدفع عنها للنجاة من الله .. هذا كله هو قوام الجماعة المسلمة الذى لا قيام لها إلا به .. .

وهذا كله فى حاجة إلى الإيمان الصحيح بالله ، ومعرفة تكاليف هذا الإيمان . وإلى الإدراك الصحيح لمنهج الله ، ومعرفة أنه يشمل كل جوانب الحياة . وإلى الجد فى أخذ العقيدة بقوة ، والجهد لإقامة المنهج الذى ينبثق منها فى حياة المجتمع كله .. فالمجتمع المسلم الذى يستمد قانونه من شريعة الله ، ويقيم حياته كلها على منهجه ، هو المجتمع الذى يسمح للمسلم أن يزاول حقيقة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بحيث لا يصبح هذا عملا فرديا ضائعا فى الخضم ، أو يجعله غير ممكن أصلا فى كثير من الأحيان ! كما هو الحال فى المجتمعات الجاهلية القائمة اليوم فى أرجاء الأرض ، والتى تقيم حياتها على تقاليد ومصطلحات اجتماعية تسترذل تدخل أحد فى شأن أحد ، وتعتبر الفسق والفجور والمعصية « مسائل شخصية » ! ليس لأحد أن يتدخل فى شأنها ... كما تجعل من الظلم والبطش والاعتداء والجور سيفا مصلتا من الإرهاب يلجم الأفواه ، ويعقد الألسنة ، وينكل بمن يقول كلمة حق أو معروف فى وجه الطغيان .. .

« إن الجهد الأصيل ، والتضحيات النبيلة يجب أن تتجه أولا إلى إقامة المجتمع الخير .. والمجتمع الخير هو الذى يقوم على منهج الله ... قبل أن ينصرف الجهد

والبذل والتضحية إلى إصلاحيات جزئية ، شخصية وفردية ، عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

« إنه لا جدوى من المحاولات الجزئية حين يفسد المجتمع كله ، وحين تطغى الجاهلية ، وحين يقوم المجتمع على غير منهج الله ، وحين يتخذ له شريعة غير شريعة الله . فينبغى عندئذ أن تبدأ المحاولة من الأساس ، وأن تنبت من الجذور ، وأن يكون الجهد والجهاد لتقرير سلطان الله فى الأرض .. وحين يستقر هذا السلطان يصبح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شيئا يرتكن إلى أساس .

وهذا يحتاج إلى إيمان . وإلى إدراك لحقيقة هذا الإيمان ومجاله فى نظام الحياة . فالإيمان على هذا المستوى هو الذى يجعل الاعتماد كله على الله والثقة كلها بنصرته للخير - مهما طال الطريق - واحتساب الأجر عنده فلا ينتظر من ينهض لهذه المهمة جزاء فى هذه الأرض ، ولا تقديرا من المجتمع الضال ، ولا نصرة من أهل الجاهلية فى أى مكان ! .

إن كل النصوص القرآنية والنبوية التى ورد فيها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم فى مجتمع مسلم . مجتمع يعترف ابتداء بسلطان الله ، ويتحاكم إلى شريعته ، مهما وجد فيه من طغيان الحكم ، فى بعض الأحيان ، ومن شيوع الإثم فى بعض الأحيان .. وهكذا نجد فى قول الرسول - ﷺ - : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » فهو « إمام » ولا يكون إماما حتى يعترف ابتداء بسلطان الله ، وبتحكيم شريعته . فالذى لا يحكم شريعة الله لا يقال له : « إمام » إنما يقول عنه الله - سبحانه - ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .

فأما المجتمعات الجاهلية التى لا تتحاكم إلى شريعة الله ، فالمنكر الأكبر فيها والأهم ، هو المنكر الذى تنبع منه كل المنكرات ... هو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة .. وهذا المنكر الكبير الأساسى الجذرى هو الذى يجب أن يتجه إليه الإنكار ، قبل الدخول فى المنكرات الجزئية ، التى هى تبع لهذا المنكر الأكبر ، وفرع عنه ، وعرض له ....» .

« إنه لا جدوى من ضياع الجهد .. جهد الخيرين الصالحين من الناس .. فى مقاومة المنكرات الجزئية ، الناشئة بطبيعتها من المنكر الأول . منكر الجرأة على الله وادعاء خصائص الألوهية ، ورفض ألوهية الله ، برفض شريعته للحياة .. لا جدوى من ضياع الجهد فى مقاومة منكرات هى مقتضيات ذلك المنكر الأول وثمراته النكدة بلا جدال . »

« على أنه إلام نحاكم الناس فى أمر ما يرتكبونه من منكرات ؟ بأى ميزان نزن أعمالهم لنقول لهم : إن هذا منكر فاجتنبوه ؟ أنت تقول : إن هذا منكر . فيطلع عليك عشرة من هنا ومن هناك يقولون لك : كلا ! ليس هذا منكرا . لقد كان منكرا فى الزمان الخالى ! والدنيا « تتطور » ، والمجتمع « يتقدم » وتختلف الاعتبارات » .

فلابد إذن من ميزان ثابت نرجع إليه الأعمال ، ولابد من قيم معترف بها نقيس إليها المعروف والمنكر . فمن أين نستمد هذه القيم ؟ ومن أين نأتى بهذا الميزان ؟ » .

« من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم – وهى متقلبة لا تثبت على حال ؟ إننا ننتهى إذن إلى متاهة لا دليل فيها ، وإلى خضم لا معالم فيه ! .

فلابد ابتداء من إقامة الميزان .. ولابد أن يكون هذا الميزان ثابتا لا يتأرجح مع الأهواء ....» .

هذا الميزان الثابت هو ميزان الله ... .

فماذا إذا كان المجتمع لا يعترف – ابتداء – بسلطان الله ؟ ماذا إذا كان لا يتحاكم إلى شريعة الله ؟ بل ماذا إذا كان يسخر ويهزأ ويستنكر وينكل بمن يدعوه إلى منهج الله ؟» .

« ألا يكون جهدا ضائعا ، وعبثا هازلا ، أن تقوم فى مثل هذا المجتمع لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . فى جزئيات وجانبيات من شئون الحياة ، تختلف عليها الموازين والقيم ، وتتعارض فيها الآراء والأهواء ؟! » .

إنه لابد من الاتفاق مبدئيا على حكم ، وعلى ميزان . وعلى سلطان ، وعلى جهة يرجع إليها المختلفون فى الآراء والأهواء ... .

لابد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة . والنهى عن المنكر الأكبر وهو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة .. وبعد إقامة الأساس يمكن أن يقام البنيان ! فلتوفر الجهود المبعثرة إذن ، ولتحشد كلها فى جبهة واحدة ، لإقامة الأساس الذى عليه وحده يقام البنيان ! .

وإن الإنسان ليرثى أحيانا ويعجب لأناس طيبين ، ينفقون جهدهم فى « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الفروع ، بينما الأصل الذى تقوم عليه حياة المجتمع المسلم ، ويقوم عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مقطوع » .

فما غناء أن تنهى الناس عن أكل الحرام مثلا فى مجتمع يقوم اقتصاده كله على الربا ، فيستحيل ماله كله حراما ، ولا يملك فرد فيه أن يأكل من حلال .. لأنه نظامه الاجتماعى والاقتصادى كله لا يقوم على شريعة الله ، لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ؟! .

وما غناء أن تنهى الناس عن الفسق مثلا فى مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمة - إلا فى حالة الإكراه - ولا يعاقب حتى فى حالة الإكراه بشريعة الله .. لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ؟! .

وما غناء أن تنهى الناس عن السكر فى مجتمع قانونه يبيح تداول وشرب الخمر ، ولا يعاقب إلا على حالة السكر البين فى الطريق العام . وحتى هذه لا يعاقب فيها بحد الله . لأنه لا يعترف ابتداء بحاكمية الله ؟! .

وما غناء أن تنهى الناس عن سب الدين ، فى مجتمع لا يعترف بسلطان الله ، ولا يعبد فيه الله . إنما هو يتخذ أربابا من دونه ، ينزلون له شريعته وقانونه ، ونظامه وأوضاعه ، وقيمه وموازينه . والساب والمسبوب كلاهما ليس فى دين الله . إنما هما وأهل مجتمعهما طرا فى دين من ينزلون لهم الشرائع والقوانين ، ويضعون لهم القيم والموازين ؟! » .

ما غناء الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى مثل هذه الأحوال ؟ ما غناء النهى عن هذه الكبائر – فضلا عن أن يكون النهى عن الصغائر – والكبيرة الكبرى لانهى عنها ... كبيرة الكفر بالله ، برفض منهجه للحياة ؟! .

إن الأمر أكبر وأوسع وأعمق ، مما ينفق فيه هؤلاء « الطيبون » جهدهم وطاقتهم واهتمامهم .. إنه – فى هذه المرحلة – ليس أمر تتبع الفرعيات – مهما تكن ضخمة حتى ولو كانت هى حدود الله . فحدود الله تقوم ابتداء على الاعتراف بحاكمية الله دون سواه . فإذا لم يصبح هذا الاعتراف حقيقة واقعة ، تتمثل فى اعتبار شريعةَ الله هى المصدر الوحيد للتشريع ، واعتبار ربوبية الله وقوامته هى المصدر الوحيد للسلطة .. فكل جهد فى الفروع ضائع . وكل محاولة فى الفروع عبث .. والمنكر الأكبر أحق بالجهد والمحاولة من سائر المنكرات .. .

والرسول – ﷺ – يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الإيمان » .. .

وقد يجىء على المسلمين زمان لا يستطيعون فيه تغيير المنكر بأيديهم ولا يستطيعون فيه تغيير المنكر بألسنتهم ، فيبقى أضعف الإيمان ، وهو تغييره بقلوبهم ، وهذا ما لا يملك أحد أن يحول بينهم وبينه ، إن هم كانوا حقا على الإسلام ! .

وليس هذا موقفا سلبيا من المنكر – كما يلوح فى بادىء الأمر – وتعبير الرسول – ﷺ – بأنه تغيير دليل على أنه عمل إيجابى فى طبيعته . فإنكار المنكر بالقلب ، معناه احتفاظ هذا القلب بإيجابيته تجاه المنكر .. إنه ينكره ويكرهه ولا يستسلم له ، ولا يعتبره الوضع الشرعى الذى يخضع له ويعترف به .. وإنكار القلوب لوضع من الأوضاع قوة إيجابية لهدم هذا الوضع المنكر ، ولإقامة الوضع « المعروف » فى أول فرصة تسنح وللتربص بالمنكر حتى تواتى هذه الفرصة .. وهذا كله عمل إيجابى فى التغيير .. وهو على كل حال أضعف الإيمان . فلا أقل من أن يحتفظ المسلم بأضعف الإيمان ! أما الاستسلام للمنكر لأنه واقع ، ولأن له ضغطا – قد يكون ساحقا – فهو الخروج من آخر حلقة ، والتخلى حتى عن أضعف الإيمان ! » .

هذا وإلا حقت على المجتمع اللعنة التى حقت على بنى إسرائيل :

﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون ! ﴾ . . .

ثم يمضى السياق إلى نهاية هذا المقطع فى الحديث عن بنى إسرائيل ، وهو نهاية هذا الجزء . فيصف حالهم على عهد الرسول - ﷺ - وهى حالهم فى كل زمان وفى كل مكان ، فهم يتولون الذين كفروا . ويتناصرون معهم ضد الجماعة المسلمة . وعلة ذلك - مع أنهم أهل كتاب - أنهم لم يؤمنوا بالله والنبى وأنهم لم يدخلوا فى دين الله الأخير .. فهم غير مؤمنين . ولو كانوا مؤمنين ما تولوا الكافرين :

﴿ ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم . وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾ .

وهذا التقرير كما ينطبق على حال اليهود - على عهد رسول الله ﷺ - ينطبق على حالهم اليوم وغدا ، وفى كل حين . كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الكتاب فى معظم أرجاء الأرض اليوم ... مما يدعو إلى التدبر العميق فى أسرار هذا القرآن ، وفى عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة فى كل آن .. .

لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين ، ويؤلبونهم على المسلمين . ﴿ ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ .. كما حكى عنهم القرآن الكريم . وقد تجلى هذا كله على أتمه فى غزوة الأحزاب ، ومن قبلها ومن بعدها كذلك ، إلى اللحظة الحاضرة .. وما قامت إسرائيل فى أرض فلسطين أخيرا إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدين ! .

فأما الفريق الآخر من أهل الكتاب ، فهو يتعاون مع المادية الإلحادية كلما كان الأمر أمر المسلمين ! وهم يتعاونون مع الوثنية المشركة كذلك . كلما كانت المعركة مع المسلمين ! حتى و « المسلمون » لا يمثلون الإسلام فى

شيء . إلا فى أنهم من ذرارى قوم كانوا مسلمين ! ولكنها الإحنة التى لا تهدأ على هذا الدين ومن ينتمون إليه .

وصدق الله العظيم : ﴿ ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ﴾ .

﴿ لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون ﴾ .

فهذه هى الحصيلة التى قدمتها لهم أنفسهم ... إنها سخط الله عليهم وخلودهم فى العذاب . فما أبأسها من حصيلة ! وما أبأسها من تقدمة تقدمها لهم أنفسهم ، ويالها من ثمرة مرة . ثمرة توليهم للكافرين ! .

فمن منا يسمع قول الله سبحانه عن القوم ؟ فلا يتخذ من عند نفسه مقررات لم يأذن بها الله : فى الولاء والتناصر بين أهل هذا الدين ، وأعدائه الذين يتولون الكافرين ! .

وما الدافع ؟ ما دافع القوم لتولى الذين كفروا ؟ إنه عدم الإيمان بالله والنبى :

﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾ .

هذه هى العلة .. إنهم لم يؤمنوا بالله والنبى .. إن كثرتهم فاسقة .. إنهم يتجانسون – إذن – مع الذين كفروا فى الشعور والوجهة ، فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين .

* إذا ما قرأ الإنسان تاريخ الأنبياء والرسل وأنهم جميعا دعوا إلى الدين الصحيح وهو الإسلام ، وتعرف على حقيقته وأركانه وبنائه ، وأنه دين توحيد الله عز وجل ، توحده كإله عظيم أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد توحده كرب العالمين ، توحده فى أسمائه وصفاته . وأنه على قاعدة التوحيد يقوم نظام حياة متكامل سياسى واقتصادى وتعليمى واجتماعى وعسكرى .... الخ .

إذا عرف الإنسان ذلك جيداً ، وأدرك أنه مطالب باعتناق هذا الدين الصحيح ، والدخول فى الإسلام كافة ، وأن الإسلام هو دين من عند الله

عز وجل ، وأن الله لا يقبل من الأولين أو الآخرين غيره ، وأن ما عداه من الأديان والعقائد ففاسد ومضل وأصحابه ضالون مضلون ، من المؤكد أنه – فى الغالب – سيعتنق هذا الدين ، لأنه سيدرك أنه لانجاة له فى الآخرة إلا بهذا الدين ، وإن لم يعتنقه ، فستكون قد قامت عليه الحجة من الله عز وجل ، برفضه الانصياع لهذا الدين .

وإذا قدر له الهداية ، فسيدرك أنه كان ضحية حملة من التضليل يقودها عتاة الشياطين الإنسية من اليهود والنصارى والملحدين ، وأنه قد آن الأوان ليحمل دعوة الله فى عنقه ليبلغها إلى غيره من أبناء آدم عليه السلام ، يبلغها بكل الوسائل التى شرعها الله عز وجل ، من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، إلى الخروج جهاداً فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

ولما كان الإسلام هو الدين الذى دعا إليه جميع أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام . وهو الدين الواحد الذى لا يقبل الله من الأولين أو الآخرين غيره ، وإن كان لكل أمة شرعة ومنهاج .. .

فهذا يعنى عدم جواز القول بأديان سماوية ، جاء الإسلام فى ختامها ، وإنما يمكن القول بيقين أنها رسالات سماوية دعت كلها إلى دين واحد هو الإسلام ، ورسالة محمد ﷺ هى خاتمة الرسالات .

وهذا يعنى أيضاً أنه ليس هنالك دين اسمه اليهودية قد دعا إليه رسول من رسل الله ، وليس هنالك دين اسمه المسيحية دعا إليه رسول من عند الله ، وذلك يعنى أن اليهودية والمسيحية هما دينا أصحاب العقيدة الفاسدة .

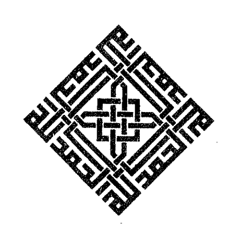
وهذا يقودنا أيضاً إلى الحذر الشديد من دعوة التقارب بين الأديان ، لأنها دعوى يهودية تهدف إلى إذابة الفوارق بين الإسلام دين التوحيد وبين العقائد

الأخرى الفاسدة . والهدف من وراء ذلك هورد المسلمين كفاراً حسداً من عند أنفسهم : ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ . « صدق الله العظيم » .

● ان شعب مصر كغيره من شعوب الأرض كان مفطوراً على الإسلام ، ولمّا كان الشيطان مسلطاً على بنى آدم ليجتالهم عن دينهم ، فقد تعهد الله سبحانه وتعالى شعب مصر من آن لآخر بالرسل يردونه إلى ربه وإسلامه . ومن هؤلاء الرسل يوسف وموسى عليهم السلام .

وذلك يعنى أن شعب مصر فى الأصل شعب مسلم (منذ زمن لايعلمه إلا الله) ، وأن الوثنية والشرك والعقائد الأخرى الفاسدة دخيلة وطارئة عليه ، وهذا يدحض الزعم القائل بأن الإسلام دخيل على مصر (بعد بعثة محمد ﷺ) . إذ الحقيقة أن العقائد الفاسدة الأخرى هى الدخيلة على أرض مصر .

سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك . وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





المصادر والمراجـع

المصادر المعتمدة :

القرآن الكريم وما يتصل به من كتب التفسير :

– جامع البيان عن تأويل آي القرآن « الشهير بتفسير الطبري » ، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ،مكتبة الحلبي ، القاهرة ١٣٨٨ هـ .

– الجامع لأحكام القرآن « الشهير بتفسير القرطبي » تأليف أبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٦٦ م .

– تفسير القرآن العظيم « الشهير بتفسير ابن كثير » ، تأليف الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) دار الفكر ، بيروت .

– فى ظلال القرآن ، تأليف سيد قطب ، دار الشروق ، بيروت ١٣٩٣ هـ .

– صفوة التفاسير تأليف محمد على الصابونى ، دار القرآن الكريم بيروت .

صحاح الحديث وشروحها ومنها :

– جامع الأصول للإمام أبى السعادات مبارك بن محمد بن الأثـير الجذرى ، طب دار إحياء التراث ، بيروت ١٤٠٠ هـ .

– صحيح أبي عبد الله البخاري ،مكتبة المشهد الحسيني ، القاهرة .

– مختصر صحيح مسلم ، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، للحافظ زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي بن سلامة المنذري الدمشقي ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، ط ٣ ، المكتب الإسلامى ١٣٩٥ هـ .

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تأليف أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢) ، عاون في طبعه وإخراجه محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت .

- سلسلة الأحاديث الصحيحة ، تأليف محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي ط ٣ ، ١٤٠٣ .

- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) تأليف محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ط ٣ ، ١٤٠٢ .

- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي عن الكتب الستة وعن مسند الدارمي وموطأ مالك ، ومسند أحمد بن حنبل : ابتدأ ترتيبه وتنظيمه ونشره أ. ى. ونسنك، وى. ب. مسنج ، واتبع نشره ى. بروخمان ، مطبعة بريل ، لندن ١٩٦٩ م .

مصادر متنوعة :

- صحيح الجامع الصغير وزيادة (الفتح الكبير) تأليف محمد ناصرالدين الألبانى ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، ط ٣ ١٤٠٢ هـ

- البداية والنهاية ، تأليف الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي ، مكتبة المعارف ، بيروت .

- السيرة النبوية ، نفس المؤلف السابق الذكر ، تحقيق مصطفى عبدالواحد ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٦ هـ .

- تاريخ الرسل والملوك تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبرى ، ط دار المعارف القاهرة (يجب إخضاع رواياته للجرح والتعديل قبل الاعتماد على ماجاء فيها) .

- قذائف الحق ، تأليف الشيخ محمد الغزالى .

- الكون المسلم مقالة للدكتور عبد الرحمن بارود الأستاذ بجامعة الملك عبدالعزيز . جده .

مراجع
كتبها المستشرقون
ومن سار على نهجهم أو تبنى أفكارهم - بقصد أو بغير قصد - وهي تحوي تحريفاً أو تشويهاً أو تزييفاً لتاريخ ذرية إبراهيم وبيت المقـــدس
وموضـــوعات أخـــرى

- الموسوعة العربية الميسرة ، اشترك في تحريرها عديد من أساتذة الجامعات ، وأشرف عليها محمد شفيق غربال ، م ١ ، القاهرة ١٩٦٥ م .

- الحضارات السامية القديمة ، تأليف س موسكاتي ، ترجمة د. السيد يعقوب بكر ؛ مراجعة د. محمد القصاص ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة .

- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، تأليف جواد علي ، العراق ١٩٧٠ م .

- الموسوعة العربية الميسرة .

- العرب قبل الإسلام ، تأليف جورجي زيدان ، القاهرة .

- الدعوة إلى الإسلام ، تأليف توماس أرنولد ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ، القاهرة .

- تاريخ العرب المطول ، تأليف فيليب حتي وآخرون ، بيروت .

– تاريخ التمدن الإسلامي ، تأليف جورجي زيدان ، دار الهلال ، القاهرة .

– تاريخ العرب العام ، تأليف ل. أ. سيديو ، ترجمة عادل زعيتر ، ط ٢ ، القاهرة ١٣٨٩ هـ .

– تاريخ العرب عصر ما قبل الإسلام ، تأليف محمد مبروك نافع ، القاهرة .

– حضارة العرب ، تأليف جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة الحلبي ، القاهرة .

– دائرة معارف القرن العشرين ، تأليف محمد فريد وجدي ، مطبعة الشعب القاهرة .

– دائرة المعارف الإسلامية ، قام بتأليفها مجموعة من المستشرقين .

– دراسات تاريخية من القرآن الكريم « في بلاد العرب » تأليف الدكتور محمد بيومي مهران ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٤٠٠ هـ .

– حضارة مصر والشرق القديم تأليف د. محمد أنور شكرى وآخرون ، القاهرة .

– سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين ، تأليف د. حسن صبري الخولي ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٣ م .

– قصة الحضارة ، تأليف ول. ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، إدارة التأليف والنشر ، جامعة الدول العربية ، القاهرة .

– موسوعة العقاد الإسلامية ، تأليف عباس محمود العقاد ، ج ١ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦١ م .

– موسوعة« تاريخ العالم » أشرف على إعداده جون. أ. هامرتن ، وقام بتأليفه لفيف من أساتذة الجامعات ، وقام بالترجمة بعض الأساتذة هم : محمد بدران ، وعبدالحميد يونس ، ومحمد ابراهيم الدسوقى ، ومحمد عوض محمد ، وإبراهيم زكى خورشيد ، ط ٢ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .